رشيد الضعيف

تبليط البحر





رواية

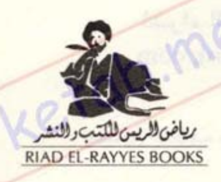
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

رشيد الضعيف

تبليط البحر

روايـــة





تبليط البحر

Reclaiming Land from the Sea

Novel

Rashid Al-Daïf

First Published in May 2011

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 500 - 6

ساهم في دعم مؤلف هذا الكتاب
«الصندوق العربي للثقافة والفنون» ــ آفاق

الطبعة الأولى: أيار (مايو) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

بدأت قصّة «فارس هاشم» قبل مولده إذن.

بدأت قصّته من الصداقة التي كانت تربط والده «منصور» بابن قريته «اسكندر حليم»، في السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر، أي قبل أن تبدأ السفن البخاريّة بالرسوّ في مرفأ بيروت.

وقد تركت هذه الصداقة أثراً حاسماً في حياة منصور، لأنّ اسكندر كان يجيد القراءة والكتابة، ويحفظ الأشعار، وكانت له معرفة بالحساب والجغرافيا، وباللغة الإنكليزيّة أيضاً، وكان مطّلعاً على كثير من أسرار الكون.

كان اسكندر يتعلّم في مدرسة في قرية «سوق الغرب» أنشأها المرسلون البروتستانت الأوائل، وكان تلميذاً داخليّاً لا يعود إلى قريته «براشا» إلّا أيّامَ الأعياد والعطل الصيفيّة التي كان يمضيها

برفقة صديقه الحميم منصور.

اعتنق اسكندر المذهب البروتستانتي لكنّه لم يخبر بذلك أحداً سوى صديقه منصور الذي لم يفشِ السرّ، رغم أنّ الاحتفاظ به لم يكن سهلاً عليه، لأنّ هؤلاء المرسَلين المبشّرين جاؤوا من البلاد البعيدة لتحويل نصارى الشرق عن دينهم.

وقدم هؤلاء بالفعل من بلاد بعيدة ـ أميركا ـ في سفن شراعية قبل البخار، وكانت تلك البلاد البعيدة في ذلك الوقت أوّلَ انطلاقتها لتصبح أعظم دولة في العالم، من حيث الصناعة والتجارة والزراعة والحرب وأنواع العلوم الأخرى. قدموا من أميركا التي استقطبت خلال أقلّ من نصف قرن، بضع عشرات من الملايين من اليد العاملة الشابّة لتلبية حاجاتها الاقتصادية.

قدموا إذن من أميركا التي علم الناس، في ما بعد، أنّ اسمها الرسميّ هو الولايات المتّحدة الأميركيّة. وسُمّوا أوّل وصولهم إلى بلادنا ـ أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر ـ بالإنكليز، لأنّهم كانوا يتكلّمون الإنكليزيّة، وكانوا في رعاية ممثّلي بريطانيا العظمى.

وكانوا كالمردة عظامَ الأجسام، شُقراً بُرصاً حُمراً، متعلّمين يحملون الشهادات العالية في علوم الدين والفلسفة والطبّ من أعظم الجامعات الأميركيّة وأعرقها.

وكانوا صادقين ومهذّبين ومستقيمين في سلوكهم.

أُعجب منصور بأخبارهم حتّى الدهشة... لولا أنّهم أرادوا تحويل النصارى عن دينهم.

وكانوا يجيدون الرسم، ويرسمون أوجهَ الناس وأجسامَهم وثيابهم، والشجرَ والنبات والحيوان، والبيوت ومحتويات البيوت، والشوارعَ والدروْب والمدن والمناظر الطبيعيّة والآثار المتبقيّة، والدخان المتصاعد من حرائق بعيدة، وكلِّ شيء.

وكانوا مؤمنين بمعتقداتهم لا يحيدهم عنها شيء ولا صعوبة. وقد أرادوا في الأصل أن يبشّروا جميع مسلمي الأمبراطوريّة العثمانيّة بكلمة الله، وأرادوا أن يحوّلوهم إلى البروتستانتيّة، لكنّهم اصطدموا بتمسّك المسلمين بدينهم، واصطدموا بحزم السلطنة العثمانيّة في منعهم من ذلك. غير أن هذه السلطنة تساهلت معهم في أمر تبشير النصارى، فركّزوا لذلك عليهم، مقدّمةً لتنصير آسيا المسلمة بالكامل في ما بعد. لكنّ النصارى، أرواماً وموارنةً، لم يفتحوا لهم أبوابهم، وتماسكوا في وجههم وعادوهم واضطهدوهم ومنعوهم من تحقيق أهدافهم، وبخاصّة في المراحل الأولى، إلاّ بعض الخروقات القاسية، التي كان أوّلَها اعتناقُ أسعد الشدياق الماروني البروتستانتيّة وجهره بها، فاحتُجز في دير في وادي قنّوبين، في شمال لبنان، لمدّة أربع سنوات بتهمة الجنون، ومات فيها على هذه الحال عام ١٨٣٢، واعتبره البروتستانت الشهيد الأوّل في سورية. وعلى أثر ذلك خرج أخوه فارس الشدياق ـ الذي صار أحد عظماء النهضة ـ على الكنيسة، واعتنق البروتستانتية قبل أن يُسلم ويُسمّي نفسه أحمد فارس الشدياق، ثمّ قيل إنّه عاد إلى طائفته في المرحلة الأخيرة من حياته ومنهم من قال لا، وحدث خلاف بين رجال دين سنّة ورجال دين موارنة على المكان الذي يجب أن يُدفن فيه، فلم يُدفن في مقابر أولئك ولا في مقابر هؤلاء، بل في مقابر المتصرّفين الذين حكموا جبل لبنان، في منطقة الحازميّة فوق بيروت.

وحدثت خروق قاسية أيضاً عند الروم الأرثوذكس، قبل أن ينفتحوا عليهم قليلاً في ما بعد.

كانت حالة العداء هذه والأحداث التي نتجت منها تضاعف شعور منصور بخطورة السرّ الذي يحفظه، لكنّ خيانة الصداقة كانت في صعوبة خيانة الطائفة، لذلك قرّر أن يشترك في إحراق الخيمة التي نصبها المبشّر «ليونز» عند مشارف قريته براشا، تعويضاً عن كتمانه سرّ تحوّل ابن قريته وطائفته إلى دين الغرباء. فقد بلغ أهالي براشا يوماً أنّ المبشّر ليونز وصل على حصان ومعه خادم ودليل إلى «مطلّ العرائش» عند مشارف القرية، ونصب هناك خيمةً وفرشها بالبسُط وبأشياء غريبة، وأخرج من صندوق خشبي كتباً بروتستانتية، فتجمهر الشباب في ساحة القرية، وقصدوا «المطلّ» عازمين على طرد هذا «الإنكليزي» الذي لا يؤمن بالعذراء مريم من محيط قريتهم، وعازمين على حرقِ خيمته ومحتوياتها المدنّسة، وكان على رأسهم منصور، الذي كان يعرف عن طريق اسكندر أن هذا الأجنبي المبشّر ليس إنكليزيّاً بل أميركي من بلد يسمّى حقيقةً الولايات المتحدة الأميركية، ولمّا وصلوا إلى هناك داروا حول الخيمة أوّلاً، وصُدموا بجدّتها ونوع قماشها ووضوح لونها واستقامة خطوطها وحدّة زواياها، وبعدما تردّدوا قليلاً دخلوا الخيمة بدون استئذان، وراحوا يلبطون محتوياتها، ومنهم من تجرّأ وتمدّد على الفراش الذي كان المبشّر ليونز جالساً عليه، وقد احتار في ما يجب أن يفعله ليردّ عنه هذا الاعتداء.

منصور لم يدخل إلى الخيمة لئلاّ يراه المبشّر ويُخبر اسكندر بأوصافه، لكنّه حاول إشعال الخيمة من الخارج بقدّاحته الصوّان التي تقدح النار على طريقة ذلك الزمان فلم تشتعل، لكنّ رائحة

الدخان الذي تصاعد قليلاً بلغت المبشّر ليونز، فخرج مسرعاً ليتحقّق من الأمر فهرب منصور لئلا يرى المبشّر وجهه.

ولما اطمأنّ ليونز إلى عدم خطورة الأمر عاد إلى الداخل وقد تذكّر حيلةً عظيمة.

كان الشباب ما يزالون يعبثون بمحتويات الخيمة، وبينها نسخ من كتب دينيّة بروتستانتيّة، حين شقّ طريقه بينهم وقصد دفتره الذي يرسم عليه وتناوله وجلس في زاوية من الخيمة وبدأ يرسمهم، فاقترب منه أحدهم ليأخذ الدفتر من يده، فرأى وجهه على ورقة فاضطرب!

كان ليونز يعرف أنّ الناس هنا يعتقدون أنّ الإنسان إذا رُسم على ورقة يموت فور أنْ تُحرق هذه الورقة، وذلك في كلّ مكان أو زمان، فلو عاد هذا المبشّر مثلاً إلى بلده في أميركا، وأحرق هذه الورقة هو أو غيره، بعد خمسين سنة، فإنّ صاحبها يموت هنا في جبل لبنان على الفور. وعرف ليونز بهذا المعتقد حين كان يوماً في بيروت يرسم باباً في سور المدينة، قبل سنوات من أن تدمّره مدافع البواخر الحربيّة الإنكليزيّة، التي قصفت بيروت عام ١٨٤٠ لتجبر قوات إبراهيم باشا المصري على الانكفاء إلى مصر بعدما هدّدا لسلطنة العثمانيّة بالسقوط.

كان ليونز جالساً يرسم حين اقترب أحدهم خلسة من وراء ظهره، ونظر إلى الورقة ليرى عليها الباب ذاتَه والناسَ والدوابَ يعبرون جيئة وذهاباً، فذهب ووقف في الباب ساعة ثمّ عاد ونظر إلى الورقة من وراء المبشّر فرأى نفسه عليها واقفاً في الباب، هو ذاته بالذات، ففقد عقله من الخوف والدهشة، وراح يركض في أسواق

المدينة ويصرخ بأنّ يوم الدين جاء، فتبعه الناس وقادهم إلى حيث يجلس ليونز الذي عجب من تجمهرهم حولَه، فأوضحوا له أنّ الرسم حرام، وأنّ كلّ من يُرسم على ورقة يموت ما إن تُحرَق الورقةُ، فسألهم عن الحلّ فقالوا له مزّقها! فمزّقها أمامهم وانتهت الأزمة بسلام.

حين اقترب أحد الشباب في براشا إذن من ليونز ورأى وجهه على ورقة اضطرب، وخرج من الخيمة داعياً رفاقه جميعاً إلى الخروج وأخبرهم بما رأى.

اضطرب منصور وودّ لو أنّه كان يستطيع الاستفسار في تلك اللحظة من اسكندر.

ثمّ اتفقوا جميعاً بعد التداول، على أن يطلبوا من الخادم أن ينقل إلى المبشّر رغبتهم في أن يمزّق هذه الورقة، وأن يمتنع عن رسم أيٍّ منهم، وله في المقابل أن يتركوه وشأنه وأن يُعطوه ما يريده من خبز وبيض ولبن وسمن وزيت، وما يريده من شعير لفرسه، فقبِل ليونز بشرط أن يلملموا بأيديهم عن الأرض نسخ الكتب الدينيّة وبخاصّة الكتاب المقدّس وأن يعيدوها باحترام إلى مكانها.

فوجئ ليونز بقوّة تأثير هذه الخرافة، وبانتشارها في أوساط المسيحيين والمسلمين على السواء. لكنّ منصور علم في ما بعد أنّ هذا الاعتقاد «خرافة»، أي إنّه أمر لا يحدث وهو من صنع المخيّلة، وأخبره بذلك صديقه اسكندر الذي شرح له ما هي الخرافة، وكيف أنّ الناس في بلادنا يؤمنون بالـ«خرافات» لأنّهم جاهلون وقليلو الدين. وكانت تلك أوّل مرّة يسمع بهذه الكلمة ـ خرافة ـ وبالكلمة التي تُجمع عليها ـ خرافات.

ـ كلّ حياتنا خرافات إذن؟

ـ نعم! أجابه اسكندر.

وكان يصدّق دائماً ما يقوله صديقُه ويقتنع به، ما عدا مسألة ترك دينه واعتناق البروتستيانتيّة، ومسألة تكريم السيّدة العذراء وقوّة شفاعتها عند الله.

أحدث اسكندر انقلاباً في نفس منصور، وفجّر كلّ قناعاته وتصوّره للعالم. أخبره بأنّ الأرض كرة سابحة في الفضاء وتدور حول نفسها وحول الشمس، وأخبره بأنّ الكون لامتناهٍ في الكبر وبأنّ أعداد النجوم لا تحصى، وبأنّ السماء ليست فوقنا ولا تحتنا وأنّ الله لا يقيم بين النجوم.

وأخبره بأنّ ثلثي مساحة الكرة الأرضيّة مغمور بالماء، وأنّ اليابسة تشكّل الثلث الباقي، وأنّ العالم خَمسُ قارّات، وأنّ الأميركيّتين قارّة واحدة وأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة أمّة تقع في القسم الشمالي منها. وكان يعرف الكثير عن بلدان عديدة أخرى.

وأخبره عن الاكتشافات العديدة وعن الاختراعات، وأخبره عن السفن التي تسير بقوّة البخار وتحمل جبالاً من البضائع وتسرع أكثر من السفن العاديّة بكثير، وعن القطارات التي تجتاز الحقول والصحارى بلا تعب والتي تحوي من الناس والبضائع ما تحويه مدن بكاملها، وأخبره عن باريس ولندن ونيويورك التي تتألّف مبانيها من طبقات عديدة، والتي يقيم في المبنى الواحد منها مقدارُ ما يقيم في عدّة بلدات من بلاد سورية.

أمّا التقدّم في ميدان الطبّ فقد خبره منصور بنفسه!

عاد اسكندر مرّة إلى براشا وكان منصور مصاباً بالتهاب اللوزتين، وكان هذا يحدث له دورياً وفي الربيع بخاصة. وكانت والدته تستعين بامرأة شافية، تعطيها بيضتين مقابل خدمتها. وكانت هذه المرأة الشافية تستعين بدورها بصبيّة شابّة أصغر من المريض، عذراء بالضرورة. وكان على منصور أن يتمدّد على ظهره على الأرض، وأن يُغمض عينيه وألّا يفتحهما إطلاقاً. وكان على الصبيّة أن تقف فوقه تماماً ليصير بين رجليها وليصير وجهُها مقابلاً لوجهه، وكان عليها أن تشهق بقوّة عندما تسحب الشافية من الجمر الملتهب قضيباً حامياً من حديد وتضعه فوراً في الماء البارد، فيُحدث تلك الضجّة، بينما المريض الممدّد ما زال مغمض العينين والصبيّة المفرشخة فوقه تنظر في عينيه المغمضتين وتتأكّد من أنّه لا يفتحهما لئلاّ يبطل مفعول العمليّة وتفشل. وكان من شروط نجاح العمليّة أيضاً ألّا يرى المريض الفتاة منذ دخولها وحتّى خروجها. وكانت الفتاة تُكافَأ بشيءٍ ما مقابل هذه الخدمة.

لكنّ العمليّة كانت تفشل بالتأكيد، ويبقى منصور كلّ مرّة يتألّم أيّاماً طويلةً ومديدة، فتُنذَر له النذور، لكن بلا جدوى.

وما إن علم اسكندر بمرض صديقه حتّى استأجر بغلاً وعاد فوراً إلى سوق الغرب حيث كان المبشّر البروتستانتي الدكتور «كورنيليوس فان دَيك» في زيارة للمدرسة، فطلب منه اسكندر المساعدة فلبّى الدكتور فان دَيك الطلب وذهب معه إلى براشا، حيث عاين منصور وأعدّ له دواء من مقادير دقيقة كانت له رائحة نفّاذة، فشرب منه منصور وشفي. بدأ يشعر بالتحسّن بعد ساعات قليلة فقط من الجرعة الأولى، ثم بدأ يتعافى في اليوم التالي!

ولمّا تعافى بالكامل وعادت إليه روحه اضطرب، لأنّه ظنّ أنّ الوفاء للدكتور فان دَيك على ما قام به يكون بالتحوّل إلى البروتستانتيّة، فباح لصديقه بظنونه، فطمأنه صديقه بأنّ التحوّل إلى البروتستانتيّة لا يكون مقابل خدمة مهما تبلغ أهميّتها، بل يكون بعد اقتناع عميق بأنّ المسيح فقط هو المخلّص وبأنّ الصور والتماثيل في الكنائس هي من الوثنيّة وأنّه لا شفاعة عند الله لقدّيس ولا حتّى لمريم العذراء، وأنّ زاد الإنسان في الآخرة هو أفعاله في الدنيا لا غير.

ـ أموت ولا أنكر شفاعة العذراء وقدسيّتها ـ قال صراحة لاسكندر.

ـ لستَ مؤهّلاً بعد للتحوّل إلى البروتستانتيّة، ولا أحد يجبرك على ذلك ـ أجابه اسكندر.

ـ وكيف أردّ الجميل للدكتور فان دَيك إذن؟

ـ الدكتور فان دَيك لا يريد ردّاً على جميله، وهو قام بذلك لوجه الله وإرضاءً لضميره واقتناعاً منه بأنّ الناس كلّهم أبناء الله وملزمون ببعضهم البعض.

كانت هذه الحادثة بالذات نقطة تحوّل حاسمة في حياة منصور، صارت حياته بعدها مختلفةً تماماً عمّا كانت عليه قبلها.

سَحَره الطبّ الحديث بعد هذا الشفاء من مرض كان يُلزمه الفراش أيّاماً كلما أصابه. ولم يعد يخاف منه لأنّ دواءه معروف

يعدّه الطبيب في دقائق. وتمنّى أن يدخل المدرسة ليصبح طبيباً، لكنّه كان كبيرَ العائلة ومُعيلَها بعد وفاة والده، وكان له ستّ شقيقات وشقيقان صغيران، لذلك كان يستحيل عليه أن يترك عمله كـ«معلّم» بنّاء. ثمّ إنّ قريته براشا كانت تخلو من مدرسة، وكان على من أراد أن يتعلّم الانتقالُ إلى سوق الغرب وهي أقرب قرية فيها مدرسة. وكانت هذه المدرسة مشهورة بمستواها العالي، لكنّها كانت تبشّر بالدين البروتستانتي!

ولمّا أدرك منصور أنّه يستحيل عليه أن يكون كصديقه اسكندر ـ سامحه الله! عزم على أن يحقّق حلمه في ابنه، بعد أن يتزوّج ويرزقه الله بصبيّ يخصّصه في الطبّ على الطريقة الحديثة، وقرّر أن يخطب لذلك فتاةً لكن ليس على الطريقة التقليديّة بل بنفسه، كما أقنعه اسكندر، ودون إيكال الترتيبات إلى أحد من أهله.

ذهب إذن منصور، بمفرده إلى «نسيم حَمَلْ» بتشجيع من اسكندر، وطلب منه يدَ ابنته الكبرى «زكيّة» ليخطبها، ففوجئ نسيم بطريقة هذا الرجل الغريبة عن عاداتنا، والتي لا يعتمدها ـ على ما سمع ـ إلاّ الخُطّاب في بلاد الأجانب. فكيف يأتي هذا الشاب وحده بدل أن يرسل أهله أوّلاً؟ ثم إنّ نسيم، الذي كان ميسوراً إلى حدّ ما، كان يحلم بأن يزوّج ابنتَه لرجل غنيّ يعرف القراءة والكتابة، لأنّ ابنته كانت جميلة و«فهيمة» و«ستّ بيت» وفيها الصفات التي يتمنّى كلُّ رجلٍ أن تكون في زوجته. فرفض طلبه دون تردّد ودون أن يبرّر رفضه كما جرت العادة بحجّة أو سبب. وقال له بشيء من التعالي: «ما عندك أهل؟».

وخرج منصور من عند نسيم مبلَّلاً بعرق الخيبة والخجل كما قال لصديقه اسكندر حين قصده صباحَ اليوم التالي إلى «سوق الغرب»

ـ ثماني ساعات على القدمين ـ وطلب لقاءه ليخبره بما جرى له وليطلب منه النصيحة، فاستمهله اسكندر بضعة أسابيع، حتّى حلول عطلة الميلاد حين يأتي إلى القرية، فأمهله منصور حتى الميلاد، ولم يكن في استطاعته غير ذلك.

وفي اليوم التالي على وصوله أوّلَ عطلة عيد الميلاد، قصد اسكندر بمفرده منزل «نسيم حمل» الذي كان معجباً بشخصيّته وبجدّه وثقافته وتهذيبه وتحضّره، رغم أنّه كان يراه شديد الاختلاف عن مجايليه في القرية، وكان لا يراه في الكنيسة إلّا في مناسبات الأفراح والأحزان. ولم يكن دارياً بأنّه ترك دينَه واعتنق البروتستانتيّة دين الأجانب الإنكليز.

استطاع اسكندر إقناع نسيم بأن يزوّج ابنتَه إلى منصور هاشم.

واللافت هو الطريقة التي أقنعه بها. قال له: إنْ زوّجتَ ابنتَك إلى منصور فستكون مثال الرجل المتحرّر والمتنوّر في كلّ لبنان وفلسطين والأردن والعراق، وفي الجزيرة العربيّة كلّها والمغرب العربي أيضاً، وحتّى في مصر، بل وفي كلّ السلطنة. ستكون الرجل الذي زوّج ابنته لشابّ طلب يدها بنفسه دون إيكال الأمر إلى أهله، وذلك على طريقة الأجانب الذين يأتون إلينا من الدول الأوروبيّة الراقية، وستُكمل بذلك المسيرة التي بدأها المتنوّر «أسعد خيّاط» المترجم الذي أثرى وأصبح قنصل بريطانيا في القدس، وقد قرّر عام ١٨٣٥ أي قبل ربع قرن، أن يتزوّج بطريقة تناسب العصر، لا بحسب ما تمليه عليه التقاليد البالية، فقام لذلك بزيارة صديقه السيّد «حبيب جمّال» الذي كان أكبر منه سنّاً والذي كان على قدر من التحرّر، وكان دمث الأخلاق، وقد سمح لابنته الكبرى، حين جاء وقت الضيافة، بأن تقدّم للزائر القهوة بنفسها،

فخفق قلب أسعد لمّا رآها سافرةَ الوجه حاجبةَ الشعر فقط، وكاد أن يُوقع الفنجان من يده.

لكنّ اسكندر قال نصف الحقيقة لنسيم، لأنّ أسعد خيّاط الذي اختار خطيبته بنفسه أرسل والده ليطلب يدها. ذهب بمفرده أوّلاً ليراها، بعدما سمع عنها أخباراً طيّبة ومؤاتية لهواه وأفكاره الجديدة المتحرّرة، ولم يرسل الوالدة أو القريبة أو الأخت حتّى تراها وتصفها له كما هي العادة، ولكنّه من جهة ثانية أرسل والده ليطلب يدها من والدها ولم يجرؤ هو بنفسه على المبادرة إلى ذلك.

كان أسعد خيّاط نهضويّاً يحلم بأن تتخلّص بلاده من تخلّفها وبأن تترقّى إلى مصاف الدول الأوروبيّة، وكان لذلك يحارب الجهل، ويدعو إلى تحرير المرأة، وينادي بالاختلاط بين الرجال والنساء في الأماكن العامّة، لذلك فاجأ الجميع في عرسه عندما أجبر زوجته على أن تقف إلى جانبه عند استقبال المهنّئين، رجالاً ونساء معاً، وكانت العادة جرت منذ أقدم ما يذكره الناس، على أن تستقبل العروسُ المهنّئات والعريسُ المهنّئين، في مكانين منفصلين. وكانت تلك أوّلَ حادثة من نوعها في كلّ سورية وربّما في بلدان السلطنة العثمانية كلها. ولا أحد يذكر أنّ اجتماعاً كهذا حصل من قبل في مثل هذه المناسبة. وكان أسعد فخوراً جدّاً بهذا السبق الذي تحدث عنه في مذكّراته.

كان اسكندر معجباً بأسعد خيّاط إلى حدّ بعيد، ويستقي أخباره التي شاعت كثيراً حيثما استطاع، وكان مثله نهضويّاً متحمّساً، يؤمن بضرورة تحرير المرأة وتعليمها لتصبح أُمّاً تنجب العظماء الذين يقودون الأمّة في دروب النضال ويزرعون راياتها فوق ذرى المجد.

«الأمُّ هي الأمّة!» هذا كان شعارَه وشعار أمثاله الذين بدؤوا يتكاثرون في ذلك الوقت.

وكان ما يقوله اسكندر هو الحقّ عند منصور، الذي عاد بنفسه وبمفرده، عملاً بتعليمات اسكندر، إلى نسيم حمل وطلب منه يد ابنته زكيّة، لكنّ الوالد لم يجبه عن سؤاله مباشرة بل نادى ابنته وطلب منها أن تقدّم له القهوة بنفسها، ثم طلب منها أن تجلس معهما، فجلست لكن على طرف الكرسيّ، وعلى خجل لا يُحتمل، ثم توجّه إليها والدها بالكلام قائلاً: يا ابنتي، هذا منصور معلّم البناء جاء يطلب يدَك بنفسه وبمفرده، على الطريقة الإفرنجيّة، دون إيكال الأمر إلى أحد من الأهل أو الأقرباء، متخطّياً بذلك التقاليد والأعراف التي يصفها بالبالية، فهل توافقين على الزواج منه، فأجابته زكيّة:

ـ أَعملُ بمشيئة الله وبنصيحتك يا والدي!

ـ مبروك إذن! قال نسيم للعروسين، واتفق مع العريس على أن يعقدا الخطبة في وقت قريب، وأن يتزوّجا في الخريف الذي يلي، بعد نحو سنة، أي بعد أن يكون منصور أتمّ استعداده لاستقبال زكيّة.

لكنّ تطوّر الأحداث في جبل لبنان والشام منع منصور وخطيبته من تنفيذ خطتهما كما رسماها، لأنّهما بعد احتفالهما بخطبتهما بعدّة أشهر اندلعت حربُ الجبل بين المسيحيين والدروز ثم امتدّتْ إلى دمشق.

لا يتكلّم اللبنانيّون والسوريّون، من جميع الطوائف، إلّا بخَفَر شديد على تلك المعارك والمجازر التي جرت في جبل لبنان وفي

مدينة دمشق، والتي ذهب ضحيّتَها الألوفُ من الناس وفي غالبيّتهم الساحقة من المسيحيّين، والتي خرّبت ضياعاً بكاملها وبلداتٍ وبساتين مثمرةً، وهجّرت عشرات الألوف، وحفرت في الأنفس عميقاً لعقود، وربّما ما زالت، وأدّت في ما أدّت إليه إلى إنشاء نظام المتصرّفية الذي أعطى جبل لبنان استقلاله الذاتي عن السلطنة العثمانيّة وكان مقدّمة لنشوء الدولة اللبنانيّة.

كانت تلك الأحداث شديدة الإيلام إلى حدٍّ لا يمكن تصوّره، ويكتفي الناس بردّها إلى أنّ العثمانيّين والإنكليز كانوا وراء غُلاة الدروز، والفرنسيين كانوا وراء غُلاة المسيحيين، وبأنّ الأحداث انجلتْ عن مجازر على بشاعة لا تطاق.

سبعة آلاف قتيل، في ليلة وما تلاها من نهار فقط، في مدينة دمشق! والألوف على امتداد أشهر قليلة في قرى وبلدات جبل لبنان الجميل. جبل لبنان الحالم، جبل لبنان الذي سحر الأنبياء والغزاة على السواء، والرعاة والنسّاك والعابرين على مدى الأزمنة.

لبنان القمم المكلّلة بالثلج والروابي الملتحفة بالربيع.

ـ يا للعار!

المهمّ في الموضوع أنّ حسابات منصور هاشم لم تصحّ، واندلعت أحداث الـ١٨٦٠ بكل وحشيّتها واضطر هو وجميع أهالي قريته إلى هجر بيوتهم، واللجوء إلى بيروت، حيث كان عدد من المؤسسات يؤمّن الحدّ الأدنى من الرعاية للهاربين الذين قدّر عددهم وقتذاك بأكثر من عشرين ألفاً، وحيث كانت لقناصل الدول الأوروبّية وللمبشّرين والتجّار الأجانب قدرة التأثير على السلطنة العثمانيّة لحمايتهم.

لكنّهم في الطريق، قبل بيروت بكيلومترات قليلة، فوجئوا بـ«قطّاع طرق» يهجمون عليهم ويقتلون عدداً منهم، وينهبونهم ما خفّ وزنُه وغلا ثمنُه، وكان بين القتلى نسيم حمل والد زكيّة.

وفي اليوم التالي على دفن القتلى على عَجَل في حقل قريب من مكان المجزرة، اقتربت والدة زكيّة من منصور وقالت له بلا مقدّمات: إن كنتَ تريد ابنتي فخُذْهَا الآن واعتنِ بها بنفسك فالدنيا كما ترى لا غد لها، وإلّا فاتركها لي فالله الذي يرعى هذا العالم يرعانا، فأجابها منصور على الفور: أتزوّجها الآن. وهكذا كان، فقد نودي على كاهن القرية الذي كان هارباً معهم وتزوّجا وهما في الطريق، غداة مقتل والدها تماماً. وهكذا صارت زكيّة حمل زوجة منصور هاشم، وقد انفرد بها رغماً عنها أوّلَ مرّة ليلة وصولهما إلى بيروت، في المكان الذي اقتيد إليه جميع أهل الضيعة، في مدرسة قريبة من الجامعة الأميركيّة في بيروت التي كانت تسمّى في ذلك الوقت الكليّة السوريّة الإنجيليّة، وكانت هذه المدرسة تابعةً لإحدى الإرساليات الأميركيّة البروتستانتيّة، تلك الإرساليات التي قدّمت مساعدات إلى ما لا يقلّ عن عشرين ألفاً من المهجّرين من الجبل ومن الشام.

ودخل منصور بعروسه زكيّة في الليل، في الغرفة التي أُقيما فيها، والتي كانت تضمّ عائلتيهما وبعض الأقارب. اختار زاوية مكاناً لنومهما، وجعل زكيّة بينه وبين الحائط بالحيلة وبالقوّة، ونامت والدتها خلفه، وغفت فوراً من شدّة الإعياء، ومن رغبتها في أن تغفو لتترك للعريس الجديد حريّة المبادرة، حتّى يتمّ الزواج بالفعل بعدما تمّ بالقانون الكنَسي.

وخبطت زكيّة بيديها ورجليها لحظة الولوج، وكادت أن تصرخ

لولا الفضيحة، وبكت. وقامت في الصباح وغسلت الدم عن ثيابها وهي تبكي، رغم أنّها لم تكن تقارن بين ما جرى لها وبين ما كانت تحلم به قبل الزواج. وبعد تسعة أشهر على ذلك اليوم ولدت ابنهما البكر فارس. واستقرّ منصور نهائيّاً مع زوجته في بيروت، ولم يعد إلى قريته كما فعل إخوته بعد هدوء الأحوال، وساعده في ذلك أنّه وجد عملاً بسرعة كبنّاء، مع الشركة الفرنسيّة التي كانت ملتزمةً بناء طريق بيروت دمشق لتصبح سالكة لعربات الخيل من كلّ الأحجام.

ولد فارس في بيت قريب من البيت الذي ولد فيه جرجي زيدان وفي النهار ذاته، أي في ١٤ كانون الأوّل عام ١٨٦١، ونشأ الاثنان صديقين رفيقين.

وكان بين طريقة زواج منصور هاشم وطريقة زواج «حبيب زيدان» والد جرجي زيدان شبَه كبير.

وجرجي زيدان المقصود بالكلام هنا، هو ذاته جرجي زيدان الذي لا يجهل عربيّ من هو، أحد كبار النهضة العربية، وقد تحدّث في مذكّراته عن يوم ولادته الذي كان عام ١٨٦١، وعن طريقة زواج والده عام ١٨٦٠، وروى أنّ هذا الزواج تمّ في تلك السنة التي حدثت فيها «الاضطرابات المشهورة» ـ كما يسمّيها ـ وقد خاف أهل بيروت من أن تبلغها المجازر وأن يحصل فيها ما حصل في جبل لبنان والشام، وأخذوا يتأهّبون للفرار، فقالت جدّته عندئذ لوالده: إنّ المدينة في خطر ونحن كما ترى على قلق شديد، فإمّا تتزوّج ابنتَنا فوراً وتهتمّ بها، وإمّا نحلّ الخطبة ونأخذها

معنا، ففضّل الزواج. وانقضت تلك الحوادث ولم تصب بيروت بضرر يذكر وعاد الناس إلى أعمالهم وعاد والد جرجي زيدان إلى عمله في مطعمه، وأنجب الأولاد وكان أوّلهم جرجي الذي لم يكن يعرف يوم ولادته حتى عاد إلى بيروت من القاهرة حيث كان يقيم، في السنة التي تزوّج فيها، وسأل الكاهن الذي جاء يهنّئه بوصوله عن يوم مولده، فأجابه الكاهن بأنّه ليس في الكنيسة قيد ولا سجلّات، فحزن جرجي لذلك، وكان والده حاضراً فسأله عن سبب حزنه، فأخبره، فأجابه والده: إنّ يوم ولادتك لا يضيّع أحداً، لأنّه كان بالضبط يوم مات زوج ملكة إنكلترا «البرنس ألبرت». وكان هذا اليوم عند والده لا يُنسى لأنّه في تلك الليلة بالذات، كان ساهراً مع أصحابه، فسمعوا فجأةً أصوات مدافع من جهة البحر من دوارع إنكليزيّة كانت راسية كعادتها هناك، فخافوا وهمّوا بالهروب من المدينة إلى الجبال المحيطة بها ظنّاً منهم أنّ هذه الدوارع تقصف المدينة، ثمّ علموا بأنّ السبب هو وفاة زوج ملكة الإنكليز.

- ولدتَ يومَ توفّي زوج ملكة الإنكليز البرنس ألبرت، في ١٤ كانون الأوّل عام ١٨٦١.

كان اليوم الذي ولد فيه فارس وجرجي ماطراً، وكان الطقس ماطراً باستمرار منذ حوالي عشرة أيّام، بعد أشهر من الجفاف انتشر أثناءها المرض المعدي الذي كان الأهالي يسمّونه «أبو الركب» لأنّه كان يؤلم الرُّكب كثيراً. وكان سبب انتشار هذا المرض على ما يبدو الأوساخ التي خلّفها عشرون ألفاً من المهجّرين من قراهم في جبل لبنان ومن دمشق ومحيطها بسبب

المجازر الطائفيّة. عشرون ألف مهجّر يسكنون كيفما كان، طوال أحد عشر شهراً، في مدينة من أربعين أو خمسين ألف نسمة، بدون بنى تحتيّة عصريّة! ولم تكن وقتها مياه الشفة قد جرّت من «الضبيّه» إلى بيروت، فتكاثرت الميكروبات وساهم الجفاف في انتشارها وفي انتشار الأمراض.

وخاف يومها منصور وحبيب على زوجتيهما من أن تصابا بهذا المرض، فخطّطا لإرسالهما عند أقرباء لهما في إحدى قرى جبل لبنان المحيطة ببيروت، لكنّ السماء أمطرت أخيراً قبل أن يُنفِّذا قرارهما. وأمطرت هذه السماء بعد أن ضجّ الناس من الخوف والضيق، وبعد أن صلّوا كثيراً وتكراراً، وقد دعا حاكم بيروت العثماني وقتَها فؤاد باشا الأهالي جميعاً، وعلى رأسهم رجال الدين المسلمون والمسيحيّون، أن يقيموا صلاة للاستسقاء مجتمعين، وكان عدد من رجال الدين الذين حضروا الجمع وترأّسوه يحملون المظلّات لشدّة ما كانوا مؤمنين بصدق صلاتهم. وخطب أحد رجال الدين المسيحيين وهو يحمل مظلّةً وقال: من له ذرّة إيمان واحدة وأمر الجبال بأن تنتقل فإنّها ستنتقل! وخطب رجل دين مسلم سنّي بالمعنى ذاته، وكان ما يزال التجمّع مستمرّاً حين هبّت الرياح وانفجرت الرعود وهطلت الأمطار!

المعجزة!

كان ذلك اليوم رهيباً بالنسبة إلى منصور هاشم الذي حضر الصلاة مع صديقه حبيب.

منصور حضَر الصلاة بدافع الحشريّة ليس إلّا، ولم يكن مقتنعاً بأنّ

الله سيستجيب لنداء رجال الدين هؤلاء الذين ينصحه اسكندر بألاّ يثق بإيمانهم. وحاول أن يجد تفسيراً طبيعيّاً لما جرى، فافترض أنّ فؤاد باشا رأى الغيم الأسود يتكاثر وأحسّ بالمطر قادماً فدعا إلى هذا الحفل. لكنّه، أي منصور هاشم، لم يقتنع هو نفسه بهذا التفسير الذي كان بتأثير من نظريّة صديقه اسكندر والتي كان مفادها أنّ الله الذي خلق الكون وأرسله في اتجاه محدّد لا يتدخّل في كلّ شاردة وواردة، وهو على العموم يترك الناس تتدبّر أمورها.

أمّا حبيب والد جرجي زيدان فكان مستعجلاً الوصول إلى مطعمه الذي تركه في عناية الصبي الذي يعمل عنده.

وفي اليوم التالي على ولادة فارس وجرجي، وكان الطقس ما زال ممطراً، والبنّاؤون لا يعملون في الأيّام الممطرة، ذهب منصور إلى والد جرجي في مطعمه ليساعده كعادته في أيّام بطالته. فوصل مبتلاً، ووجد فيه رجلين أشقرين أجنبيين، عرف منهما فوراً الدكتور «كورنيليوس فان دَيك» الذي شفاه من مرضه، ثم عرف في ما بعد أنّ الثاني هو المبشّر البروتستانتي «هنري دْجَسَبْ»، وكان برفقتهما المعلّم «بطرس البستاني» الذي كان يتحدّث مع كورنيليوس فان دَيك في موضوع ترجمة التوراة إلى اللغة العربية. وكان هنري دجسب مستمعاً في أكثر الأوقات. وكان الثلاثة يتكلّمون بالعربية أحياناً، وأحياناً أخرى بالإنكليزيّة. وبعدما تحدّثوا طويلاً في موضوع ترجمة التوراة إلى العربيّة، انتقلوا إلى الحديث عن المدرسة التي قرّر المعلّم بطرس البستاني إنشاءها بعد مجازر العام السابق. أراد أن يُنشئ مدرسة «وطنيّة» أي مدرسة لا طائفيّة، وذلك لأوّل مرّة في تاريخ البلاد بكاملها، وكان هدفه من ذلك

محاربة الجهل ببثّ المعرفة، ومحاربة التعصّب الطائفي بنشر الروح الوطنيّة الجامعة، ومحاربة الخوف من الآخر بتعويد الناس من مختلف الطوائف على الاختلاط في ما بينهم، لأنّ الجهل بالآخَر دافع إلى معاداته. وتناقشوا طويلاً في أمر تقبّل الناس لهذه الفكرة، وفي ما إذا كانوا سيرسلون أولادهم إلى مكان لا يتعلّمون فيه تعاليم دينهم، وكان رأي المعلّم بطرس ألّا تعلّم المدرسة الدين بل أن تسمح للأهل بتعيين رجل دين من خارجها وأن تتكفّل المدرسة بأخذ التلاميذ إليه ليعلّمهم دينهم، ثم تعيدهم إليها.

اضطرب منصور لسماعه ما سمع، وأسرّ بذلك لصديقه أبو جرجي، الذي قال له إنّه في حال استطاع دفع مصاريف هذه المدرسة فسيضع ابنه جرجي فيها عندما يصبح في السنّ المناسبة، فردّ منصور بحماسة على الفور وقال إنّه هو أيضاً سيضع ابنه في هذه المدرسة إذا سنحت له الفرصة، وقرّر بأنّه سيُخبر اسكندر بذلك في أوّل مناسبة. وكان اسكندر كتب له أنّه سيزوره في عطلة الميلاد ليهنّئه بابنه فارس «كتب الله له الحياة المديدة في خدمة الحقّ والوطن!»؟

لم تفهم أمّ فارس هذا الكلام لأنّ تمنّي الحياة المديدة يكون لخدمة العائلة والدين، لا لخدمة ما يُسمّى الوطن ـ هذه الكلمة التي بدأت تسمعها في أحاديث الرجال المتعلّمين. والعمر الطويل يكون في خدمة الدين خاصة، إذ لم يكن تصوّر العالم ممكناً في ذلك الوقت خارج مفردات الدين. فكلمة وطن بالمعنى الأوروبي الحديث، لم تكن مستعملة إلّا عند النخبة القليلة من الذين بدؤوا يتأثّرون بالحداثة الأوروبيّة آنذاك.

حبيب زيدان، أبو جرجي، أخبر منصور هاشم بعد انصراف المعلّم بطرس البستاني والمرسلَين، أنّه خجل من أن يُظهر فرحه الكبير بولادة ابنه في حضرة هذين الأجنبيّين، خوفاً من أن يظنّوا أن سبب هذا الفرح الكبير هو أنّ المولود صبيّ وليس بنتاً، فيهزؤون منه كما يهزأ الأجانب عادةً من أهل بلدنا الذين يكرهون أن تلد لهم نساؤهم بناتاً... هؤلاء الأجانب الذين يجلسون على كراس عالية، وإلى طاولات عالية ويأكلون بالملعقة والشوكة والسكّين، ويلبسون البناطلين، ويضعون على رؤوسهم البرانيط لا الطرابيش، والذين يسخرون من تفضيلنا الصبيان على البنات!

والأنكى من كلّ ذلك أنّهم يحلقون شواربهم ليبدوا كالنساء.

(جاء فارس إلى والده يوماً راكضاً لاهثاً مضطرباً وقال له:

ـ بابا! بابا! رأيت رجلاً بلا شاربَين!

فقال له والده:

ـ أين؟

وركض وراءه ليراه بعينيه.)

وبمناسبة ولادة فارس وجرجي، أهدى المبشّر دجسب نسخةً من الإنجيل بترجمته الجديدة إلى والد جرجي وأخرى إلى والد فارس، فشكره أبو جرجي ودعاه إلى الغداء في مطعمه مقابل هذه الهديّة مجّاناً، فقبل دجسب الدعوة قائلاً:

ـ أقبل أن تغدّيني مقابل هذه الهديّة. فكأنّك هكذا دفعتَ ثمنها.

وأنا أرحّب بالذين يدفعون ثمن الإنجيل، لأنّ اقتناءه يستحقّ بعض العناء.

فَهِمَ أبو جرجي بالتأكيد ما قصدَه دجسب. وفهم منصور ما قصده المبشّر «الإنكليزيّ» أكثر بكثير ممّا فهمه أبو جرجي، لأنّ صديقه اسكندر كان يحدّثه طويلاً وبالتفصيل عن العقائد البروتستانتيّة. لذلك كان يعرف رمزيّة الكتاب المقدّس عند دجسب: إنّ الأنفس النقيّة تجد الحقّ فيه جليّاً!

وكان منصور يلتقي بدجسب دائماً هناك، ويتحدث معه دون خوف من أن يقتنع بما يقوله، لأنّه كان يشعر بأنّه مطعّم ضدّ هذه التعاليم التي صار يعرفها جيّداً. وكان دجسب يحبّه ويحبّ فيه انصرافه للعمل وتكريسه نفسه لإعالة زوجته وابنه ومساعدة أمّه وإخوته وأخواته بلا منّة أو تأفّف. ومرّة وعده دجسب بأن يتكفّل له بتعليم ابنه فارس حينما يصبح في السادسة من عمره، في إحدى مدارس المرسلين، فتبسّم منصور دون أن يعلّق بشيء على هذا الوعد، لكنّ فان دَيك الذي كان حاضراً والذي فهم معنى هذه الابتسامة طمأنه قائلاً له بلغة وسطى ما بين الفصحى والعاميّة:

ـ لا تخف، لن نحوّله عن دينه بالقوّة!

لكنّ منصور لم يطمئنّ لأنّ ما لا يمكن أخذه بالقوّة يمكن أخذه بالحسنى.

لم يكن منصور متعلّماً، لكنّه كان يحبّ العلم ويحبّ معاشرة المتعلّمين، وكان يُسحَر بحديث المعلّم بطرس البستاني والمرسَل

الدكتور كورنيليوس فان دَيك عندما كان يصادفهما في مطعم أبو جرجي ويسمعهما يتناولان في أحاديثهما مواضيع شديدة الأهميّة، وأحياناً مواضيع خطيرة جدّاً، من نوع تأليف جمعيّة سرّية تسعى في الداخل والخارج إلى فصل سورية، أي لبنان اليوم وسورية اليوم وفلسطين، عن السلطنة العثمانيّة، وإنشاء دولة وطنيّة يتساوى فيها الناس جميعاً أمام القانون، ولا يكون لها دين معيّن، بل يكون دستورها مستوحى من المبادئ الأساسيّة التي تشترك فيها جميع الأديان السماوية، وتترك حريّة الإيمان والعبادة للناس، كلّ على دينه وعلى ما يراه.

وكان المعلّم بطرس البستاني والدكتور كورنيليوس يتكلّمان أيضاً في موضوع إنشاء مدرسة عالية يتعلّم فيها الطلّاب المحلّيون الطبّ بالمعنى الإفرنجي للكلمة، وكانا يتكلّمان طويلاً على الأهميّة القصوى لهذه المدرسة في نهضة البلاد ورقيّها.

لم يكن المعلّم بطرس البستاني والدكتور فان دَيك منتبهَين إلى أنّ منصور يسمع حديثهما ويفهم ما يقولان، بل كانا يظنّانه جبليّاً جاهلاً وفجّاً وذا عقل متصخّر لا يلين ولا يستطيع فهم مواضيع كهذه. لكنّه كان يفهم. وكان ما يفهمه يثير فيه مشاعر قويّة وغامضة، ويشجّعه أكثر على إرسال ابنه فارس إلى المدرسة حينما يصير في السنّ المناسبة. وكانت هذه الأحاديث تجعله يتمسّك بحلمه، بأن يصير ابنه طبيباً.

كان منصور يشعر بالفخر حين يتصوّر أن ابنه فارس سيتحدّث مثلما يتحدّث هذان الرجلان، وبالمستوى نفسه.

وأرسل منصور ابنَه فارس إلى المدرسة في السنّ الخامسة، وهي

سنّ مبكرة في تلك الأيّام، لكنّه تمثّل بحبيب والد جرجي زيدان الذي أراد أن يبدأ بتعليم ابنه باكراً. وأرسل منصور ابنه عند المعلّم ذاته الذي ذهب عنده جرجي وهو المعلّم «الياس» شقيق الخوري الأرثوذكسي «موسى» كاهن الرعيّة التي منها آل زيدان. ولم يرسله إلى المدرسة الوطنيّة التي أنشأها المعلّم بطرس البستاني لأنّها كانت بعيدة على صبيّ في الخامسة من عمره.

وكان منصور رغم إيمانه المسيحي العميق، يتمنّى لو يستطيع تعليم ابنه في مدرسة المعلّم بطرس البستاني، «المدرسة الوطنيّة»، التي كانت علمانيّة ـ كما نقول اليوم. لكنّ العلم في ذلك الحين كان لا يزال محصوراً في رجال الدين أو من ينتمي إليهم، وكان إرسال ولد إلى مدرسة علمانيّة لا تعلّمه مبادئ دينه يثير فضيحةً في الحيّ، ولم يكن في استطاعة منصور تحدّي هذا الواقع، ولم يشأْ أن يمنعه هذا الواقع من إرسال ابنه إلى المدرسة، فهو يعلّق آمالاً كبيرةً عليه لأنّه سيحقّق له حلمه.

لكنّ المدرسة التي أُرسل إليها جرجي وفارس لم تكن مدرسة بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل كان فيها معلّم واحد هو صاحبها، يعلّم القراءة فقط وهو لا يكاد يُحسنها، وأحياناً يعلّم بعض مبادئ الحساب.

وكانت هذه المدرسة مؤلّفة من قبو واسع، فيه بُسُط مفروشة على الأرض، يجلس عليها التلاميذ مقابلَ المعلّم الذي يجلس على طرّاحة، وأمامه «بشتختة»، أي صندوق صغير يضع عليه كتابه وأدواته وأقلامه، وإلى جانبه قضبان أغلبها من قصب، تختلف طولاً ورفعاً، يَستخدم كلّاً منها حسب بُعد التلميذ أو قربه منه، وحسب درجة الذنب.

جرجي زيدان لم «يأكل فلق» إطلاقاً، بينما عانى منه فارس عدّة مرّات. وربّما كانت رؤية فارس مرفوع الرجلين المربوطتين بحبل وعصا، والمعلّم الياس يضربهما بقضيب من رمّان، هو ما جعله عاقلاً على الدوام، تحاشي أن يصيبه الشيء ذاته. ربّما. من يدري؟ لكنّه كان ينتفخ بالغضب وهو يرى المعلّم يضرب صديقه بغلَظ وبما يملك من عزم.

وكان فارس يمنع نفسه من الصراخ من الألم حتّى يغيظ المعلّم وينتقم منه بصبره وصمته.

وكان المعلّم الياس يمنع التلاميذ من أن يحكّوا رؤوسهم إذا ضربهم بالقصبة عليها، ومن يخالف أمره ويحكّ رأسه يعود إلى ضربه ضرباً أشدّ قائلاً له:

ـ لا تحكّ! بيصحّ!

لأنّه كان يعتقد بأنّ الرأس إذا آلمتَه بالقصبة ولم تحكّه يصحّ ويقسو ويقوى.

وكان فارس حين يضربه المعلّم بالقصبة على رأسه، يحكّه في أغلب الأوقات قصداً ونكايةً. ومرّةً فقد المعلّم أعصابه وكذلك فارس، وظلّ المعلّم يضربه ويقول له «ما تحكّ! بيصحّ!» وفارس يحكّ نكايةً وتحدّياً، حتّى تكسّرت القصبة على رأس فارس ولم تعد صالحة للضرب، وهمّ المعلّم بالقصبة الثانية لكنه عدل فجأةً، وتنفّس مالئاً رئتيه، وصمت قليلاً، ثمّ تابع شرحه. وانتفخ صدر جرجي فخراً بصديقه، وأحسّ التلاميذ جميعاً بالنصر والتشفّي. وفي اليوم التالي دخل التلاميذ إلى القبو ليجدوا الأستاذ ماسكاً قصبة قبل بدء الدرس على غير عادة، لكنّه لم يضرب بها أحداً طوال ذلك النهار.

وبعد سنتين قضياهما عند المعلّم الياس «ختما العلم»، وصارا «يفكّان الحرف»، كما أكّد المعلّم الياس لوالديهما، وصارا بالفعل يقرآن المزامير لكن دون أن يفهما منها شيئاً. ثمّ افترقا قسراً لأنّ والد جرجي أرسل ابنه إلى مدرسة كانت فتحت حديثاً وعُرفت بمدرسة الشوام، نسبةً إلى جماعة من أدباء دمشق الأرثوذكس الذين أنشؤوها بعدما نزحوا منها إلى بيروت إثر مذابح الستّين. وكانت تلك مدرسة مشهورة، تعتمد أساليب حديثة في التعليم مستوحاة من أساليب المدارس التي أنشأها المرسلون الكاثوليك والبروتستانت.

ولكنّ هذه المدرسة أقفلت في العام ١٨٧٠، أي بعد عامين من دخول جرجي إليها.

وأشار أساتذة تلك المدرسة يومئذ على الأهل بأن يرسلوا أولادهم إلى مدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس، وكان عدد من المعلّمين الذائعي الصيت قد تعيّنوا فيها، فتبعهم إليها أكثر تلاميذ مدرسة الشوام. وكانت هذه المدرسة تعلّم اللغة والحساب والفرنسيّة.

وأمضى جرجي زيدان في هذه المدرسة سنتين أيضاً اضطُرّ بعدهما إلى تركها، وكان قد بدأ يتمتّع فيها بالتعلم ويُسحَر بالمعرفة، ولم يعد له همّ سوى ذلك، ولم يَعد ميّالاً إلى اللهو إطلاقاً مخالفاً بذلك جميع التلاميذ الذين في عمره. ولم يعد يُطيّر طيّارة، وكانت هذه لعبة منتشرة جدّاً، ولم يعد يلعب بالطابة ولا بالكلّة، إلّا نادراً. كان يخرج أحياناً ليتفرّج على تطيير طيّارة ضخمة كان يجتمع لمشاهدتها أولاد الحيّ جميعاً، لكنّه لم يكن يشارك فيها.

لكنّ فارس لم يذهب إلى مدرسة الشوام ولا إلى مدرسة الثلاثة أقمار الأرثوذكسيّة، بل إلى مدرسة للرهبان الكاثوليك، وكان والده يريد إرساله إلى المدرسة الوطنيّة، لكنّه خضع لتأثير بعض الرهبان، وقد أضعف موقفه كثيراً أنّ مدرسة الكاثوليك كانت قريبة جدّاً من البيت.

وكانت هذه المدرسة تتّبع الطرق والمناهج الحديثة، لكنّ الرهبان الذين كانوا يعلّمون فيها كانوا صارمين بعامة، وكان هذا ما يعجب الأهل كثيراً.

قال أبو فارس للرهبان الذين تسلّموا ولده منه:

ـ أسلّمكم ابني لحماً وعظماً، فخذوا اللحم واتركوا لي العظم!

وهو يقصد بذلك أن يكونوا قساةً معه ما أمكن، وأن يضربوه بلا شفقة إذا خالف لكن دون أن يكسروا عظمه، لأنّ العظم في مفهومهم في ذلك الوقت كان هو الأساس في الإنسان، وكان اللحم ثانويّاً ومتحوّلاً.

كان الأهل في ذلك الزمان يحبّون أن يضرب المعلّمون أولادهم بقساوة حتّى يتهذّبوا ويتعلّموا، وكانت متعة المعلّمين ضرب التلاميذ.

وكان فارس يحبّ اللهو أكثر ممّا كان يحبّ المدرسة، لكنّه كان يقرأ كثيراً، وكان ذكيّاً جدّاً، وكان ذكاؤه يسمح له بأن يدرس باعتدال وأن ينجح بدون صعوبة، وأحياناً بتفوّق. ورغم ذلك كان كثيراً ما يتعرّض للضرب بالقضبان الغليظة، وبخاصّة قضبان الرمّان

المؤلمة. ولولا إصراره على تحقيق حلم والده الذي صار حلمه الشخصي، ولولا ذكاؤه وحبّه للعلم وتقديره لدور العلم في تقدّم الوطن، ولولا تمثّله بالنخبة الطليعيّة من الناس لكان ترك المدرسة أو طُرد منها.

لم يسمح حبيب زيدان لولده جرجي بإبدال السروال بالبنطلون الإفرنجي لئلاّ يسخر منه الأولاد في الحي الذي كان يقع فيه المطعم. أمّا منصور فقد شجّع فارس، أوّل يوم ذهب فيه إلى المدرسة الجديدة، على أن يخلع السروال وأن يلبس البنطلون الإفرنجي. لكنّ فارس أبقى الطربوش الأحمر على رأسه والجاكيت العثمانيّة.

ولمّا رأى جرجي صديقه فارس بالبنطلون، مساء ذلك اليوم، انفجر بالضحك ولم يعد يتمالك نفسه.

قال فارس لجرجي يومها إنّه يشعر وهو في هذا البنطلون بأنّ رجليه ضعيفتان وعاجزتان عن حمل جسمه. وكان ينحني وينظر إليهما ويضحك حتّى يكاد أن يُغشى عليه.

ثمّ شاءت الأيّام إذن أن يُضطرّ جرجي إلى ترك المدرسة آخر السنة الثانية، وكان عمره آنذاك أحد عشر عاماً، لأنّ النادل، أو «السفرجي» بلغة تلك الأيّام، ترك العمل ولم يعد. وكان يستحيل على الوالد تشغيل المطعم بمفرده، فطلب من ولده أن يساعده مؤقّتاً، ريثما يجد سفرجيّاً آخر، أو ريثما يغيّر السفرجي رأيَه ويعود.

وهذا ما كان يتمنّاه الوالد لأنّ هذا السفرجي قد ربي في بيتهم.

«سبعة أو ثمانية أيّام»، قال الوالد لابنه جرجي، ريثما أجد أحداً يحلّ مكانك. فأطاعه الابن مكرهاً لأنّه كان متمتّعاً بالتعلّم بشكل لا يُتصوّر، وقد وعد نفسه بالعودة إلى المدرسة بعد سبعة أو ثمانية أيّام، لكنّ هذه «الأيّام» طالت كثيراً حتّى صارت سبعة أو ثمانية أعوام!

سبعة أو ثمانية أعوام قضاها جرجي زيدان في أسواق بيروت وبين عامّتها، وقد اضطر أثناءها لمعاشرة كلّ أنواع الناس، لأنّ مطعمهم كان في وسط المدينة وقد تغيّر مكانه عدّة مرّات لكنه لم يبعد عن ساحة البرج التي كانت يومها ملتقى الزعران والرعاع والعاطلين عن العمل، وكان بين هؤلاء السكّير والمقامر وأهل الدعارة والخصام، وهؤلاء كان جرجي مضطرّاً لمعاشرتهم. وكانوا أكثر ما ينشطون في الليل. وكانت دعارة المراهقين منتشرة في ما بينهم.

كان جرجي متذمّراً من الحالة التي وجد نفسه فيها، بينما كان فارس يحسده عليها، لأنّه كان يكره المدرسة، وكان كثيراً ما يحتجّ بالمرض ويتغيّب عنها ويقصد جرجي في المطعم. وكان كثيراً ما يزوره في المساء، وقد تعرّف هناك إلى الكثير من هؤلاء الشبان ــ أهل الدعارة والخصام، كما كان يسمّيهم جرجي ــ وخالطهم وصادق بعضهم. وكان جرجي يحذّره دائماً منهم كي لا يورطوه في ما لا يريده، وكان في الوقت نفسه معجباً بجرأته وإقدامه.

وعلّم فارس جرجي في تلك المرحلة كيف يستحلب الرجل نفسه. وقال له أوّلَ مرّة استمنى برفقته:

ـ إفعل مثلي!

وأخبره ما يفعله هؤلاء الشباب في ما بينهم. وهذا ما كان يثير اشمئزاز جرجي وحشريته في الوقت نفسه.

لم يستطع جرجي أوّلَ مرّة أن يبلغ ويسيل. وندم على ما قام به وأحسّ بالذنب إحساساً آلمه. وصلّى لمريم العذراء وأقسم ألّا يعود إلى ذلك.

وذهب فارس مرّة بمفرده إلى «زقاق المومسات» حيث كانت بيوت المومسات ومراكز عملهن، وكان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، وتجرّأ على قرع أحد الأبواب، وفتحت له سيّدة سمينة ضخمة يكاد صدرها أن يندلق من قميصها، وقالت له ساخرةً:

ـ جعت يا ماما؟ بدّك ترضع؟

وأغلقت الباب في وجهه.

حين أخبر جرجي بذلك تضاحكا كثيراً.

وفي ذلك الوقت من العام ١٨٧٣، جاء من براشا إلى بيروت بعض أقارب منصور ومعهم عدد من أبناء القرية قاصدين أميركا. جاؤوا ليستقلّوا باخرةً من المرفأ. وكان يلزمهم وقتٌ ليُنهوا معاملاتهم، وكان عليهم أن ينتظروا قدوم الباخرة التي ستقلّهم، لذلك نزلوا عند قريبهم وابن قريتهم منصور هاشم، ودامت إقامتُهم عنده حوالي أسبوعين أقنعوه خلالها بالسفر معهم، وكانت حجّتهم

لا تردّ، وهي أنّ منصور لا يستطيع أن ينتظر شيئاً من هذه البلاد الفقيرة وغير المستقرّة، إذا كان يريد أن يعلّم ابنه فارس حتّى يصبح طبيباً ويحقّق حلمه فيه، وإذا كان يريد أن يشتري بيتاً و«يفتح مصلحةً». فإذا كان فعلاً يريد ذلك، فما عليه سوى أن يذهب معهم وأن يبقى هناك عدّة سنوات يعمل أثناءها ويدّخر، ثم يعود بعدها ليحقّق حلمه.

الدنيا هناك «كلّها خير»!

الأرض هناك ذهب!

ولم تكن الهجرة إلى أميركا انتشرت كثيراً بعد، ولم تكن تحوّلت إلى ظاهرة مرعبة أفرغت قرى جبل لبنان. بدأت تلك الظاهرة بالانتشار الهستيري بعد عدة سنوات من ذلك التاريخ. لكنّ منصور كان سمع بأميركا كثيراً من صديقه اسكندر ومن المرسلين الذين كان يلتقي بهم في مطعم حبيب زيدان، فأسرع إلى إنجاز المعاملات الرسميّة، وبخاصّة التذكرة التي كانت وقتَذاك جواز السفر، والتي كانت تصدرها السلطات العثمانيّة. ثمّ جمع أغراضه التي كانت فراشاً ولحافاً رقيقين، ومخدّة وبعض اللوازم وبعض الحبوب والخضارة المجفّفة وقنينة عرق («مقشّة» بلغة تلك الأيّام)، جمعها كلّها في صندوق خشبيّ حمله على ظهره، ومضى به إلى المرفأ مع أقربائه وأبناء قريته ترافقه كلّ العائلة لوداعه.

كان فارس في وداع والده على رصيف المرفأ سعيداً ومضطرباً في الوقت نفسه.

كان سعيداً لأنّه يحبّ أن يتصرّف بوقته على هواه، وكان والده

قاسياً عليه، يريده أن يكون دائماً كجرجي ابن صديقه حبيب، جادّاً منصرفاً عن اللهو إلى الدرس المستمرّ. لكنّ جرجي توقّف عن الذهاب إلى المدرسة منذ سنتين تقريباً، وفارس يحسده في سرّه دون أن يجرؤ على البوح بذلك لوالده ولا حتّى لنفسه.

وكان سعيداً لأنّ سفر والده سيخفّف الرقابة عليه، ولأنّ والدته في منتهى اللين، والأمّ بطبعها حنون.

وكان مضطرباً لأنّ الهجرة نوع من الموت، وما أبوه مهما يكن قاسياً عليه إلاّ أبوه، وهو لا يحبّ له ذلك، ولا يريده أن يبتعدَ عنه إلى هذا الحدّ.

في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من سفر منصور انقطعت أخباره عن عائلته، لأنّه تعثّر كثيراً قبل أن يبلغ نيويورك ويستقرّ فيها، وبدأت المصاعب تعترضه منذ وطئت قدمه مرفأ نيويورك، عندما فحصه الطبيب وقرّر أنّه لا يستطيع الدخول إلى المدينة بسبب إصابته بمرض مُعْدٍ، ولم يكن به في الحقيقة إلّا اصفرار في لون وجهه من تعب السفر، واحمرار في عينيه من شمس المحيط، فاستجمع قواه وحسَب ما معه من مال واستدان من أقربائه الذين كانوا يرافقونه، وحفظ عناوينهم في قلبه، ودوّنها على ورقة خبّأها في صرّة علّقها على رقبته وتدلّت على صدره تحت ثيابه، وذهب إلى المكسيك، وقد ساعده المترجم الرسمي، الذي كان من جبل لبنان والذي كانت تستخدمه إدارة المرفأ النيويوركي، في شراء التذكرة، حتى لا يعود كسيراً إلى بيروت.

لم يستطع هذا المترجم أن يتوسّط لمواطنه منصور، لأنّ الإدارة هدّدته عدّة مرات بالطرد لكثرة ما توسّط لمهاجرين من جنسه، ولكثرة ما دلّهم على طرق غير شرعيّة للخروج من المرفأ إلى مدينة نيويورك. لم تكن بعد جزيرة «إيليس» قد خصّصت لهذا الغرض.

عندما وصل منصور إلى الكرنتينا في المكسيك دلّه المترجم هناك على مهاجرين من منطقته، فاستقبلوه واستضافوه عدّة أيّام حتّى يرتاح، ثمّ جهّزوه بصندوق عبّؤوه بكميّة من الأدوات التي تحتاج إليها ربّات البيوت، وأخذوه معهم للبيع «بالكشّة» خارج المدن أو عند أطرافها الخالية من المحلّات. وبعد أن عمل «بالكشّة» حوالي السنة والنصف، جمع خلالها بعض المال، قرّر الدخول برّاً إلى الولايات المتّحدة، وبلوغ نيويورك، مقصده الأوّل، مهما كلّف الأمر.

وهكذا ظلّ يتنقل من مدينة إلى أخرى، ومن ولاية إلى أخرى، حتّى بلغ نيويورك أخيراً بعد سنوات من التيه، وانقطعت أخباره عن عائلته طوال تلك المدّة، وانقطعت أخبار عائلته عنه، ولم يشأ أن يكتب لهم إلّا وفي الرسالة ما يحتاجون إليه من مال وعليها عنوانه الثابت.

ولمّا انقطعت أخبار الوالد عن عائلته، وانقطعت بالتالي مداخيل العائلة، لم يعد في إمكان فارس الاستمرار في الدراسة، فاضطرّ إلى تركها بعد حين، بعد أقلّ من سنتين، وكان آسفاً لذلك، لكنّه لم يكن شديد الحزن، فقد أحبَّ المعرفة والعلم، وعرف أثرهما على مستقبله، وعرف قدرهما في ترقّي البلاد، لكنّه لم يستطع التآلف بالكامل مع المدرسة، وكان يحلم دائماً بطريقة أخرى للتعلّم، أو

بمدرسة أخرى مختلفة، يكون فيها الانضباط أقلّ صرامةً.

وهكذا راح فارس يُمضي أكثر وقته في ساحة البرج، ينزل إليها من بيته أوّل تلال الأشرفيّة التي كانت خارج بيروت الحاليّة، وكان لا يبتعد كثيراً عن مطعم والد جرجي زيدان، فلا تمضي ساعة دون أن يمرّ به ويتحادث مع جرجي ويخبره بما جرى له وبما رآه، وكان جرجي مسحوراً بحرّية صديقه فارس وبجرأته، وكان لذلك يرافقه من وقت لآخر في التجوال، لكن دون أن يسمح لهذه الحالة بأن تستغرقه.

وفي تلك المرحلة مارسا العادة السرّيّة كثيراً حتّى أضعفت جسميهما.

كانا يجلسان في الأماكن المقفرة ويستمنيان ويندهشان حين تخرج منهما «القوّة» ويروحان يتأمّلانها ويتبادلان الخواطر عنها:

جوهر قوّة الإنسان!

جوهر الروح الإنسانيّة!

إكسير الحياة!

كانا ينظران إلى هذه «القوّة» كأنّها من جوهر ميتافيزيقي. أو ربّما كان الشعور بالحرج يدفعهما إلى استعمال هذا النوع من التعابير غير العلميّة ــ كما صار فارس يقول في ما بعد.

كان فارس أتمّ الثالثة عشرة عندما اضطرّ إلى ترك المدرسة،

وأجبره أعمامه على العمل معهم في البناء في قريتهم براشا، لكنّه لم يصمد طويلاً في هذه المهنة، ولم يتصوّر نفسَه يوماً يمضي حياته معلّمَ بناء، وكانت والدته زكيّة تحبّ أحلامه في أن يتعلّم وأن يُصبح طبيباً، وتحبّ أن تتحقّق هذه الأحلام التي كانت أحلام والده، لذلك فإنّها لم تحزن عندما ترك العمل مع أعمامه في البناء وتقصيب الحجارة، ولم تصرّ عليه كي يعود عن قراره.

ولكي يجبره أعمامه على البقاء في الضيعة والعمل معهم حاولوا إقناعه بأن يخطب فتاة من عمره، «حَسْنَا»، ابنة أحد أهالي القرية الذي كان يعمل معهم في الورشة. كانت تجيء من وقت لآخر بالزوادة إلى والدها ليتغدّى. كانت ناضجةً وتبدو أكبر من عمرها بكثير، كأنّها في السابعة عشرة. ولاحظ أعمامه عليه أنّه ينظر إليها بإعجاب، فاستغلّوا الوضع وهمّوا بأن يطلبوا يدها من والدها عندما جاءت له بالأكل ذات ظُهر، وأصرّ فارس على الرفض وأفشل مخطّطَهم. لكنّه أعجب فعلاً بها وكان يراها خلسةً في الليل في بيت هاجر أهله منذ سنين، وكانت لقاءاتهما تقتصر على الحديث فقط لأنّها لم تكن تسمح له بالاقتراب منها ولمسها. ثمّ اكتُشِف أمرهما واستحال عليه في ما بعد رؤيتها. وحين عاد إلى بيروت حاول أن يوصل إليها عدداً من الرسائل لأنّها كانت تستطيع القراءة وإن بصعوبة، لكنّ هذه الرسائل لم تبلغها وعادت إليه. وقد أراد أن يبقى على تواصل معها وأن يتزوّجها في ما بعد، لكن ليس بهذه الطريقة التقليديّة البائدة، وليس بهذه السرعة، بل بعد أن يحقّق حلمه في التخصّص في الطبّ. ثمّ تناسى الأمر وتخلّى عن مشروعه، وعلم في ما بعد أنّها سافرت مع والديها إلى أميركا.

لم تكن حسنا كما بدا له فتاة رومنسيّة حالمة تحبّ أن تتألّم في الحبّ، بل كانت فتاة عمليّة إذا أحبّت شيئاً ولم تستطع تحقيقه تجاوزته إلى شيء آخر تستطيع تحقيقه. وهكذا انطوى الموضوع.

عمل فارس أشهراً قليلة فقط مع أعمامه، عاد بعدها نهائيّاً إلى بيروت، واستطاع بعد ذلك بوقت قصير أن يعمل مدرّساً في زحلة المدينة، بعدما أقنع إدارة المدرسة بأنّ عمره سبع عشرة سنة، وكان شكله يوحي بهذا العمر بدون شكّ.

وفي ذلك العام انتشر مرض الكوليرا، وأصاب أوّلاً بعض القرى قرب المدينة وبخاصّة بلدة «حَبّين»، فنشط المبشّرون البروتستانت إلى خدمة الناس الذين كانت السلطات العثمانية تتركهم إلى مصائرهم التعيسة. ولكنّ صعوبات كثيرة كانت تجابههم، وأهمّها أنّ حرّاساً مسلّحين من هذه القرى كانوا يمنعون أيّاً كان من الاقتراب منها والدخول إليها، خوفاً من العدوى. وكان كلّ إنسان بين قريتين باعثاً على الخوف وحاملاً بذور الموت، وكان، لذلك، في حكم المباح دمه.

وبلغ خبر إصابة قرية حَبّين بالكوليرا مدينة زحلة، فتطوّع المبشّر الأميركي «دايل» للذهاب إليها مع كميّة من «دواء هاملن» الشافي من الكوليرا، كانت وصلته من بيروت، لكنّه لم يجد مكاريّاً أو أحداً يرافقه إلى هناك إلّا فارس! فقد تطوّع وعرض مساعدته وقبل دايل هذا العرض. وقد رجاهما كثير من الناس ألّا يذهبا، وهُدِّدا بعدم السماح لهما بالعودة إلى المدينة خوفاً من نقل الوباء إليها.

وعند وصولهما إلى القرية، وجدا أن كثيرين من أهل القرية فرّوا إلى الجبال العالية المحيطة بها، وأقاموا هناك، ومعهم رجال الدين المسيحيين والمسلمين عاجزين عن فعل شيء، وقد كان المصابين يعانون وحدهم مَع من تجرّأ على البقاء معهم من الأهل أو الأقارب. كان في القرية حوالي ثلاثين مصاباً، مات منهم واحد فقط وشفي الباقون بفضل الدكتور دايل ومساعده ابن البلد فارس، وبِفضل الدواء الذي جلباه معهما. وبعد أيّام قُرع جرس الكنيسة وأُذّن في الجامع وعاد الفارّون الخائفون.

العلم! قال فارس في نفسه، وتذكّر أُمنية والده.

وألحّ دايل على فارس أن يقبل منه أجراً، وأصرّ فارس على الرفض.

كان فارس فخوراً بهذا الإنجاز، وأحسّ براحة نفسيّة وبما يشبه الأمان، لأنّ تضحية الإنسان في سبيل شعبه الفقير المظلوم غاية نبيلة قصوى!

لكنّ هذه التضحية لم تمنع مدير المدرسة وصاحبها من أن يكتشف أنّ عُمرَ فارس الحقيقي أقلّ ممّا صرّح به، فأراد أن يدفع له أجراً أقلّ يساوي أجرَ غلام، فرفض فارس وترك المدرسة بعد أن عمل فيها حوالي عام.

وبعد ثلاث سنوات من التيه والتردّد والترقّب عاد فارس إلى المدرسة، بعد أن باعت والدته زكيّة كلّ أرض كانوا يملكونها في الضيعة، وباعت حصّة زوجها في بيت أهله هناك إلى إخوته.

وكانت، إلى ذلك، تعمل في البيوت وتُحسن غزل كنزات الصوف وتبيعها. وكانت تكسب أكثر من حاجتها اليوميّة فتدّخر. كانت امرأة «دبّارة». وقد قرّرت ألّا تُصرف للدرس جميع أولادها لأنّها غير قادرة على ذلك. وكان فارس يعطيها مما كان يجنيه عندما يعمل، فتدّخره أيضاً.

كانت زكيّة مقتنعةً بأنّ خبراً مفرحاً سيصلها من زوجها في يوم قريب، رغم أنّ غيابه طال، ورغم أنّ وساوس بدأت تنتابها كلّ يوم أكثر، وأسئلةً كثيرة تقلقها، إذ كيف تصف وضعها: أمهجورة أم مطلّقة أم أرملة؟ وكان ذلك الوضع غير المحدَّد يؤثّر بقوّة على صحّتها ومزاجها.

عاد فارس إلى المدرسة واضعاً أمامه هدفاً وحيداً، قرّر أن يبلغه مهما يكن دونه من صعاب، وهو أن يصبح طبيباً، ليحقّق حلمه الشخصي وحلم والده الذي انقطعت أخباره، وليؤدّي واجبه الوطني.

ولم تكن مرحلة التيه التي اجتازها وقتاً ضائعاً، ولم تكن ابتعاداً قاطعاً عن جوّ المدرسة، لأنّ فارس ظلّ يتابع ما يجري في المدينة في ميدان العلوم والآداب، وظلّ يقرأ ويستعدّ لليوم الذي لا بدّ أن يتابع فيه الدراسة، وظلّ على اتصال بعدد من أساتذة الجامعة الأميركيّة الوطنيين والمبشّرين الذين كانوا يقصدون مطعم والد جرجي، والذين كانوا منتبهين إلى ذكائه وثقافته ورغبته في الترقّي.

وفي تلك المرحلة تعرّف فارس إلى سعدالدين الجِباوي، الذي كان أكبر منه سنّاً، وكان أوّل عهده في شرطة بيروت العثمانيّة.

وقد جمعتْهما صداقة استمرّت دون انقطاع. وكان الإثنان يتشاركان في الأفكار ذاتها وفي الأحلام ذاتها.

وكانت هذه المرحلةُ من عمر فارس غنيّةً جدّاً بالتجارب الحياتيّة، لأنّها سمحت له بمعاشرة أنواع كثيرة من الناس في هذه المدينة المتحوّلة التي أصبح سكّانها ستين ألف نسمة، بعد أن كانوا منذ بضع سنوات فقط أربعين ألفاً.

ولم يترك في تلك الفترة مناسبةً إلّا وشارك فيها ما استطاع. فقد تطوّع لمكافحة موجات الجراد العارمة التي اجتاحت البلاد حاجبة الشمس لكثرة أعدادها. وكانت تحطّ على السهول والجبال والمدن والقرى وتغطّيها كبُسُط لا يُدرَك أوّلها ولا آخرها، وحطّت على بيروت فلم تترك فيها شجرةً ولا عشبةً ولا ثمرة ولا بذاراً. ودعت السلطات الأهالي يومها إلى التطوّع والمشاركة في القضاء عليها. وشارك فارس ومعه جرجي في هذه الحملة بحماسة، وعملا عدّة أيّام حتّى آخر الليل واستطاعا أن يجمعا عدداً كبيراً من الأكياس، ولكنّهما لشدّة تعبهما يوماً لم يحملا هذه الأكياس إلى المكتب العمومي لتُباد بالنار أو تُطمر بالتراب، بل وضعاها في المطعم على أن يعودا لينقلاها صباحاً إلى المكان المحدّد لذلك، لكنّ والد جرجي سبقهما في الصباح ليُفاجأ بالجراد مالئاً الشارع ومحلّه والمحالّ المجاورة، وقد أتى على كلّ ما فيها من طعام ومؤونة.

وأدّت موجة الجراد تلك إلى بدايات مجاعة بسبب ندرة المواد الغذائيّة وما تبعها من غلاء في الأسعار، وكثرت السرقات، وكثر الاعتداء على الناس والممتلكات الخاصّة والعامّة.

لكنّ بيروت تخطّت تلك الأزمة سريعاً وعادت إلى مزاجها الجميل.

ولم يترك فارس حدثاً يفوته في تلك الفترة. وكان يلحّ على جرجي للذهاب للتفرج على أشياء لم تكن تستحقّ الفرجة في نظر جرجي، كافتتاح محلّ جديد أو ورشة بناء جديدة. كذلك فإنّ فارس كاد أن يذهب بدونه إلى الاحتفال بجرّ مياه الشفة من منطقة «الضبيّه» إلى مدينة بيروت. كان ذلك في العام ١٨٧٥ وكان يوماً لا يُنسى. وقد حضر هذا الاحتفال كبار الشخصيّات، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري، وحاكم بيروت العثماني، ومتصرّف جبل لبنان. وسهّل لهما صديقهما الشرطي سعدالدين الجباوي الوقوف في مكان قريب من المنصّة، لأنّه كان من الفرقة المكلّفة بحفظ النظام.

اضطرب فارس عندما شاهد من قرب الأمير عبد القادر الجزائري يتقدّم على حصانه متوسّطاً موكباً مهيباً، ثم يترجّل ويحتلّ مكانه على المنصّة.

لم يصدّق عينيه.

إنه الفارس الوطنيّ الكبير، مقاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والمفكّر والحكيم وحامي ما استطاع من المسيحيين أثناء مجازر الستين في دمشق، وصاحب الشهرة العالميّة الواسعة.

نظر فارس إلى جرجي فرآه مندهشاً أيضاً بما يرى فقال له:

ـ أرأيت؟

كان فارس يشعر أثناء هذا الاحتفال وكأنّه يشارك في صناعة مستقبل بيروت، ويشعر بالفخر لذلك.

صارت المياه تصل إلى دواخل البيوت في قساطل معدنيّة. صار في إمكان المواطن أن يحصل على الماء دون عناء، ودون أن يضطرّ إلى الخروج والذهاب بعيداً إلى بئر أو نبع في الليل والبرد. وصار في إمكانه أن يستهلك من الماء ما يشاء وساعة يشاء. وصار في استطاعة من كان من العابرين أن يشرب ماء صافياً من السبل المنتشرة في الأحياء.

وفي العام ١٨٧٦ أمضى فارس أيّاماً بلا كلل يتنقل من مكان إلى آخر، ليتفرّج على أمبراطور البرازيل الذي زار السلطنة العثمانيّة وأمضى عدّة أيّام في بيروت، دعا الناس أثناءها للهجرة إلى البرازيل والعمل فيها، وكانت زيارته باعثةً بالفعل على موجة عارمة من الهجرة إلى هناك. ولهجت الناس كثيراً بأخبار الأمبراطور، وبحبّه لبيروت، وبثقافته، وقيل إنّه تعلّم العربيّة قبل مجيئه على يد أحد المغتربين من جبل لبنان، وأنّه تمكّن من هذه اللغة أثناء إقامته القصيرة في المنطقة. وشاعت أخبار بأنّه كان يصلّي بالعربيّةِ اللغةِ الأقرب إلى الله، بما هي الأخت الشقيقة للعبرية التي أُوحيَ بها إلى الأنبياء اليهود، والأخت الشقيقة للآراميّة التي تكلّم بها السيّد المسيح، واللغة ذاتها التي أُنزل بها القرآن على النبيّ العربي.

وزار أيضاً أثناء إقامته في بيروت، المطبعةَ الأميركيّة وكليّة الطبّ، وأعجب بهما. وقد بلغ فارس أنّ الأمبراطور سأل أثناء زيارته للكلّيّة عن الجثث كيف يؤتى بها ليتعلّم الطلّاب مادّة التشريح، ولفت هذا السؤال انتباه جميع الطلّاب والأساتذة الحاضرين لأنّ

هذه المسألة كانت حسّاسة جدّاً، فالتشريح مادّة ضروريّة في الامتحان الأخير في اسطنبول الذي يُجيز لمن يجتازه بنجاح ممارسةَ المهنة على أراضي السلطنة كلها، فأجيب بأنّ هناك جثثاً لفقراء معدمين تشتريها الجامعة، وأنّ هناك جثثاً لا يُطالب بها أحد تُهدى إليها.

هزّ هذا الخبر وجدان فارس!

فمن أين يُؤتى بالجثث؟

وأسرّ له أحد الأساتذة في مطعم والد جرجي أنّ هناك جثثاً لقتلى تردهم من عدّة طُرُق. ولم يوضّح له أكثر من ذلك لأنّه لا يعرف، وليس من المفترَض فيه أن يعرف. أمّا صديق فارس الشرطي سعدالدين الجباوي، فأخبره بأنّ شرطة المدينة تعرف بأنّ كثيراً من هذه الجثث التي ترد إلى الجامعة هي لنساء، شابّاتٍ ومسنّاتٍ، قُتل بعضهنّ لغسل العار الذي ألحَقْنَه بعائلاتهنّ، والبعض الآخر لأسباب «مجهولة»، ومنهنّ من قُتلن بحجّة غسل العار ادّعاءً وليس حقيقةً. وبكلام أكثر وضوحاً كانت تُقتل نساء لبيع جثثهنّ.

وقد وردت إلى الكلّية عدّةَ مرّات جثثُ نساء وُجدت مرميّةً قرب «زقاق المومسات».

وكان عدد الجثث العائدة إلى النساء التي ترد إلى الكليّة أكثر بكثير من عدد الجثث العائدة إلى الرجال.

ثمّ باح سعدالدين لفارس بسرّ ألّح عليه بألّا يفشيه، وهو أنّ بعض كبار المسؤولين يقبضون حصّتهم حتّى تصل الجثّة إلى قاعة

التشريح. بل أكثر من ذلك فإنّهم على علم بالجثث التي تُسرق بعد دفنها بساعات.

إنّ أمبراطور البرازيل واسع الاطلاع، ولم يكن سؤاله بريئاً إلّا في الظاهر. هذا ما فكّر فيه فارس في سرّه.

يبدو أنّ جرجي، في مدّة التيه والترقّب التي دامت سنوات، لم يذهب إلّا نادراً إلى بيوت الدعارة في «زقاق المومسات» أو «ورا الثكنات» كما كان يُسمّى شعبيّاً. لم يكن يجرؤ على ذلك. ذهب إلى تلك السوق مرتين أو ثلاثاً فقط بتشجيع من فارس الذي كان مُقْدِماً على الملذّات بلا تردّد. ولم يكن وقتها العازل أو الواقي الذكري دارجاً كما هو اليوم، لذلك لم تكن المومسات يسمحن للزبائن بولوجهنّ إلاّ مَن كان منهم سيّداً متمدّناً مميّزاً من الخاصّة والأعيان. أمّا الآخرون فكنّ يخدمنَهم بالفرك باليد أو تحت الإبط.

لكنّ فارس استطاع مرّة إقناع إحدى المفضّلات لديه، يورما ـ التي تعدّى عمرها الخمسين ـ بالسماح له بولوجها، وقد نجح مرّةً في جعلها تبلغ أورغاسمَها، فحسمت له من سعر تلك المَرّة.

ثم صار يرتاح إليها أكثر فأكثر، وربطته بها مع الأيّام علاقة متينة، بحيث إنّها رَوتْ له سيرة حياتها، وأطلعته على خفاياها، وكيف انتهت بها الحال إلى هذه المهنة المذلّة. وكان لهذه القصّة تأثير كبير على حياته، وقد أحدثت فيها انعطافاً، لأنّها عمّقت رغبته في تعلّم الطبّ مهما كلّف الأمر، وعمّقت قناعته بضرورة بناء الدولة

الحديثة العادلة الحانية على مواطنيها، كما هي الحال في الأمم الأوروبيّة الراقية.

اغتصبها والدها بعد وفاة والدتها، وكانت هي الابنة الكبرى، ثمّ اغتصبها ابن عمّها وحبلت منه سفاحاً أو ربّما حبلت من والدها. فكيف كان لها أن تعرف؟

ولمّا رأى والدُها أنّ بطنها ينتفخ خاف من الفضيحة وقد ظنّ أنّها حملت منه، لأنّه لم يكن على علم بما كان يفعله بها ابن أخيه. فهدّدها بالقتل إن لم تترك البيت وإن عادت قبل أن تتخلّص من هذا الشيطان الذي في رحمها. وكان عمرها يومذاك ثلاثة عشر عاماً.

ثمّ فكّرتْ في أن تنسب حبلها إلى ابن عمّها. لكنّ ابن عمّها حين اغتصبها أوّل مرّة لم يلحظ دماً عليه ولا عليها، واتّهمها بأنها ليست عذراء، وشجّعه ذلك على اغتصابها تكراراً.

لم تجرؤ على أن تقول له إنّه والدها. ولمّا علم بأنّها حبلى ظنّ أنّها منه وخاف أن يبلغ الخبرُ والدَها فراح يحتاط للأمر، ويفكّر في حلّ.

وذات مرّة ظلّ والدها يضربها على بطنها بالعصا حتّى أُغميَ عليها. ولكنّ الإغماء ليس مسموحاً لها لأنّ الوقت يلحّ، والجنين يكبر والبطن ينتفخ، فأشعل خرقةً وقرّبها إلى أنفها لتستعيد وعيها، ثمّ تركها ترتاح ساعةً وعاد إلى ضربها على بطنها حتّى قبلت مكرهةً بترك البيت والذهاب إلى لا مكان.

كان فارس وهو يسمع هذا الكلام يلعن ظلمة الجهل، ويُقسم

على العمل من أجل نشر نور المعرفة في هذه البيوت المعتمة.

واحتارت يورما أين تذهب، وانحدرت في هذه الممرّات وتاهت ساعات عديدة في الدروب الموحشة على حوافي الجبال وفي الوديان، حتّى بلغت الطريق التي تربط بين بيروت ومدينة دمشق. وكانت قد سمعت عنها كثيراً وسمعت عن المدينتين، وسمعت عن الاستراحات والمصالح المقامة على جانبيها.

جذبت يورما هذه الطريق، وانحدرت نحو بيروت، وعندما بلغتها احتارت في أيّ شارع تدخل وأيّ طريق تسلك، وقد حلّ الليل، وبكت، وهي حبلى وبطنُها بادٍ. ثمّ قرعت باب بيت سمعت داخله أصوات أولاد، ففتحت لها سيّدة أنيسة الوجه رقّت لها، لكنّ يورما لم تُجب على أي من أسئلة هذه السيّدة التي خافت من أن تتورّط في قصّة هي في غنى عنها، وهي تسمع عن الجرائم التي تحدث من وقت لآخر في بيروت وبخاصّة جرائم الشرف، وتسمع عن جثث النساء المرميّة «ورا الثكنات» في «زقاق المومسات» ومحيطه، فطلبت من الفتاة أن تغادر البيت فوراً.

وهكذا خرجت يورما باكية حزينة، وكان الوقت ليلاً بلا نجم ولا قمر، والطقس غيوماً منذرةً، والشارع فرعيّاً موحِلاً والعتمة سميكة حالكة.

تصوّر فارس نفسه فتى صغيراً مع أمّه وإخوته، في الليل، ووالده غائب، وقد دقّت بابهم فتاة من هذا النوع. فكيف كانت تصرّفت والدته؟ هل كانت تصرّفت بخلاف هذه السيّدة؟

هذا وضع يجب ألّا يدوم! قال فارس في نفسه. الجهل سبب

هذه المآسي. المرأة نصف المجتمع. لا يستطيع المجتمع أن يحلّق بجناح واحد. المرأة أمّ قادتنا وأمّ عباقرتنا، وأختهم وزوجتهم. وهي المضمدة لجراحنا. البنت ليست مصيبة. المرأة في الأمم الراقية محترمة كالرجل. جارتهم التي انتحرت الشهر الماضي لأنّها أنجبت الابنة الثالثة وليس لها صبي، خضّت أعماق وجوده. فقد سمع صوت صراخ قبيل الظهر في بيت الجيران، فأسرع ليستطلع. لقد أعدّت الجارة السمّ قبل أن تلد، ووضعته في كأس قرب فراشها، وحين قالت لها المولّدة إن مولودتها بنت تناولت الكأس وشربته حتّى الثمالة دفعة واحدة وراحت بعد دقائق في سبات أبديّ. لم تكن قادرة على مجابهة قسوة زوجها ونظرات الأقرباء المحتقِرة، فانتحرت. زوجها كان هدّدها بالضرب إن هي أنجبت بنتاً. وأراد فارس إنقاذها ببعض المعارف الطبّيّة التي اكتسبها من هنا وهناك، لكنّه مُنع من الدخول لأنّ عورتها حرام عليه.

وظلّت يورما في تلك الليلة محتارةً وقد أضناها النعاس، إلى أن استدلّت على دير للراهبات حيث باتت عند بابه دون أن تجرؤ على قرعه خوفاً من أن يقولوا لها لا!

غطّت نفسها بثيابها وغفت وهي على وشك أن تنهار من التعب.

عندما فُتح باب الدير باكراً في الصباح وصحت على صوت راهبة تناديها، كانت شبه غائبة عن الوعي. كانت تشعر بألم في الرأس والبطن.

ما هذا الدم؟ سألتها الراهبة بخوف شديد.

لم تكن يورما منتبهةً إلى شيء لشدّة الألم الذي كانت تشعر به، فنظرت إلى حيث كانت تنظر الراهبة ورأت دماً أغرق ثيابها عند أسفل بطنها، وأحسّت بجسم لزج بين فخذيها، وغابت نهائيّاً عن الوعي، وبعد مدّة من الوقت استفاقت على فراش في إحدى الغرف الفارغة، وفوق رأسها راهبة مسنّة أحنت الأيّام ظهرها تستند إلى عصا، راحت تطمئنها أوّلاً، ثم قالت لها:

ـ «روّحتِ!».

سقط الجنين الذي كان في بطنك. الحمد لله على سلامتك. أخبريني من أنتِ ومن أين أتيتِ ومَن زوجكِ، فصمتت يورما ولم تقل كلمة.

كانت يورما تصمت عندما تُسأل عن هذه الأمور. ولم يكن سكوتها إرادياً، بل تلقائياً بالكامل. قالت لها الراهبة إنّ الدير سيستضيفها الأيّامَ اللازمة لتستعيد قواها، ثم عليها بعد ذلك أن تسعى في سبيلها.

لماذا؟ كان يقول لها فارس. وكان يلحّ عليها بهذا السؤال: لماذا لم تبوحي لهنّ بما جرى لكِ وقد نذرنَ أنفسهنّ لخدمة خلق الله؟

كنتُ عاجزةً عن الكلام! كانت تجيبه. لا أدري. كان أمراً غريباً عليّ وأنا في الثالثة عشرة وقد زُجِجْتُ في ذلك الجحيم.

وبعد أن شفيَتْ من آلامها، أعطتها الراهبات ملابس وطعاماً وما يكفيها لمدّة أيّام من النقود، وصلّين لأجلها حتّى يوفّقها الله وأرسلنها في سبيلها.

فارس تفهّم تصرّف الراهبات، لكنّه لم يجد عذراً لصمت يورما، ولعدم إفصاحها لهنّ عمّا جرى لها، لأنّهن كنّ ساعدنها بلا شكّ، وكنّ وجدن لها عملاً في مكان ما إن لم يكن في الدير نفسه.

ثمّ إنّ الأقدار قادتها بعد أن تركت الدير إلى فندق، في ساحة البرج، الساحة ذاتها التي سمّيت في ما بعد، أي بعد عشرات السنين، ساحة الشهداء، وصارت قلب بيروت عاصمة لبنان ـ الدولة الجديدة.

«نزل الأمان». هذا كان اسم الفندق. وقد عرض عليها صاحبه أن تعمل عنده في غسل الشراشف والصحون وثياب النزلاء، مقابل الأكل والإقامة وأجر يسدّده لها آخر كلّ أسبوع. لم تتردّد كثيراً قبل أن توافق والرهبة تملأ قلبها من هذا المصير المجهول، ومن هذا الوضع الجديد الذي وجدت نفسها فيه. لم تقترف ذنباً لتستحقّ أن تكون هذه الضحيّة.

حين سألها صاحب الفندق عن اسمها واسم عائلتها، ومن أين أتت وابنة من هي وما إلى ذلك، انعقد لسانها ولم تجب، ثمّ قال لها بغضب: طيّب، بأيّ اسم أناديكِ؟ أجابت:

ـ يورما!

أمّا من أين جاءها هذا الاسم فلا تعرف. وعرفت في ما بعد أنّ هناك أكْلةً اسمها «شاورما»، وأنّ هناك محلاً باسم «نورما»، وأنه بهذا الاسم تُسمّى البنات ويبقى لهنّ حتّى بعد أن يكبرنَ ويتزوّجن وينجبن الأولاد، واكتشفت أسماء كثيرة أيضاً عرفت في ما بعد أنّها أجنبيّة من بلدان أوروبّا، أو من أميركا البلد الكبير الذي وراء

المحيط. وقد سمّى كثير من الناس أولادهم بهذه الأسماء التي ستبقى لهم حين يكبرون، وسمّوا كذلك محالّهم بالأسماء الأجنبيّة ليستمدّوا منها أهمّيّةً وصيتاً حسناً.

وحين أدخلها صاحب الفندق إلى الغرفة الصغيرة الوسخة والمظلمة وقال لها: هنا مقرّكِ! امتلأت عيناها بالدموع، وبعد خروجه ظلّت تبكي في العتمة حتى صحّاها قرار حاسم اتخذته بلا تفكير، وهو أنّها لن تُطيل الإقامةَ هنا!

كانت هذه الغرفة معتمةً حتّى أثناء النهار، وكانت يورما لا تتعرّف على الأشياء فيها إلّا بتركيز وصعوبة، وفي النهار الغائم كانت تضطرّ إلى إشعال شمعة. وبقيت على ذلك بضعة أسابيع إلى أن جاءها يوماً صاحب الفندق، وقال لها إنّ رجلاً ثريّاً ينزل في الفندق يبحث عن امرأة.

ـ عن زوجة؟ قالت له.

قال لا! بل عن امرأة يمضي معها بعض الوقت في المساء قبل أن ينام ويعطيها مقابل ذلك كثيراً من المال.

ـ وماذا تعمل أثناء هذا الوقت؟

فشرح لها ما عليها بطريقة مواربة، لكنّها خافت ورفضت، وغضب صاحب الفندق لرفضها.

لكنه في المرّة الثانية والثالثة هدّدها بالطرد إن لم تستجب لما يطلبه الزبائن الأثرياء الذين ينزلون عنده.

الأثرياء فقط.

وهكذا بدأت يورما التعيسة مشوارها في عالم الذلّ والخطيئة.

وهكذا صارت يورما تأكل خبز يومها بعرَق العار.

وهكذا أُعطيت يورما غرفةً فيها شبّاك يدخل منه هواء نظيف وضوء كثير، لكنّه كان ضوءاً ممزوجاً بالندم والشعور بالذنب.

وكانت يورما في تلك الأيّام لا تزال تحنّ إلى ضيعتها، وتتتبّع ما استطاعت من أخبارها عن طرق مواربة لئلّا يكتشف الأهل أمرها. وعلمت أنّ أهلها، وبخاصّة والدها وابن عمّها، يفتّشون عنها في كلّ مكان حتّى يغسلوا العار الذي ألحقته بهم بعدما حبلت من مجهول سلّمته نفسها بدون زواج. وذُكِر لها أنّ شخصاً تنطبق أوصافه على ابن عمّها يبحث عنها.

ثمّ بدأ الخلاف يدبّ بينها وبين صاحب الفندق، الذي كان يطالبها دائماً بأن تدفع له المزيد ممّا تجنيه من عملها مع الزبائن الأثرياء، إلى أن تركت الفندق بعد أن اتفقت سرّاً مع صاحبة «صالون» يقصده الرجال الراقون من المجتمع البيروتي ومن زوّار المدينة. وعلّمتها هذه السيّدة كيف تهتمّ بالبيت، وعلّمتها الطبخ ومسايرة الزبائن أثناء الشرب. لكنّها بعد مدّة منعتها من التعامل مباشرةً مع الزبائن المميّزين الذين خصّت بهم فتاة أوروبيّة شقراء طويلة القامة جميلة الوجه، ادّعت صاحبة الصالون أنّها مرتاحة في جسدها أكثر من يورما، وأنها تعرف كيف تخاطب الزبائن، وكيف تخلق الأجواء المناسبة.

ـ بعدِك أنتِ بنت ضيعة!

اغتاظت يورما من هذا التمييز وتركت عملها هناك واستقرّت

حيث كان يزورها فارس «ورا الثكنات».

وأسرّت له برغبتها المتعاظمة في التخلّص من هذه المهنة المعيبة، وباحت له بخوفها الدائم بعد أن بلغتْها أخبار تفيد بأنّ بعض أهالي ضيعتها انتقلوا إلى بيروت للعمل فيها والإقامة.

وكان فارس قبل أن تثق به يورما، وقبل أن يحقّق هذا الانتصار الذي حقّقه بأن سمحت له بولوجها، يضع ذكره تحت إبطها لتدعكه حتّى يبلغ، وكانت لا تسمح له بأكثر من ذلك. وكانت تزيد السعر إذا كان ما تحت إبطها «نظيفاً» أي خالياً من الشعر بعد شيْله بالسكّر. أمّا في الفم فلا! لأنّ ماء الرجل إذا دخل الأحشاء من هذه الجهة كان باعثاً على بروز أورام غريبة تشوّه الجسم، وقد يؤدّي بالمرأة إلى الحبَل بطفل مشوّه مهما تكن متقدّمةً في السنّ.

- تصوّرا! قالت له. امرأة مثلي في الخمسين من عمرها أو في الستّين، بلا زوج، مشوّهة الجسم وحبلى بطفل مشوّه.

لكنّ فارس أقنعها بأنّ هذا الاعتقاد خرافة، وشرح لها معنى الخرافة أنّها وَهْم من صنع المخيّلة الجاهلة وهو مخالف للواقع والعقل. بل أكّد لها أنّ ماء الرجل مفيد لجسم المرأة ولجِلدها خاصّة. وكان يأخذ هذه المعلومات ممّا كان يقرأه أو يسمعه من أصحابه طلاب الطبّ الأكبر منه سنّاً. فقبلت بأن تستقبله في فمها.

وأخبر فارس جرجي بذلك وأخبر رفاقه الآخرين المقرّبين، الذين راحوا يكثرون من زيارتها ويتمتّعون بهذه الممارسة. وكان هذا

ربّما خطأ فارس الذي عذّبه طويلاً، إذ سرَت بعد ذلك بأشهر قليلة شائعةٌ بأنّ يورما شوهدت حبلى، وبلغت هذه الشائعة مسمع فارس فذهب لزيارتها وسؤالها عن الأمر، فلم يجدها.

اختفت!

وجاء اختفاؤها في ظروف خاصّة، إذ كانت موجات الجراد تجتاح البلاد، وكان الناس منصرفين إلى مواجهة تلك الكارثة، وكان فارس منصرفاً بالكامل إلى ذلك.

وفي خريف تلك السنة بالذات، فاجأ الناسَ ذات مساء مطر من الشهب التي تشبه النار تعبر فوق بيروت، وتكاد أن تصطدم بالمباني الحديثة المؤلفة من عدّة طبقات، وتبع هذا الظهور عاصفة رعديّة دامت طوال ما بقي من الليل أرعبت الناس الذين اختفوا في مخابئ في بيوتهم وامتنعوا عن الخروج، وأخفوا أولادهم في الغرف تحت الأرض، ومنهم من حفر في الأرض داخل بيته وخبّأ أولاده، وغصّت الكنائس والمساجد والكُنُس بالخائفين، وكان الواحد منهم إذا ما فاجأه رشق من الشهب يدخل إلى أقرب معبد ويحتمي فيه، فكنتَ تجد المسيحيّ والمسلم واليهودي في المعبد الواحد وقد أصابهم الرعب. كان الواحد منهم ينظر إلى جاره المسيحي أو المسلم أو اليهودي، في الكنيسة أو في المسجد أو في الكنيس، ويظنّ أنّ النجاة ستكون من صلاته. صارت صلاة المؤمن على دينه غير كافية لرد المطر الكوني المنهمر على بيروت البهيجة. صارت صلاة المؤمن الآخر كأنّها سند ضروريّ، كأنّها ملء فراغ.

وفاضت المجارير نتيجة الأمطار الغزيرة، وانتشرت الأوساخ في

الشوارع والأزقّة وفي كلّ أنحاء المدينة المزدهرة. ثمّ صفا الجوّ بعد هذا الفيضان الذي دام ساعات فقط، وارتفعت بعد ذلك الحرارة ونشفت الأرض، وفاحت الروائح الكريهة من الأوساخ التي كانت تجفّ، وانتشرت الميكروبات المضرّة، وتفشّى مرض التيفوئيد، ومات بسببه عشرات الأطفال والأولاد، وكثير من المسنّين.

فهل سهّلت هذه الظروف على منتهزي الفرص إخفاء يورما، بدعوى الخوف من أن تلد مسخاً يشوّه خلق الله بعدما شربت ماء الرجال؟ أليس هذا الجراد وأمطار الشهب والفيضانات والأوبئة غضباً من الله على البشريّة الفاسقة العاهرة؟

وكان فارس يعرف أنّ كليّة الطبّ بحاجة دائمة إلى جثث حتّى يتعلّم الطلاب التشريح، وكان يعرف أن لا أحد في بيروت أو في جبل لبنان الذي يحيط بها أو في بلدان سورية كلّها، يقبل بأن يوصي بجثّته أو أن يقدّم جثّةَ قريب للجامعة حتّى يُقطَّعَ بها، فللموتى حرمة. وكان يعرف أنّ ما أجيب به أمبراطور البرازيل كان للتخلّص من الإجابة.

وكان فارس يعرف أيضاً أنّه بدون مادّة التشريح لا يمكن لأيّ طالب أن يتخرّج بشهادة تسمح له بممارسة الطبّ في أيّ مكان من السلطنة.

وكان فارس يعرف أنّ الامتحان الذي يُجيز للطبيب ممارسة المهنة في أراضي السلطنة يجري في الآستانة لا في بيروت، لذلك لم يكن هناك مجال أمام إدارة الجامعة أو أمام الطلّاب للقفز فوق هذه الصعوبة. كان لا بدّ من تعليم مادة التشريح.

وكان فارس يعرف أيضاً وأيضاً أنّ الجثّة يجب أن تُنقل إلى الجامعة من مكان ليس ببعيد حتى لا تهترئ قبل وصولها.

السرّ إذن قريب، وحجابه عن العين رقيق.

أحسّ فارس بالذنب لأنّه خاف من أن تكون ثرثرته خلّت خبرَ قبولها الرجل بالفم يبلغ المتربّصين بالفرص.

والمفارقة الكبرى أنّ هذه الممارسة عرفت في تلك المرحلة رواجاً كبيراً، فاق بكثير الرواج الذي عرفته بعد الإنزال العسكري الفرنسي على شواطئ بيروت وجوارها عام ١٨٦٠ حين كثرت بيوت الدعارة لتلبية حاجة الألوف من الجنود البحّارة الفرنسيين.

لقد انتقلت هذه الممارسة شيئاً فشيئاً هذه المرّة إلى الأزواج. كانت الجارة تخبر الجارة عن أثرها الممتع، والرجل يخبر أصحابه.

ومن المؤرّخين لهذه الممارسة من يؤكّد أنّها عمّت خلال سنوات قليلة مدن وبلدات سورية وكلّ أنحاء السلطنة العثمانية. لقد سُرّ بها الأزواج وتضاعف نشاطهم الجنسي، وسُرّت بها النساء لأنّهنّ تمكنَّ من أزواجهنّ، ولأنّ هذه الممارسة قد سهّلت تبادل الأدوار.

ولاحظ المؤرّخون أيضاً أنّ سهر الرجال المتزوّجين خارج البيوت قلّ، وتضاءلت نسبة الجريمة الليليّة.

تغيّر مزاج بيروت مع انتشار هذه الممارسة الواسع، في سبعينيات القرن التاسع عشر، بعد أقلّ من عشر سنوات على إنشاء كلّيّة

الطبّ في الجامعة الأميركيّة، وعلى أبواب افتتاح كليّة الطب في جامعة القديس يوسف ـ اليسوعيّة ـ، ودبّ في المدينة نشاط لم تعرفه من قبل في تاريخها، وقد أجمع على ذلك مؤرّخو تلك الفترة، رغم أنّهم لا يردّون هذا التحوّل الخطير إلى هذا العامل بمفرده، بل يرَون أنّ أسبابه متعدّدة. وكان فارس فخوراً بكونه جزءاً من هذا التحوّل ومساهِماً فاعلاً فيه. لكنّ اختفاء يورما ظلّ يعكّر صفوَ هذا الفخر.

وبعد خمس سنوات من الغياب التام، عاد والد فارس وأبان عن نفسه وأعلن أنّه حيّ، وأنّه وصل إلى نيويورك واستقرّ فيها، وأنّ العمل فيها ماش أكثر مما توقّع وأمل، وأنّ صحته جيّدة، وأنّه يسكن الآن في غرفة بمفرده في شقّة من عدّة غرف في شارع اسمه واشنطن ستريت، (لأنّ الشوارع هناك لها أسماء كالناس، ولا يوجد شارع إلّا وله اسم خاصّ به. ويسمّون الشوارع بأسماء ملوكهم وكبار قادة جيوشهم وبأسماء نوابغهم في العلوم والفلسفة والآداب والفنون والعمل الاجتماعي والميادين كلها.)

وكان يردّد في رسائله أنّه سيعود بعد سنتين أو ثلاث سنوات، بعد أن يتجمّع له مبلغ من المال يكفي ليشتري به بيتاً في بيروت ويفتح «مصلحة»، وهو يفكّر في أن تكون هذه «المصلحة» محلاً لصناعة الأحذية الإفرنجيّة، لأنّ الناس في أميركا تلبس جميعها أحذية، وما من فرد فيها إلّا وتراه يلبس حذاءً، فقيراً كان أو غنيّاً، رجلاً كان أو امرأة، طفلاً كان أو شيخاً مسنّاً. والأحذية هنا من كلّ الألوان، الأسود هو الغالب، لكن الأحمر كثير والبنّي وحتّى الألوان الغريبة كالأصفر والأزرق. وترى منها الحذاء الطويل حتّى

الكاحل ومنها الحذاء النصفي وهو الذي يجتاح الموضة ويغلب على كلّ الأنواع. إنّ لصناعة الأحذية مستقبلاً في كلّ بلاد سورية وكلّ بلاد الشرق.

وبعد خمس سنوات من الغياب إذن، عاد الوالد يرسل مالاً للعائلة ويطمئن فارس إلى مستقبله.

وسُرّ فارس بعودة والده إليه، وإن كان سروره مشوباً بغصّة من استطاب طعم الفلتان المتحرّر من كلّ رقابة أبويّة، ولكنّه سرّ كثيراً أيضاً لأنّه سيحقّق أخيراً حلمه بأن يصير طبيباً، ويساهم في جعل الفرح يعمُّ هذه المدينةَ المزدهرةَ باطراد، بيروت، لؤلؤة الشاطئ الشرقي للبحر المتوسّط، وذلك رغم تلك الانتكاسة التي أصيبت بها والتي أدّت إلى اختفاء يورما المفضّلة.

وستكون أجساد الناس مصدر سعادة لهم، لا مصدر خوف وهمّ.

وسيتعلّم أولاده في المدرسة ذاتها التي سيتعلّم فيها أولاد صديقه سعدالدين الجباوي، ولن يباعد بينهم اختلاف الدين، بل سيجمعهم وسيغتنون باختلافهم.

وسيجمعهم الوطن الواحد!

وكان والده ما زال متحمّساً لتحقيق حلمه في ابنه، وكان هذا أوّل شيء ذكره في رسالته الأولى بعد السلام وبعد الكلام على الشوق وسبب الغياب.

وهكذا انتظمت أمور فارس، وصار على السكّة الموصِلة حتماً إلى الطبّ.

أمّا في ما يخصّ صديقه جرجي، فقد اتخذ قراره التاريخي بالتخصّص في الطبّ مهما تكن الصعوبات، واستطاع أن ينجز سنتَي المرحلة التحضيرية في شهرين فقط! أعطاه الأُستاذ اسكندر بارودي دروساً خصوصية في الصيف في الفلسفة الطبيعيّة، والجبر والهندسة والحساب، واللغة العربيّة والنحو واللغة الإنكليزية، وهي العلوم التي كانت تدرّس لمدّة سنتين قبل امتحانات الدخول إلى مدرسة الطب. واستطاع جرجي النجاح في امتحان الدخول هذا.

وهكذا التقى فارس وجرجي من جديد على مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركيّة.

وذات يوم وهما في السنة الدراسيّة الأولى، التقى بهما صديقهما «جميل الحلو»، الذي كان في السنة الثالثة في الطبّ، وأخبرهما بحاجة الكليّة الفورية إلى الجثث.

اضطرب فارس وقتها واحتار، وهو الذي لا يتعب من الترداد عن قناعة تامّة، بأن للطبّ دوراً رئيسيّاً في تقدّم البلاد. وكان عليه وقتها أن ينتصر بسرعة على حيرته واضطرابه، من أجل أن تستمرّ الكلّيّة، ومن أجل أن يستطيع طلّابها النجاح في الامتحانات التي كانت تُجرى في الآستانة للحصول على إذْنٍ بالعمل. إنّها قضيّة وطن.

تذكّرَ يورما.

امرأة خاله، «أمّ شاهد»، من الناس النادرين الذين لم تسمح لهم ظروفهم إلّا بالموت في المستشفى. وكانت ترعاها قبل أن تموت

إحدى قريباتها التي ظلّت عزباء والتي كانت تعتني بأقاربها الذين هاجر أبناؤهم، وكأنّهم أولادها الذين لم يُكتب لها أن تُرزَق بهم.

كانت الخالة أم شاهد مريضة في رأسها، واستمرّ مرضها أشهراً وهي باقية في بيتها، ثم نقلت إلى المستشفى قبل أيّام من وفاتها، على غير العادة المتّبعة في تلكَ الأيّام، وذلك بعد تدخّل فارس وإلحاحه عليها وعلى القريبين منها وإقناعهم بأنّ مكان إقامتها المناسب في حالتها الراهنة هو المستشفى.

وكانت مفاجأة «أمّ شاهد» كبيرة جدّاً وقاسية حين انتبهتْ إلى هذه المفارقة: أنّها تُنقل من بيتها إلى مكان آخر (المستشفى!) وهي مريضة، لأنّ في طبيعة الأشياء أن يرتاح المريض في بيته، وأن يموت في بيته، وهل هناك مكان أفضل من البيت يموت فيه الإنسان على فراشه؟

في هذه الأثناء بالذات جاء جميل الحلو يشكو إليه انقطاع ورود الجثث إلى الجامعة، وما يثيره هذا الانقطاع من مشاكل أساسيّة، ستؤثّر بلا شكّ على مستقبلِ الكليّة والطلّابِ والبلاد كلّها.

فتشاوروا طويلاً وبالتفصيل. فارس وجميل أوّلاً. ثمّ أخبرا جرجي. واتّفقوا جميعاً على حيلة لتحويل جثّة امرأة عمّه، أمّ شاهد، بعد وفاتها من الكنيسة إلى الجامعة بدل المقبرة.

لم يكن القرار سهلاً على فارس لكن للضرورة أحكام.

وكان مدفن العائلة لا يزال في مقبرة القرية العامّة في الجبل، على بعد نهار من بيروت على بغل.

بُدئ بتنفيذ الخطة قبيل وفاة أمّ شاهد، حيث أرسل فارس إلى «حنّا» المكلّف بمقبرة البلدة، أن يحفر قبراً لزوجة خاله سمعان «أمّ شاهد»، وأن يشتري لها تابوتاً، وأن يضعه قرب المدفن، ثم أنْ يأتي فوراً على بغل إلى بيروت مهما كلّفت أجرة البغل حتّى ينقل جثّتها عليه لتدفن مع أهلها وأقربائها.

حضر حنّا على بغل في اليوم التالي.

وكانت الخطوة الثانية من الخطّة تقضي بأن يزوّر فارس وجميل وجرجي أوراقاً قانونية تسمح لهم بتقديم الجثّة إلى الجامعة. وكان تنفيذ هذه الخطوة سهلاً جدّاً لأنّ فارس كان أقرب الرجال في لبنان إلى المتوفّاة وكان بالتالي هو المسؤول والمخوّل إجراء المعاملات القانونيّة وتوقيعها عن كلّ ما يتعلّق بها. وقد زوّر وثيقةً تفيد بأنّها تهب جثّتها بعد وفاتها إلى كلّية الطبّ في الجامعة الأميركيّة، من أجل خير الناس.

أمّا الخطوة التالية فكانت الاحتيال على حنّا وتحضير حِمْلَيْن متشابهَين تماماً، واحد يحتوي على الجثّة وآخر يحتوي على أقمشة فيها نشارة الخشب مخلوطة بالتراب وبعض غصون الشجر التي تشبه عظام الأطراف والرأس.

عندما وصل حنّا كانت أم شاهد متوفّاة. ثمّ أخبروه أنّ مراسيم جنازتها أقيمت في كنيسة صغيرة في المستشفى.

- مستشفى؟

فشرحوا له ما هو المستشفى، فتعجّب كثيراً، وحزن أكثر بكثير ممّا تعجّب بسبب أن يموت إنسان خارج بيته، في غربة

المستشفى، ولعنَ السفر الذي خلّى هذه المرأة وحيدة بلا زوج ولا أولاد، وحرمها من الموت على فراشها في بيتها.

وكان حنّا بسيط النفس وعند حدود السويّة العقليّة. وكان تمرير الأشياء عليه هيّناً جدّاً.

ثمّ انطلقوا في قافلة إلى الضيعة ليدفنوها هناك. كانوا ثلاثة: حنّا وفارس وجرجي والبغل الذي عليه الجثّة. أمّا جميل فكان قد سبقهما إلى نهر الدامور حيث كان ينتظرهما ومعه بغل عليه الحمل الثاني الشبيه. حنّا لم يرَ جميل، ولا البغل الذي وضع عليه الحمل الشبيه.

وهناك في استراحة عند نهر الدامور، احتال فارس وجرجي على حنّا، فربطوا البغل الذي عليه الجثّة وراء مبنى الاستراحة في مكان منعزل، ثمّ أطعموا حنّا من اللحم المشويّ ما لم يذُقْه في حياته (لم يكن اللحم، وبهذه الكمّيّة، في متناول عامّة الناس في ذلك الوقت.) وأشربوه كأساً من العرق وثنّوا له. فارتاح واسترخى وهو يأكل ويسرّح نظره مع الماء الجاري، ويحلم لا أحد يدري بماذا.

وفي هذه الأثناء، بقي فارس مع حنّا، وذهب جرجي عند جميل المنتظِر مع البغل الذي عليه الحمل الشبيه قرب البغل الذي عليه الجثّة، وعمدا فوراً إلى إبدالهما، فصارت الجثّة على بغل جميل والحمل الشبيه على بغل حنّا. ثمّ جاء جرجي وأخبر فارس أمام حنّا أنّه عائد إلى بيروت مع بعض العائدين، وودّعه وانصرف.

وهكذا عاد جميل وجرجي بالجثّة إلى بيروت، وتابع فارس وحنّا بالحمل الشبيه إلى الضيعة، فوصلا عند الغروب إلى المقبرة وقد دارا حول الضيعة دون أن يمرّا فيها، وذلك استجابةً لإلحاح فارس

الذي استطاع بعد جهد أن يُقنع حنّا بعدم جدوى إزعاج الناس، في هذا الوقت الذي يكونون فيه عائدين من حقولهم وأعمالهم الأخرى.

وما إن وصلا إلى حفرة القبر قرب التابوت، حتى طلب فارس من حنّا أن يمسك برسن البغل حتّى لا يتحرّك، وعمد فوراً إلى الحمل الشبيه وأنزله عن ظهر البغل بسرعة متهوّرة، بحيث كاد أن يهوي به ويقع في الحفرة، لكنّه تماسك واستعاد توازنَه واستطاع وضع «الجثّة» في التابوت قبل أن يصل إليه حنّا ليساعده. ثم أَغلق التابوت وأنزله بمساعدة حنّا إلى أسفل الحفرة.

ـ يالله! ارفش التراب! قال فارس.

لكنّ حنّا عند هذه اللحظة احتار واضطرب:

ـ بدون كاهن؟

أيعقل أن تُطمر جثّة ميت بدون أن يصلّي عليها الكاهن؟

احتار حنّا لأنّ هذه الطريقة في الدفن جديدة عليه وقد ضعضعت عاداته. كان حتّى الآن ينصاع لرغبة فارس ابن المدينة والمتعلّم، والذي يعرف كيف يتصرّف الناس في الدول الأخرى المتقدّمة، ولكنّ الصلاة الأخيرة ضرورة ولا يقوم بها إلّا الكاهن:

ـ نطمرها بدون الكاهن! يجب استدعاء الكاهن! كان يردّد حنّا ويصرّ. لأنّ لكلّ شيء حدوداً.

والعادة في الضيعة أن يُصلّي الكاهن على الجثّة عندما توضع في حفرة القبر قبل أن تطمر بالتراب وتتوارى تحت قشرة الأرض إلى الأبد.

بدأ فارس برفش التراب بينما حنّا يتفرّج... لكن إلى حين، إذ راح فجأةً يعوي كالضبع الذي كان يلقّب به أحياناً، وراح يركض نحو الضيعة، وركض فارس في إثره بكلّ قوّته، خوفاً من أن ينادي على الكاهن وعلى أهل الضيعة وتفتضح الحيلة وتتطوّر الأمور بحيث لا يعود في الإمكان التحكّم بها، لكنّه لم يستطع بلوغه إلّا بعد فوات الأوان، وقد تجمّع أهالي الضيعة عليه، وأخبرهم أنّ أم شاهد دُفِنت دون أن يصلّي عليها الكاهن.

كان الوقتُ صار ليلاً، وكان الاعتقاد راسخاً بأنّ الموتى يتربّصون بالأحياء في الليل، ويستطيعون إيذاءهم إذا شاؤوا، لكنّ هذا لم يمنع البعض، وبينهم عدد من قريبات المتوفاة، من الذهاب مع الكاهن إلى المقبرة.

شرح لهم فارس في الطريق ما حدث، وأخبرهم بأنّ الجنازة قد أُقيمت، وأنّه كان في استطاعته أن يدفنها في المدينة، لكنّه فضّل أن يدفنها هنا في تراب ضيعتها، وبين أهلها المتوفّين، وقرب أهلها الأحياء، حتّى تأنس بهم وبأقربائها وأصحابها. فقدّر الجميع إخلاصه لضيعته وامتدحوا وفاءه وأعجبوا بأصالته.

وسبقهم فارس إلى النزول في الحفرة، ونادى على حنّا أن يأتي بالرفش حتّى يزيل التراب عن سطح التابوت ليستطيع فتحه. احتال ليبعد الظنّ، وأوهم ونجح، لأنّ الناس نادراً ما يحبّون رؤية الجثث وبخاصّة في الليل، فقال له الكاهن لا لزوم لذلك، وإنّه يمكنه الصلاة عليها كما هي قبل أن يسوّى قبرها بسطح الأرض.

نجا إذن فارس من هذه التجربة، ودفن الشبيه على أنّه امرأة خاله، وعاد مع الكاهن والجمْع إلى الضيعة وتقبّل التعازي في بيت أحد

الأقرباء، حيث نام. ثمّ نهض مع الفجر وانطلق عائداً إلى بيروت متحرّقاً لمعرفة ما جرى هناك.

هناك، كانت الجثّة لم تصل بعد إلى مشرحة الكلّيّة! وسبب ذلك أن السلطات العثمانية في تلك الأيّام كانت محرَجة جدّاً بسبب تكاثر الأخبار عن اختفاء الجثث في بيروت، وعن علاقة هذا الاختفاء بحاجة طلّاب الطبّ إلى هذه الجثث للتعلّم، ولذلك كانت تعمد من وقت لآخر إلى إقامة حاجز عند الباب الشرقي للجامعة لتطمين الناس. ولسوء حظّ فارس ورفاقه، فإنّ هذا الحاجز قد أقيم في ذلك النهار بالذات، وأصبح من المستحيل على جرجي وجميل إيصال الجثّة. وقد فهمت الإدارة والأساتذة والطلاب، أنّ هذه الحواجز هي نوع من إنذار، ودعوة إلى مزيد من الانتباه والحيطة. كان الجميع يعرف مدى عمق الفساد المنتشر في أوساط الموظّفين العثمانيين في المدينة، وكان الجميع يعرف أنّ لكلّ شيء ثمناً مهما يكن مخالفاً للقانون... ولكنْ لكلّ شيء حدود.

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين وصل فارس منهكاً من التعب إلى البيت في بيروت، حيث كان في انتظاره رفيقاه لا يدريان ما يفعلان بالجثّة، وهي على ظهر البغل المربوط خلف البيت. وقد أخبرا أمّ فارس عندما استغربت الأمر بأنّهما استأجرا البغل لنقل أثاث تابع للكلّيّة.

وكان جرجي في تلك الأثناء قد ذهب عند سعدالدين وتداول معه الأمر وطلب منه النصيحة، لكنّ رتبة سعدالدين لم تكن تسمح له بإعطاء الأمر بإزالة الحاجز.

وكان بال جرجي وجميل مشغولاً على نحو خاص برائحة العفَن التي قد تنبعث من الجثّة إذا ما طال الأمر على هذه الحال، وكان الوقت من السنة نيسان، والنهار طويلاً والشمس حادّة، والناس تخرج ولا تبقى دواخلَ البيوت. وكلّ شيء إذن يثير القلق.

أستاذ التشريح في ذلك الوقت، يوسف يعقوب، كان من روّاد مطعم أبو جرجي زيدان، وكان يحبّ الفول مع ثوم قليل وكثير من الزيت وبصلَة وكثير من الخبز.

(لم تكن فكرة أنّ كثرة الخبز تؤدّي إلى البدانة منتشرة في تلك الأيّام، لأنّ أميركا في ذلك الوقت لم يكن لها هذا الوجود الذي لها اليوم في العالم وفي بيروت، ولم يكن ملايين الناس فيها يعانون من البدانة.)

وكان جرجي يُعدّ لأستاذه الصحن بنفسه، وكان أستاذه منتبهاً إلى ذكائه وقدراته، وكان يحبّ فارس أيضاً ويدعوه دائماً إلى أن يجلس معه إلى الطاولة. وكان يحدّث الإثنين عن الطبّ وعن أمور الكلّية والصعوبات التي تعترضهم في تعليم مادة التشريح بسبب النقص في الجثث.

أستاذ مادّة التشريح كان إذن هو الحلّ، وانطلقوا فوراً إلى بيته دون أن يتسنّى لفارس أن يرتاح ولو لساعة، وكان لذلك يجرجر رجليه من شدّة التعب.

اضطرب الأستاذ يوسف عندما عرضوا عليه الوضع. اضطرب في الحقيقة من فرحه بسبب الضيق الذي كانوا يشعرون به في الجامعة من ندرة ورود الجثث عليهم، واضطرب أيضاً خوفاً من أن ينكشف السرّ، ويجد نفسه في موقف حرج تجاه السلطات

العثمانيّة في المدينة، وتجاه إدارة الجامعة التي تطلب منهم دائماً الالتزام بأقصى درجات الحذر في هذه المسألة، واضطرب أيضاً خوفاً من أن يفتضح أمر تواطئه بين الناس، وهم في أقصى درجات الخوف على موتاهم. هذا الخوف الذي سيتعاظم بعد سنوات قليلة إلى حدّ أنّه سيدفع بالكثيرين منهم إلى أن يضعوا حرّاساً على قبور ذويهم فور دفنهم، ولمدّة كانت تطول إلى أن يطمئنوا إلى أنّ الجثّة بدأت تتحلّل وتبلى وأنّه أصبح من غير المفيد الكشف عنها وسرقتها بهدف تشريحها. وكانت صحافة بيروت المنشأة حديثاً، كـ«لسان الحال» و«ثمرات الفنون»، بدأت تشير أحياناً إلى هذه المسألة.

وبعد قليل من الحيرة قام الأستاذ وخلع ثياب البيت ولبس ثياب العمل الرسميّة، وخرج طالباً منهم أن ينتظروه قليلاً حتّى يعود بعربة تجرّها الخيل، بعد أن يتأكّد من إزالة الحاجز.

وهكذا وصلت الجثّة أخيراً إلى مستقرّها شديدةَ السواد لكن كاملة. ولم يكن الطلاب ولا الأساتذة يسألون عن مصادر الجثث. كانوا يبتهجون بما يصلهم ويشرعون في العمل دون سؤال.

فارس لم يشارك في دروس التشريح تلك، لكنّه أحسّ بأهميته بعد هذه الحادثة. وهذه كانت المرّة الثانية التي يحسّ فيها بأهمّيته وبأنّ له قيمةً ودوراً، وبأنّه قادر على التأثير في الأحداث، وعلى المساهمة في صنع تاريخ مدينته وبلاده.

أمّا المرّة الأولى التي أحسّ فيها بأهمّيته فكانت حين شارك في إزالة أغطية الجهل عن الجسد، وساهم في انتشار الفرح

الذي صار يتميّز به مزاج المدينة رغم أنّ ثمن ذلك كان اختفاء يورما.

كان فارس على علم بقضيّة الدكتور «أدوين لويس»، الذي قدّم الخمر على المائدة، في بيته، لمدعوّيه مطلعَ العام ١٨٨٢، خلافاً لتقاليد المبشّرين الذين كانوا لا يقربون الخمر بتاتاً والذين انتقدوه بشدّة لذلك. لكنّه لم يكن على علم بعمق الخلاف الذي كانت تخفيه هذه القضيّة.

وكان فارس على علم بنظريّة داروِن قبل دخوله الجامعة، لكنّه لم يكن على علم بأنّ لهذه النظرية أهميّة خطيرة. لقد اختلف الأمر في الجامعة، حيث كان لهذه النظريّة دعاة، وعلى رأسهم أستاذه الشاب الدكتور وليم فان دَيك، ابن الدكتور كورنيليوس فان دَيك الشهير، الذي شفى والده في ساعات، والذي كان قسّيساً وعالماً ومدرّساً يعلّم الطبّ بالعربيّة التي كان يجيدها كأهلها، وكان كريم النفس كريم الخلق واسع الصدر، مؤمناً بالمساواة بين الناس من مختلف الأعراق والثقافات والأديان، وكان تلاميذه يحبّونه ويتغنّون بمناقبه ولطفه، وذاعت شهرته في جميع أنحاء سورية التي كان يكنّ لأهلها مودّة صادقة، حتّى أنّ عامّة الناس كانوا يعتقدون أنّه هو الذي أسّس الجامعة وكليّة الطبّ فيها، وكان الكثيرون منهم يسمّونها باسمه: «كليّة فان دَيك»!

وليم فان دَيك، ابن كورنيليوس، كان يتكلّم العربيّة كأنّه واحد من أهل بيروت، وتخرّج طبيباً من أميركا وعُيّن مدرّساً في كليّة الطبّ في العام ١٨٨٠ وهو العام الذي دخل فيه فارس إلى الجامعة.

وكان وليم، هذا الطبيبُ والباحثُ والأستاذ الشابّ، منصرفاً إلى البحث ومولعاً بشكل خاص بنظريّة تشارلز داروين الجديدة القائلة بنشوء الأجناس وارتقائها. وكان يستحصل على كلّ ما نشره داروين من كتب ومقالات، ويقرؤها بتأنٍّ، ويدفعها إلى تلاميذه ليقرؤوها ثم يناقشهم ما جاء فيها. وظلّت هذه النظريّة حديث الطلّاب ليس في قسم الطبّ فقط بل في الميادين التي كانت تدرّسها الجامعة كلها، بل انتقل النقاش إلى مختلف الدوائر المثقّفة والمتعلّمة في بيروت وسورية كلّها، وإلى الدوائر الجامعيّة والصحافيّة المتخصّصة في القاهرة أيضاً.

وبلغ صدى هذا النقاش عامّة الناس، ولهجوا به كثيراً، بحيث صارت هذه النظرية كما وصلت إليهم أصداؤُها مصدرَ العشرات من النكات، وتحوّلت هذه النكات إلى أدوات تعبّر أحياناً عمّا تكنّه الطوائف لبعضها: فالسنّي كان جدّه جملاً (لأنّ الإسلام جاء من الصحراء) والماروني كان جدّه معزاةً (لأنّ الموارنة يسكنون الجبال) والشيعي كان جدّه بقرة (لأنّ البقرة حيوان حزين) والدرزي ثوراً (لعزمه) والأرثوذكسي حصاناً (لنظافته) والبروتستانتي هرّاً (لشبه بينهما في العين) وما إلى ذلك.

وكان الدكتور وليم فان دَيك، وبسبب متابعته تطوّر البحث في الجامعات الأوروبّية والأميركيّة، يُشعر طلّابه بأنّهم في قلب الحدث ومن صنّاعه، فيتحمّسون لوطنهم ومدينتهم وجامعتهم، بحيث إنّ فارس الذي يعرف حُبّ والده للعلم وللوطن، كتب له أن يجمع ماله وحوائجه، وأن يعود إلى بيروت، ليكون شاهداً على تحوّلها إلى منبر للعلم ومنارة ثقافية تضاهي القاهرة، وغداً تجاور باريس!

وكانت هذه الأمور تستغرق فارس بحيث إنّه كان ينسى أن يتكلّم

في رسائله تلك إلى والده عن مرض والدته التي بدأت تعاني من صعوبة في التنفّس وضيق في الصدر ووجع في الرأس.

وكان فارس يُطلع والده على تطوّرات الأمور أوّلاً بأوّل في رسائل مطّردة، وأخبره في إحدى هذه الرسائل أولَ العام ١٨٨٢ أنّ أستاذهم الدكتور وليم فان دَيك على تواصل مع العالم الإنكليزيّ الشهير تشارلز داروِن ذاته. وكان فارس صادقاً في هذا القول، لأنّ الدكتور وليم المغرم بداروِن أراد يوماً أن يؤكّد (ويتأكّد) من نظريّة داروِن فأجرى دراسة معمّقة وشاملة على «التغيّر الذي طرأ على كلاب سورية بحسب ناموس الانتخاب التناسلي» ثمّ صاغ هذه الدراسة في مقالة وأرسلها إلى داروِن بالذات، طالباً منه نشرها في مجلّة أو جريدة إذا رأى ذلك مناسباً، لكنّ داروِن كان مريضاً يومَ وصلته الرسالة وعاجزاً عن الكتابة، فطلب من أحد أولاده أن يردّ على المرسِل وأن يشكره باسمه.

ثمّ إنّ داروِن لمّا تعافى قرأ الدراسة وأعجبته، وكتب بذلك إلى الدكتور وليم، وأخبره بأنّه بعد التفكير الطويل رأى أن يرسلها إلى جمعية علماء الحيوان، وأن يرجوهم نشرها بين أعمالهم. وأعلمه في الوقت نفسه أنّه «تجرّأ» وقدّم للمقالة بملاحظات رآها مناسبة. وأخبره أيضاً بأنّه إذا امتنعت الجمعيّة عن نشرها فسيرسلها إلى مجلّة «نايتشر» ـ أهم المجلّات العلميّة ـ لأنّه متحمّس لها.

طبعاً كان الدكتور وليم يخبر طلّابه بهذه المراسلات ويطلعهم على الرسائل، وكان الطلاب جميعاً وبخاصّة منهم فارس لا يصدّقون ما كانوا يسمعون ويرون. وكان الجميع ينتظرون بحماسة شديدة اليومَ الذي سيبلغهم فيه خبر نشر مقالة أستاذهم، وكانوا لا يتردّدون في أن يسألوا الأستاذ عمّا استجدّ في أمر

نشرها كلّما رأوه، رغم أنّ أستاذهم كان دائماً يقول لهم إنّ نشر مقالة في مجلّة أو جريدة يتطلّب وقتاً طويلاً قد يمتدّ إلى أشهر أو أكثر.

عندما أطلع الأستاذُ تلاميذه على رسالة داروِن إليه بخطّ يده، اضطربوا جميعاً، واستأذن فارس أستاذه على الفور بأن يسمح له بنسخها، فسمح له، ونسخها فارس عدّة مرّات وأرسل واحدة من هذه النسخ إلى والده ليريه «أين وصلت بلادنا في سيرها على طريق التقدّم والرقيّ!» وكان جواب والده إليه مزيداً من التشجيع على العلم والاجتهاد، ليكون مفيداً لوطنه، وليساهم ما استطاع في النهضة القوميّة الشاملة التي يجب أن يشارك فيها الجميع، شيباً وشباباً، نساء ورجالاً، كلّ في عمله: الفلّاح في حقله، والعامل في معمله، والمدرّس في مدرسته.

وإذا كان المرسلون البروتستانت الأميركيّون ــ الأوائل خصوصاً ــ الذين وطئت أقدامهم رمل الشاطئ السوري، يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأنّ الدنيا «تؤلّف ولا تؤلّفان»، وبأنّ نهاية الزمان اقتربت باقتراب العام ألفين، وبأنّ تنصير مسيحيي الشرق ومسلميه حسب المذهب البروتستانتي بات أمراً ملحّاً لخلاص أنفسهم، فإنّ الطلائع المثقّفة في بيروت، ومعهم الطلائع في العواصم السوريّة الأخرى، وطلائع مثقفي القاهرة، كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأنّ التأخّر «يؤلّف ولا يؤلّفان»، وبأنّه بالتأكيد لن يدوم حتّى العام ألفين، وكانوا موقنين بأنّ المستقبل الزاهر قريب، وبأنّ الشمس لن تتأخّر لتنير الظلمات، وبأنّ الفجر الجديد سينبثق من عتمة الجهل المطبق والتعصّب البغيض، وأن المعرفة ستنتصر على الأساطير والخرافات، وأن الدين لله والوطن للجميع، وأنّ الأديان والمذاهب

المختلفة ستأتلف في وئام وسلام تحت راية الوطن الواحد الجامع، وأنّ الأمّة ستستمرّ في الرقيّ حتّى تبلغ قريباً رَكب الحضارة، على قدم المساواة مع أوروبّا الجارة القريبة.

لكنّ المؤسف في ما يخصّ نشر المقالة، هو أنّ داروِن الذي كتب رسالته إلى وليم فان دَيك في ٣ نيسان سنة ١٨٨٢ توفّي في التاسع عشر منه أي بعد ستة عشر يوماً فقط. وكان يومُ وصول الخبر يومَ حزن شديد عند فان دَيك وطلّابه. لقد خسروا ملهِماً، تحتاج إليه البشريّة جمعاء، وخسروا حليفاً، بل خسروا واحداً منهم وطنيّاً، بلديّاً، سوريّاً مشرقيّاً.

لكنّهم تعاهدوا، رغم الموت الذي قطع الاتصال بينهم وبينه، على أن يبقوا على صلة دائمة معه، وذلك بقراءة كتبه ومقالاته ومناقشتها والتعمّق فيها والعمل والدرس بروحيّتها، وساعدهم في هذا موقف أستاذهم بالذات الذي بقي على اتصال روحي لم ينقطع معه.

واستطاع فارس بعد جهد أن يحصل على رسم لداروِن، وأن يعلّقه قرب الرسالة الأخيرة التي وجّهها إلى أستاذهم على الحائط فوق فراشه.

وبعد ثلاثة أشهر فقط على وفاة داروِن، حدث زلزال آخر قوّض ركائز أحلام الطلّاب جميعاً، وأضعف ثقتهم بالمبشّرين، واستتبع أوّل إضراب طلّابي في الشرق، بل في آسيا وأفريقيا معاً.

في التاسع عشر من نيسان عام ١٨٨٢ مات داروِن، وبعد ثلاثة أشهر فقط، أي في التاسع عشر من تموز، وعند الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ـ الأربعاء ـ أقيمت حفلة تخريج دفعة من

طلّاب الكلّية في الطبّ والصيدلة والعلوم، وألقى الدكتور أدوين لويس الخطابَ الرئيسي بتكليف من الإدارة، وفجّر هذا الخطابُ بالذات الأزمةَ التي عُرفت في ما بعد بأزمة دارون.

ركّز لويس في خطابه الوداعي إلى الطلّاب على عدّة أشياء، ودعاهم بشكل خاصّ إلى التمييز بين المعرفة والعلم، إذ إنّ مجرّد المعرفة ليس العلم، والمعرفة هي دون العلم، لأنّها تحصل بالانتباه إلى الظواهر فقط بينما العلم يكشف الأسباب الكامنة وراء هذه الظواهر ويكشف العلاقات القائمة بينها.

وأعطى الدكتور لويس في خطابه هذا مَثلَيْن على ما تقدّم به، أمّا المثل الأوّل الذي لم يكن له مستتبعات ولم يُثِر أي ردود فكان كتاب «مبادئ الجيولوجيا» الذي صدر في العام ١٨٣٣ لعالم الجيولوجيا الإنكليزي السر «تشارلز لَيَل». أمّا المثل الثاني الذي فجّر الأزمة فكان كتاب «أصل الأنواع» للعالم الطبيعي تشارلز دارون الذي صدر العام ١٨٥٩ والذي بيّن فيه الأسباب التي أدّت مع توالي الأجيال إلى هذا التباين العظيم والتشكّل العجيب الذي نشاهده اليوم بين الحيوانات والنباتات. وقد انتقد لويس في خطابه من يقول بأنّ هذا المذهب ضدّ الدين، لأنّ الله هو الباعث على مجريات الأشياء منذ البداية. ثمّ دعا الطلّاب إلى عدم الخوف من الحقائق، وقال لهم إنّ الذين يحاولون فتح مغاليق الطبيعة طلباً للحقّ الذي فيها لا يخالفون الحقّ!

لم يُفاجأ فارس بهذا الكلام الذي جاء في الخطاب، لأنّه يعرفه، وقد سمع بهذه النظرية قبل أن يلتحق بالجامعة، وتمعّن فيها طوال سنتين كاملتين في الجامعة كانت أثناءهما هي الحديث الغالب بين مختلف الطلّاب.

وكان ما سمعه من الدكتور لويس أقلّ بكثير ممّا كان يسمعه من أستاذه الدكتور وليم فان دَيك.

لكنّ المفاجأة عنده كانت ردّ فعل الإدارة، وردّ فعل الأساتذة المحافظين الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها. وبلغ مسمعه ومسامع رفاقه أنّ رئيس الجامعة الدكتور دانيال بلس، أسرّ لبعض الأساتذة أنّ ما جاء في خطاب الدكتور لويس كان رفضاً لما جاء في الكتب المقدّسة عن خَلق العالم، وأنّه كان تسليماً بنظريّة دارون دون التحقّق علميّاً من صحّتها.

الخمر إذن على مائدة الدكتور لويس، وبعدها بعدّة أشهر فقط تأييده العلني في مناسبة رسميّة لنظريّة دارون في أصل الأنواع، فجّرا خلافاً مكبوتاً بين المحافظين والليبراليين من المرسلين والأساتذة الأجانب.

وهكذا بدأت الأزمة واستمرّت تتفاعل، حتّى أُجبر الدكتور لويس على تقديم استقالته ووضْعِها بين يدي مجلس الأمناء في نيويورك، الذي اجتمع واتخذ قراراً بقبولها في الأوّل من كانون الأوّل سنة ١٨٨٢، وفي اليوم التالي وردت برقيّة من المجتمعين إلى بيروت تقول بقبول الاستقالة وبوجوب التنفيذ فوراً.

وكان لاستقالة الدكتور لويس تأثير عميق وصاعق على الطلّاب، فأعلنوا الإضراب المفتوح فوراً حتّى إعادته، وانتهزوا المناسبة لتحقيق مطالب أخرى تعني مصيرهم ومنها لغة الامتحان، إذ كان على الطلاب في نهاية السنة الأخيرة من دراستهم أن يقدّموا امتحاناً أمام لجنة خاصّة في اسطنبول، وكان هذا الامتحان يُجرى في السابق باللغة العربية ثمّ قرّرت السلطات العثمانية إجراءه

بالتركية أو بالفرنسية، وكان يومَها طلاب الكليّة يتعلّمون الطبّ باللغة العربيّة، ولا يجيدون التركيّة بالضرورة ولا الفرنسيّة، فوجدوا أنفسهم لذلك في مأزق خطير يهدّد مستقبلهم. ثم إنّ الكليّة كانت تجري امتحاناً لتمنح الطلاب الشهادة التي تخوّلهم التقدّم إلى الامتحان في اسطنبول، فأراد الطلّاب إلغاء الامتحان الأوّل بما أنّه كان لا بدّ من إجراء الامتحان الثاني.

ثمّ إنّ الامتحان في اسطنبول كان يشتمل على مواد لا يتضمّنها منهاج التدريس في الكلية، فأراد الطلاب تلافي هذا النقص بتدريسهم هذه المواد.

لكنّ هذه المطالب رغم أهمّيتها لم تؤدِّ إلى الأزمة، لأنّ الإدارة كانت متعاطفةً مع الطلّاب بخصوصها، وكانت تسعى معهم لتحقيقها. أمّا الأزمة التي أدّت بالفعل إلى إعلان الإضراب، والتي بدونها لم يكن الإضراب ليُعلن، فهي إقالة الدكتور لويس من منصبه في الكليّة. فقد خالف الطلاب موقف الإدارة، ورفضوا إقالته، وبرّروا رفضهم هذا بسببين هما: أوّلاً أنّ صرفه في منتصف السنة الدراسية يحرمهم من أستاذ كفوء ومخلص، ليس من السهل إيجاد بديل بكفاءته لتعليم الكيمياء، وثانياً، إنّ الطريقة التي صُرف بها أستاذهم الذي يحبّونه ويحترمونه كانت غير لائقة به وبقيمته وبمنزلته الرفيعة عندهم. كانت طريقة مذلّة لا يمكن قبولها.

إنّ ليبرالية أستاذهم والخدمات التي كان في نظرهم يؤدّيها إلى وطنهم، كانت في الحقيقة الحافزَ الأساس لتحرّكهم هذا. وقد ورد في إحدى العرائض التي قدّموها إلى إدارة الكلّيّة انتقاد لها لأنّها لم تأخذ بعين الاعتبار الخدمات التي قدّمها هذا الأستاذ المحترم إلى «بلادنا!».

كانت الليبراليّة والوطنيّة والتقدّم صفات متلازمة عند هذا الجيل من المتعلّمين والمثقّفين السوريين، والعرب عامّة.

ووقف الطلّاب صراحةً، وبكلّ طوائفهم إلى جانب الليبراليين، ضدّ إدارة الكليّة التي واجهتهم بحزم لا يوصف. وحميت المعركة بين الطرفين، وجرى أخذ وردّ كثير، ورسالة ورسالة مضادّة، وإنذار ورفض للإنذار، وما إلى ذلك.

وكان فارس بكلّ عواطفه مع الحركة الطلّابية التي كانت عنده كما عند بقيّة الطلّاب حركة وطنيّة ونهضويّة. لكنّ تفاقم مرض والدته منعه من أن يتسلّم مسؤوليّات فيها، ومنعه من أن يكون في واجهة المناضلين من أجل تحقيق المطالب المحقّة.

فحين ظهرت عوارض المرض على أمّ فارس، كان فارس مشغولاً بنظريّة داروِن، وبالمراسلات التي كانت تجري بين داروِن وأستاذه الدكتور وليم فان دَيك، والتي كان هو ينظر إليها على أنها مراسلات بينه شخصيّاً وبين داروِن. استغرقته هذه المراسلات وشغلته عن الاهتمام بوالدته. بل أنساه خبرُ وفاة داروِن في التاسع عشر من نيسان أمر أمّه بالكامل. بكى عندما جاءه خبر الوفاة، وبكى معه رفاقه في الجامعة الذين كانوا جميعاً داروِنيين.

وبكى معه صديقه في شرطة بيروت العثمانية سعدالدين الجباوي حين أخبره فارس بذلك.

كان داروِن، بدون أن يدري، حليفَ الطليعة الوطنيّة المتعلِّمة والمثقّفة في بيروت أثناء حياته وبعدها. وحين توفّي أقام له الطلّاب احتفالاً تأبينيّاً في مطعم والد جرجي زيدان. وكانت وفاته مناسبة لاجتماعات عديدة نوقشت فيها مآثره، وجرى التركيز فيها

على دور نظريّته في وعي الجنس البشريّ لذاته وللتاريخ، وكان يحضر لقاءاتهم أستاذهم الدكتور وليم فان دَيك، وأستاذهم لويس الذي كان يطلب منهم أن يُبقوا حضوره سرّاً لأسباب عمليّة بحتة - حتّى لا تزداد علاقاته بالإدارة توتّراً، بعدما رشح من تأييده لنظرية داروِن وبعد حادثة تقديمه الخمر على طاولته.

وكان الشرطي سعدالدين الجِباوي الذي ترقّى إلى مرتبة ضابط يحضر الكثير من هذه الاجتماعات، وكان يؤمّن لها الحماية.

وبما أنّ نظريّة داروِن كانت هي سبب استقالة الدكتور لويس، ولأنّ هذه الاستقالة كانت هي الدافع الفعلي والمباشر إلى الإضراب، لا المسائل الأخرى التي كانت توافقهم عليها الإدارة، لذلك ازداد اطلاعهم عليها وازداد تعمّقهم فيها، وكانوا في كلّ اجتماع يعقدونه لهذا الغرض يستعرضون ما قرؤوه وما جمعوه من معلومات في المجلّات الأوروبية والأميركية التي كانوا يحصلون عليها بطريقة أو بأخرى. وكانوا كلّما تناقشوا وتعمّقوا في هذه النظرية ازدادوا اقتناعاً بها وازدادوا اقتناعاً بالإضراب الذي أعلنوه.

وفي أحد الاجتماعات تساءل فارس ورفاقه عمّا إذا كان داروِن قَبِلَ بأن يقدّم جثّته للتشريح في إحدى كليّات الطبّ في لندن، لو طُلب منه ذلك! ودار نقاش طويل في هذه المسألة اشتركوا فيه جميعاً دون أن يصلوا إلى نتيجة واحدة واضحة. وكان رأي أستاذهم وليم فان دَيك أنّه أيّاً كان جواب داروِن، فلن يؤثّر سلباً أو إيجاباً على أهميّة نظريّته في فهم تطوّر الأنواع الحيّة والنباتات واختلاف هذه الأنواع.

وبعد انتهاء ذلك الاجتماع، عاد فارس إلى البيت ليطمئنّ إلى حالة

والدته الصحّيّة، ففوجئ بخطورة وضعها، وأحسّ كأنّه صُفِع، هو الذي سيصبح بعد سنتين فقط طبيباً متخرّجاً من جامعة أميركيّة هي الثانية في القدم، في كلّ العالم العربي، بعد جامعة قصر العيني في القاهرة.

فانتحى زاويةً في البيت مدّعياً أنّه يُعدّ دواءً وبكى وحده في العتمة.

كان قلبها على وشك أن يتوقّف عن العمل، وكانت رئتاها ممتلئتين ماءً بسبب قصور في القلب، فعرف أنّها ستدخل في الغيبوبة بعد قليل، بعد ساعات، أو أيّام قليلة على الأكثر.

بكى ندماً ومن شعور بالذنب. ألا يدرس الطبَّ ليشفي إنسان بلاده وليخفّف من آلامه؟ فكيف غفل عن واجبه تجاه والدته؟

لكنّ ما خفّف من إحساسه بالندم ومن شعوره بالذنب، هو أنّ إخوته الذين كانوا يأتون لعنده من وقت لآخر، كانوا يطمْئنونه إلى صحّتها، حتّى لا ينشغل باله ويتأخّر في الدراسة، لأنّهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر تخرّجه طبيباً، في مدينة، بل في بلاد، تخلو من الأطباء. وكأنّ إخوته كانوا يظنّون أنّ مجرّد تخصّص أخيهم في الطبّ ضمانة لوالدتهم ولهم ضد المرض والموت.

بكى إذن، لكنّه لم يستسلم للبكاء، بل عمد فوراً إلى المبادرة، على طريقة هؤلاء الغربيين الذين يعلّمونه والذين لا يعمدون إلى البكاء والنواح أمام المصائب، وذهب إلى الكليّة وطلب نجدة من يستطيع نجدتَه من الأساتذة الأطباء لأنّ علمه وخبرته لا يسمحان له بمعالجة هذه الحالة، فلبّى نداءَه فوراً أستاذُه الدكتور وليم فان دَيك. وفي الطريق وهما في العربة شرح له الحالة وأخبره بحكمه

عليها، وكان حكمه كحكم أستاذه بالذات بعد الفحص، فسُرّ وأحسّ بالثقة بنفسه، ثم عاد إلى حزنه فوراً، إذ انتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق بوالدته.

كان ذلك في آخر الليل، وكان الاثنان يتداولان الأمر في الخارج أمام الباب، وكان فارس يشعر بانزعاج شديد، لأنّه منذ ساعات فقط كان حاضراً هو والدكتور وليم فان دَيك في الاجتماع الذي كان موضوعه داروِن ونظريته، وشارك هو نفسُه في التساؤل عمّا كان فعله داروِن لو طُلب منه تقديم جثّته للتشريح، من أجل خدمة العلم والمعرفة والجامعة والطلاب، ومن أجل خدمة الوطن... وفي الجامعة نقص في الجثث، والامتحان الأخير ـ الدينونة! كما كان يسمّيه الطلّاب ـ سيكون في العاصمة اسطنبول. وكان رأيُ فارس أنّه لو كان شخصيّاً مكان داروِن وطُلب منه ذلك خدمةً للطلاب والجامعة والوطن لكان قَبِل بلا شكّ. وقد صرّح بذلك علناً أمام الجميع، وتوسّع في تعليل رأيه محاوِلاً إقناع من لم يقتنع.

كان فارس منزعجاً إلى أقصى حدّ إذن وهو يتحادث قدّام الباب مع وليم فان دَيك. فهل يبلغ به حبّه للوطن واندفاعه لخدمة الجامعة، أن يقدّم جثّة والدته للتشريح؟ فكيف سيتمكّن إذا ما تلاشت جثّتها من زيارة قبرها ليبكيها، وليضع باقة من الزهر عليه؟ أليست المقابر المرميّة على أطراف القرى والمدن، هي الشروش التي تستمدّ منها الحياة هذه القرى وهذه المدن؟ أليس موتانا هم شروش قرانا ومدننا؟ أليس العبث بالموت هو عبث بالحياة بالذات؟

ألا يكفي أنّه قدّم جثّة عمّته للتشريح؟

كانت لحظة حرَج بالنسبة إلى الاثنين، لأنّ وليم فان دَيك كان في الاجتماع أيضاً ويذكر بالتأكيد ما دار فيه وما قاله فارس بالذات، لكنّ أحداً من الاثنين لم يصرّح بما كان يفكّر فيه، وكان حوار صامت وعنيف يدور بينهما وداخلَ كلّ واحد منهما. وأحسّ فارس صراحةً بالمأزق. فهل يبادر إلى نقل الحوار إلى العلن؟

لكنّه قرر أن يُعطي لنفسه مهلةً حتّى لا يكون قراره متسرّعاً فيندم. وهو لا يريد اتخاذ قرار في موضوع خطير كهذا، قبل الاستئناس برأي صديقه جرجي. وكان جرجي مشغولاً جدّاً بالإضراب، وكان فاعلاً وأساسياً فيه، وقد انتُخب رئيساً للهيئة الإداريّة التي أُلّفت من عشرة أعضاء وكُلّفت بإدارة الإضراب، في الجمعيّة العموميّة الأولى التي عقدها الطلاب في «المستشفى البروسي» حيث كانوا يتدرّبون.

أمضى فارس نهار اليوم التالي مع والدته. وفي المساء ذهب إلى الجامعة ليخبر جرجي بالأمر وليتشاور معه، ولم يكن في جناح المنامة في الجامعة أحد من الطلّاب ليسأل عنه، ثمّ استطاع أخيراً أن يستدلّ على مكان وجوده في محلّ والد صديقه سعدالدين الجِباوي، حيث كان المضربون يعقدون اجتماعاً سرّياً يتداولون فيه التطورات، وكان سعدالدين يستضيفهم في محلّ والده ليحميهم من «العيون» التي كانت تراقبهم، ومن «العين المحمرّة» عليهم من بعض رجال الدين المسلمين والمسيحيين المحافظين، لأنّ خبر علاقة الطلّاب بالفكر الداروني كان بدأ يبلغ مسامعهم ويشغل بالهم. وكان سعدالدين بحكم موقعه مطّلعاً على هذه المجريات.

سعدالدين لم يكن يشعر بأنّه معنيّ مباشرة بهذه النظرية الداروتية من حيث جانبها الأكاديمي، لكنّه كان مندهشاً بها وقد فتّحت

شرايين مخيّلته وأحبّ جدّتها، وهو بطبعه يحبّ الهواء النقيّ أن يتغلغل في كل دماغ وفي كلّ زقاق من أزقّة بيروت التي كان فخوراً بها ويحلم بأن تصير لؤلؤة المتوسّط. وكان يعمل ما في وسعه لنجاح الإضراب، وكان سنداً للمضربين في غاية الأهمّية بحكم وظيفته ومعرفته بأوضاع المدينة. لقد أصرّ عليهم مثلاً ألّا يأخذوا باقتراح أحد زملائهم بتشكيل لجان محلّيّة مختلطة من جميع الطوائف، لدعم الإضراب، والضغط على الإدارة، ولبثّ الوعي العلمي بين العامّة في الوقت نفسه. أقنعهم بأنّ ذلك سيثير ريبة السلطات العثمانيّة العليا في بيروت، وسيدفعها إلى الوقوف ضدّهم، ثمّ إنّ مستوى وعي الأهالي لا يسمح بعدُ بتأليف لجان مساندة من هذا النوع. ثمّ إنّه دعاهم أيضاً إلى عدم الاستخفاف بالدولة الأميركيّة التي تنتمي إليها إدارة الجامعة، وكان الطلّاب يعرفون من هي هذه الدولة، وكانوا يعرفون أنّه بات لها بواخر عسكريّة على الشواطئ الشرقيّة للمتوسّط. وكان الجميع على علم بالإنذار الذي وجّهه قائد إحدى هذه البواخر إلى السلطات العثمانيّة في حمص حين أمرت بمنع مرسَل أميركيّ من فتح مدرسةٍ في قرية قريبة من الشاطئ. وكان هذا المنع بناءً على طلب من السلطات الدينيّة المسيحيّة والمسلمة. أنذر في رسالته البرقيّة أنّه سيضرب المدينة إن لم تتراجع السلطات عن قرارها، وقد تراجعت. ولم تتناول الصحف وقتذاك هذا الخبر لأنّها كانت تتحاشى نشر هذا النوع من الأخبار والتعليق عليه، وذلك للابتعاد عن كلّ ما يسبّب لها المشاكل مع السلطات العليا. لكنّ الخبر انتشر في الأوساط الأميركيّة في بيروت، وانتشر في مناطق السلطنة كلها حيث كان يوجد أميركيّون لسبب أو لآخر.

إنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة، كموقف رسمي، ستساند الإدارة

لو أنّ تطوّر الأحداث استدعى ذلك، ولن تساعد أساتذة ليبراليّين يحبّون البلاد التي يعيشون فيها، ويحبّون تلاميذهم، ولن تساعد طلّاباً عصَوا إدارةً من أميركيين تركوا وطنهم ـ أميركا! ليقيموا في بلاد تبعد عنه ألوف الكيلومترات، من أجل تمدين أهلها المساكين الذين يفترسهم الجهل والمرض والأوهام. هذا كان رأي سعدالدين، الذي لم يحتج إلى جهد كبير لإقناع الطلّاب به، لأنّهم كانوا لا يجهلون ذلك، فقرّروا عدم المخاطرة في تدويل المسألة، حتّى لا يسمحوا للسلطات العليا في اسطنبول بالتدخّل، ولا للدولة الأميركيّة كذلك، خاصّةً وأنّ أحد الطلّاب المتحمّسين اقترح اغتيال الدكتور بلِس، رئيس الجامعة يومذاك، وأعلن استعداده للقيام بهذه المهمّة بنفسه.

كان الاجتماع صاخباً، وكان فارس يتمزّق بين الرغبة في المشاركة الكاملة، وبين الاهتمام بوالدته التي كانت تنازع. كان يريد أن يشارك في صناعة هذه اللحظة التاريخيّة التي ستشكّل نقطة تحوّل في تاريخ سورية، وخطوةً جبّارةً نحو المستقبل المرجوّ للوطن. وكان عليه في الوقت نفسه أن يكون إلى جانب والدته التي كرّست حياتها من أجله ومن أجل إخوته، والتي لم توفّر جهداً ولا وسيلةً من أجل أن يُكمل دروسه. ألم تبع كلّ رزقهم؟ ألم تعمل في البيوت؟ ألم تشجّعه بصَمْتها على ترك العمل في تقصيب الحجارة مع أعمامه؟

جرجي كان يترأس الاجتماع، لذلك لم يستطع فارس التكلّم معه، واضطرّ إلى الانتظار.

وكان فارس مضطَرباً وهما عائدان إلى منزليهما المجاوِرَيْن. وأخبره في الطريق بأنّ حال الوالدة إلى موت وشيك.

صمتَ جرجي!

وكان فارس يتوقّع منه الصمت، لأنّ الكلام ليس سهلاً في مسألة كهذه، وبخاصّة أنّه يعرف مسبقاً إلى ما سينتهي بهما، فقبل أيّام فقط من أزمة دارون، كانت الكلّيّة بحاجة إلى هيكل عظميّ كامل وكان الطلّاب يشترون ما استطاعوا الحصول عليه من العظام البشريّة المتفرّقة دون أن يتمكّنوا من الحصول على هيكل عظميّ كامل، وكانوا يشترون هذه العظام بأثمان باهظة، أو يسرقونها ما استطاعوا من المقابر سرّاً، في الليالي خاصّة.

في تلك الفترة إذن راح فارس وجرجي يتحيّنان الفرص، يساعدهما في ذلك سعدالدين الجباوي، فيذهبون إلى الكنائس والجوامع في كلّ أحياء بيروت ليطّلعوا على الوفيات. إلى أن جاءهم سعدالدين يوماً بالخبر الجميل، إذ توفّيت إحدى قريباته البالغة ستة عشر عاماً من العمر ودفنت في منطقة الرمل جنوب المدينة، ففرحا بالخبر وذهبا معه إلى القبر عند غياب الشمس، ليستدلّا على مكانه بالتحديد. ثم قصدوا صديقهم الطالب أمين فليحان، الذي كان في السنة الثالثة والذي كان شديد الحماسة للجامعة ودورها الوطني، واتفقوا على خطّة.

وفي ساعة متأخّرة من الليل، ذهب الثلاثة معاً في العربة التي استأجروها إلى المقبرة ــ لم يشأ سعدالدين مشاركتهم بيده في نبش جثّة قريبته ــ وقصدوا القبر الذي تعيّنوه عند المغيب، ونبشوه بالمعاول والرفوش التي كانت في حوزتهم، لكنّهم لم يجدوا إلّا عظاماً قديمة.

أخطأوه.

وكانوا خائفين جدّاً، لا من الموتى وحسب، بل من أن يكتشفهم أحد.

وكان نبش القبور في هذا الليل بينما صوت موج البحر يطغى على وشوشات أصواتهم، أمراً مهيباً ومخيفاً.

لم يكونوا يؤمنون بوجود الأشباح، لكنّ الأشباح في لحظات كهذه تخيف حتّى وإن لم تكن موجودة.

كانوا يطمرون قبر الفتاة، بعدما عثروا عليه ونبشوه وأخرجوا الجثة منه ووضعوها في كيس، عندما ظهر عليهم شبح فجأة!

والحقيقة أنّه لم يكن شبحاً، بل حارس المقبرة. ولم يكن في يده سلاح ناري بل عصا. تقدّم قليلاً ليتبيّن ما يجري ثم توقّف فجأةً وترك العصا وانطلق هارباً حين صرخ جرجي من الخوف صرخةً مزّقت حنجرته، ثم إنّ فارس وأمين تجمّدا في مكانهما ولم يصدرا صوتاً وكأنّ صوتيهما قد سُحبا منهما.

ثمّ استطاعوا الخروج من المأزق بحِملهم.

خافوا كثيراً ومع ذلك لم تهنْ عزيمتهم، وظلّوا يتحيّنون الفرص للحصول على جثث أخرى.

ـ سعدالدين الجباوي، الضابط في شرطة بيروت، لم يبخل بجثّة قريبته الفتاة الصبيّة العذراء، فكيف نبخل نحن الطلاب المعنيين مباشرة بالأمر بجثث أقربائنا؟

لكنّها الآن والدته.

فكيف يتعلّم التشريح بوالدته! إنّ هذه ممارسة لا إنسانيّة. لكنّ جرجي زيدان أشار عليه بأَن يؤجّل دراسة مادّة التشريح عدّة أشهر، وذلك بالاتفاق مع الأساتذة والإدارة، أو بعض الإدارة، إذا قرّر أن يمنح الكلّية جثّة والدته.

أحسّ فارس بأن جرجي كان قاسياً عليه بهذا الرأي، لكنّه لم يصرّح له بذلك، لأنّه يعرف أن جرجي فكّر ببرودة وزانَ الأمور بعقلانية، وليس له من همّ سوى مستقبلهم ومستقبل الكلّيّة والبلاد، لا القسوة عليه. وكانت هذه الميزة، أي التفكير ببرودة ووزن الأمور بعقلانية، مما يكتسبه الطلّاب من أساتذتهم الأجانب، لأنهم كانوا يرون فيها حسنةً حضاريّة من المفيد اكتسابها لبناء شخصيّة على الطريقة الحديثة. من أجل الوطن.

لكنّها والدته.

وقد أعطى استمرارُ الإضراب فارس مزيداً من الوقت ليتنفّس بعمق وليفكّر بهدوء.

ثمّ إنّ إخلاصه لمبادئه، ولاقتناعه بضرورة أن يقدّم الإنسان أغلى ما يملك من أجل وطنه، غلب أخيراً شعوره الموروث باحترام الموتى. وقد أوصله التفكير الطويل في هذا الموضوع إلى أنّ احترام الموتى يجب ألّا يتناقض مع مصلحة الوطن.

احترام الموتى واجب سامٍ، لكنّ مصلحة الوطن واجب أسمى.

فإذا كان الإنسان على استعداد لتقديم حياته ضحيّةً على مذبح

الوطن، فكيف يبخل بجثّة والدته؟ أوَلم يُعطِ جرجي زيدان المثل؟ ألم تكن جثّة الصبيّ التي جيء بها العام الماضي لابن أحد أقربائه؟ ألم يتجاهل الموضوع حين عاد يوم السبت من الجامعة إلى البيت وأخبرته والدته أنّ جثة صبيّ من أقربائهم في التاسعة من عمره قد سرقت من قبرها بعد ساعات من الدفن؟ ألم يدلّ الرفاق هو بنفسه على القبر؟ أليس هكذا تُعبَّدُ طريقُ الأوطان إلى المستقبل؟

من المنطقي إذن أن يقبل فارس بتقديم جثّة والدته إلى الكليّة، فالزمن يخطو مسرعاً، ومستقبل الأجيال على المحكّ، والوطن ينادي. لكنّ فارس الذي أجرى هذا التحليل في سرّه لم يصرّح به إلى أحد، معطياً لنفسه هكذا فرصةَ أن يفعل الوقتُ فعلَه.

ثمّ إنّه تحرّر أخيراً من هذا المأزق، وذلك بأن توفّيت والدته وكان الإضراب ما زال مستمرّاً، والأزمة مستعصية.

توفّيت أمّ فارس في ١٦ كانون الأوّل عام ١٨٨٢، وهو يوم حاسم في تاريخ الإضراب.

في هذا اليوم بالذات، انعقدت جلسة «مجلس المدبّرين». وأعضاء هذا المجلس هم في الغالب أميركيون منتشرون في أنحاء سورية للتبشير أو لأمور أخرى، وقد حضروا إلى بيروت لهذا الغرض.

وكان الطلّاب قبل ثلاثة أيّام من هذا الاجتماع، أي في ١٣ كانون الأوّل، عقدوا اجتماعاً وصاغوا بياناً سمّوه «شكوى» عرضوا فيه ما يشكون منه بشيء من التفصيل، ووقّعوه بأسمائهم وقرّروا

تقديمه إلى أعضاء «مجلس المدبّرين» يوم اجتماعهم. وكان فارس حاضراً في هذا الاجتماع وقد وقّع البيان.

لكنّ هؤلاء الطلّاب عادوا وعقدوا اجتماعاً ثانياً قبل ساعات فقط من انعقاد «مجلس المدبّرين»، وصاغوا بياناً ثانياً دوّنوه على قفا البيان الأوّل الذي سمّوه «شكوى» ووقّعه جميع الحاضرين. وجاء في هذا البيان انتقاد صريح ضد رئيس الجامعة الدكتور بلس بالاسم وكذلك ضد الدكتور بوست.

أمّا سبب هذا الاجتماع الطارئ فهو أنّهم علموا بالجهود التي يبذلها الدكتور بلس والدكتور بوست مع المدبّرين الذين حضروا إلى بيروت، لتأليبهم على الطلّاب واعتبارهم متمرّدين يجب تربيتهم.

كان فارس غائباً عن هذا الاجتماع بسبب وفاة والدته في ذلك اليوم بالذات، لذلك لم يوقّع البيان الذي صدر عنه.

وكانت نتيجة اجتماع «مجلس المدبّرين»، قراراً بمنع الطلّاب الموقّعين على البيان الثاني من الحضور إلى الكلّية والمستشفى لمدّة شهر كامل، وقضى القرار أيضاً بألّا يُقبل في الجامعة بعد هذا الشهر إلّا من سحب اسمَه من هذا البيان واعتذر وأظهر الطاعة لما سمّوه قوانين المدرسة. أمّا الطلاب الذين وقّعوا البيان الأوّل فحسب، فكان باستطاعتهم العودة بعد مضي الشهر دون اعتذار.

وبُدئ بتنفيذ هذا القرار فوراً، ومُنع الطلاب من استعمال غرف نومهم، ومنعوا من الأكل في مطعم الجامعة، بل حرموا من الدخول إلى حرم الجامعة والمستشفى.

فشل الإضراب إذن، ولم يحقّق الطلّاب أيّاً من مطالبهم، واضطرّوا إلى أن يتدبّر كلّ منهم أمره بالطريقة التي يراها مناسبةً. وكان بينهم قسم رفض أن يعتذر وأن يعلن الطاعة، ومن هؤلاء طلّاب في السنة الرابعة الأخيرة اضطروا إلى أن يُتمّوا دراستهم في منزل الدكتور كورنيليوس فان دَيك وعلى يديه وبمساعدته، واستعاضوا عن شهادة الجامعة بشهادة من لجنة طبيّة تألّفت في بيروت وأشرفت على امتحانهم، وكانت برئاسة مراد بك طبيب العسكر العثماني في المدينة، وقبلت الآستانة هذه الشهادة، وسمحت للطلّاب الذين يحملونها بإجراء الامتحان الذي يخوّلهم ممارسة الطبّ على جميع أراضي السلطنة.

أمّا الطلّاب الباقون من الذين رفضوا الاعتذار، وهم طلاب الصفوف الثلاثة الأخرى، فسُدّت في وجوههم السُبُل، ويئسوا من إيجاد طريقة يتابعون فيها دراستهم، فعاد أغلبهم إلى الكلّيّة معتذراً بكتاب خطّيّ عمّا فعل ومتعهّداً باحترام قوانين الكلّيّة.

القليل فقط في الحقيقة لم يَعتذر ولم يعد، وكان بين هذا القليل جرجي زيدان وحسن نصّار وأمين فليحان.

أمّا فارس فلم يكن عليه أن يعتذر ليعود ويتابع دراسته في الكلّيّة، لأنّه لم يوقّع بيان ١٦ كانون الأوّل، الذي احتجّت به الإدارة لتتخذ قراراتها الحازمة الحاسمة، ورغم ذلك اتّخذ قراره التاريخي بعدم العودة، وبالبحث عن طريق أخرى يتابع بها دراسته. كانت المسألة بالنسبة إليه مسألة كرامة شخصيّة ووطنيّة لا يمكن التنازل في أمرها.

أمّا جرجي زيدان فكان أكثر الطلّاب وضعاً حرِجاً، لأنّه كان أكثرهم فقراً، وكان والداه عاجزين عن مساعدته. لذلك قرّر بعد تقليب الرأي والمشاورة أن ينتقل إلى القاهرة لإكمال دراسته في مدرسة القصر العيني الشهيرة آنذاك. وما شجّعه على اتخاذ هذا القرار أن الخواجه «ملحم شكّور» وهو من قرية «عين زحلتا» كان يقيم في القاهرة وكان رئيساً للمدارس الإنكليزيّة في الفجّالة، وقد كتب إليه أمين فليحان، وهو من عين زحلتا أيضاً، وسأله عن إمكانية أن يجيء إلى القاهرة مع رفيقه جرجي ليتابعا دراستهما فيها، فأجابه ملحم شكّور بأنهما إذا ما جاءا فسيُقبلان، وسيدخل كل منهما في الصف المناسب. فعزم عند ذاك جرجي وأمين على السفر، وراحا يسعيان للتزوّد بكتب توصية من أصحاب المراكز العالية في بيروت وجبل لبنان ودمشق، وذهب جرجي إلى دمشق، وأتى بكتاب توصية من «الأوردي الخامس» إلى رئيس مدرسة الطب في القصر العيني في القاهرة، وبتوصية من البطريرك الأنطاكي إلى بطريرك الإسكندريّة، وحاول أن يحصل على توصية من والي الشام إلى الخديوي، لكنّه لم يفلح، لأنّ والي الشام اعتذر لعدم وجود مراسلات بينه وبين الخديوي (لم يُرِد والي الشام إحراج المرسَلين الأميركيين، لأنّ مرجعه الكبير في اسطنبول كان على علاقة وثيقة بقنصل الولايات المتحدّة هناك، وهذا المرجع هو الذي اختار الضابط العثماني الذي رافق الجيش الأميركي إلى كوبا ليطّلع على طرقه في القتال عندما وقعت الحرب بين أميركا وإسبانيا في العام ١٨٩٨.)

أمّا أمين فليحان فاستطاع الحصول على كتاب توصية إلى الخديوي من رستم باشا، متصرّف جبل لبنان، ، وفي الكتاب إشارة إلى ما لأبناء سورية من حقّ في أن يتعلّموا مجّاناً في قصر

العيني، وذلك من أيّام إبراهيم باشا، الذي احتلّ بيروت (في الرسالة كلمة «مكث» بدل «احتلّ») لمدّة عقد من الزمن وانسحب منها بعدما قصفه الأسطول الإنكليزي.

استدان جرجي زيدان ليكمل عدّته للسفر. وساعده جارهم عمر المحمصاني صاحب محل الملبّس والقضامي، وقدّم له ستة جنيهات، وقال له إن كانت لا تكفي أعطيتك غيرها.

أمّا فارس فكان مشروعه مختلفاً.

راسل فارس والده الذي كان على اطّلاع على تفاصيل تطوّر الإضراب، وناقش معه موضوع مجيئه إلى نيويورك. وكان الوالد فخوراً برفض ابنه الاعتذار من إدارة الجامعة لأنّ الكرامة تبرّر عدم الاعتذار، مهما يكن الثمن، وقد ناقش مع مغتربين آخرين إمكانية تأليف لجان للاتصال بمجلس الأمناء في نيويورك لدعم الطلّاب.

ثمّ وافق الوالد على أن يأتي فارس إلى نيويورك لإكمال دراسته، ولكن بعد تردّد، لأنّ الكلفة عالية وقد فوجئ بها بعدما كان يظنّ أنّها سهلة. وراح فارس يُعدّ نفسه للسفر، وكان أوّل ما قام به هو طلب رسائل تزكية من أساتذته الذين كان على علاقة جيّدة بهم، ومن بعض المبشّرين المعتدلين الذين ظلّوا على الحياد أثناء الخلاف والذين لم يتردّدوا في استجابة طلبه.

وهكذا اختلفت درب فارس هاشم عن درب رفيق العمر جرجي زيدان. لكنّهما قرّرا السفر معاً برفقة زميلهما أمين فليحان، في اليوم ذاته، وفي الباخرة ذاتها، إلى الإسكندرية، على أن يمضوا فيها بعض الوقت معاً، ومن ثمّ يتابع فارس طريقه إلى نيويورك.

سافر الثلاثة إلى مصر في تشرين الأوّل من عام ١٨٨٣، وهي السنة التالية لثورة عرابي، وقد أصيبت فيها مصر بالكوليرا التي فتكت فيها فتكاً مخيفاً. انتظروا إلى أن خفّت الإصابات وركبوا في باخرة إنكليزيّة تجاريّة هي أوّل باخرة حملت ركّاباً إلى مصر بعد الوباء.

كانوا ثلاثة من الجامعة الأميركيّة. لم يكن أحد منهم ركب البحر مرّة في حياته. ولم يتعلّم أحد منهم السباحة. كانوا يعرفون أنّ الهجرة من الجبل اللبناني عارمة، لكنّهم الآن يعيشونها. كان معهم على الباخرة مئات من المهاجرين يركبون البحر أوّلَ مرّة، بل كانوا في غالبيّتهم الساحقة يرَون البحر أوّلَ مرّة، فراحوا لذلك ينكّتون على طريقتهم: فواحد تمنّاه سهلاً ليزرعه بطاطا، (كانت البطاطا ما زالت حديثة العهد نسبيّاً في بلدان سوريّة، فقد زرعت أوّل مرّة في قرية إهدن، وأتى بها إلى هناك المرسل البروتستانتي إسحق بورد عام ١٨٢٧، ومنها انتشرت في المنطقة بكاملها.) ومنهم من تمنّاه زيتاً ليأكل به «الكبّة النيّة»، ومنهم من تمنّاه مياهاً صالحة للري ليروي بها كلّ الأراضي البعليّة.

وجد هؤلاء الجبليّون البحر هائلاً ممتدّاً، ورأوا أنّ ما من أحد في الكون يمكن أن «يبلِّطَه»، ومن هنا جاءت عبارة «بلِّط البحر» بمعنى أنّك عاجز عن أن تردّ على التحدّي.

الآتون من الأرياف استنبطوا إذن عبارة «بلّط البحر»! هذا ما استنتجه جرجي زيدان. وقادتهم هذه الملاحظة إلى نقاش معمّق عن حاضر اللغة العربيّة ومستقبلها، وعبّروا جميعاً عن ثقتهم بأنّ

اللغة العربيّة ستكون قادرةً على تخطّي كَسَلها الذي كان يدوم منذ خمسة قرون، بما أنّ شعوبها تنهض، وكثيراً من أهلها يجوبون البحار ويرودون الأرض، ويكتنزون من حضارات الشعوب المتقدّمة، ويجنون المال والخبرة في جميع الميادين، ويعودون إلى بلدانهم لتغتني بهذه الكنوز.

وكان النقاش في مسألة اللغة العربيّة وصلاحها للعصر حامياً وقتها في كلّ الأوساط المثقّفة، وبخاصّة في أوساط المدارس والجامعات التي أنشأها المرسلون اليسوعيّون والبروتستانت، وفي أوساط الصحافة المكتوبة التي بدأت تنتشر.

وكان المدافعون عن اللغة العربيّة يتكاثرون بشكل مدهش، وفي جميع الأوساط، المسيحيّة والمسلمة.

وكانت المطابع بدأت تزدهر. وبيروت على طريق أن تصبح عاصمة للنشر في الشرق.

أيّ مستوى نعتمد؟ أيّ مفردات؟ أيّ تراكيب؟ أيّ أسلوب؟ فاللغة العربيّة كانت بائتةً في الكتب منذ مئات السنين، ولولا أثر القرآن في نفوس العرب المسلمين والمسيحيّين، العامّة منهم والروّاد، لكانت ماتت واندثرت وحلّت مكانها اللغة التركيّة التي كانت لغة السلطنة العثمانيّة.

أوحت عبارة «بلّط البحر» لطلّاب الطبّ الثلاثة بهذا النقاش اللغوي. ولم يكن هذا بمستغرب لأنّ معرفة الأطباء باللغة والأدب في ذلك الوقت كانت جزءاً من تخصّصهم.

وكان الثلاثة على علم بأنّ المعلّم بطرس البستاني ناقش هذه

المواضيع طويلاً وبالتفصيل مع الشاعر والنهضوي الشهير ناصيف اليازجي، ومع المرسل الأميركي إلاي سميث، الذي كان رئيس اللجنة المكلّفة ترجمة الكتاب المقدّس والذي خلفه عليها بعد وفاته عام ١٨٥٩ المرسل كورنيليوس فان دَيك. واختاروا تسهيل العربيّة. اختاروا لغةً عربيّةً صرفاً وميسّرةً في آن.

يا فارس!

كان فارس على علم بهذا النقاش الدائر حول العربيّة، هذه اللغة التي يعشقها، والتي كان إحياؤها إحياءً له ولشعبه.

يا فارس! ستنتصر العربيّة! وكان أساتذته في الكلّية يشجّعون هذا المنحى عند الطلّاب جميعاً، وذلك لأسباب متعدّدة، منها أنّ العربيّة لغة القرآن ولغة الناس، ومنها أنّ السلطنة العثمانية كانت عند القوى الغربيّة محكوماً عليها بالتفكّك، وكانت نصرة العربية خطوةً في هذا السبيل. وكان العصر وقتها عصر القوميّات، قد بلغت فيه الإيديولوجيّات القوميّة ذروتها وبخاصة في أوروبا وأميركا. وتبنّى هذه المفاهيم الكثير من المثقّفين والنخب السوريّة والعربيّة في الميادين كلها، وقد رأوا في اللغة العربية جامعاً قوميّاً عظيماً، وسلاحاً لا يمكن للتركيّة أن تصمد في وجهه.

كانوا ثلاثة في الباخرة من الجامعة الأميركية، يجيدون العربيّة والتركية والفرنسية والإنكليزية، ويلبسون على الطريقة الإفرنجية، بنطلوناً وقميصاً فوقه جاكيت، ما عدا غطاء الرأس الذي كان طربوشاً عثمانيّاً أحمر. وقد بدوا كالأجانب، بحيث إنّ صاحب المركب الصغير الذي نقلهم من رصيف المرفأ إلى الباخرة حاول

أوّلاً أن يخاطبهم بالكلمات الأجنبيّة القليلة التي تعلّمها من مخالطته الأجانب لأنّ اللباس الإفرنجي لم يكن منتشراً. وكان أغلب الأهل يمنعون أولادهم من استبدال اللباس الإفرنجي باللباس التركي، لأنّه كان يثير الحشريةَ ويثير هزءَ عامّة الناس، وكانت الأقليّة التي تسمح بهذا التغيير الخطير تتردّد كثيراً قبل الإقدام عليه.

لكنّ الباخرة التي اضطروا إلى ركوبها كانت، للأسف، محمّلةً بالماشية، وكانت الرائحة عليها لا تطاق، فأمضوا الوقت لذلك على سطحها. وقد فوجئوا وغضبوا، ثمّ احتاروا كيف يُبلغون غضبهم هذا إلى الوكيل الذي اشتروا منه البطاقات، والذي أكّد لهم أنّ الباخرة فخمة وأنّ ركّابها سيكونون في الغالب من الأوروبيين، وأنّ الدرجة التي سيكونون فيها تشبه الأولى، من حيث الخدمة الممتازة والأكل الطيّب والنظيف. فسُرّوا وقتَها لذلك، ودفعوا المبلغ الذي طلبه منهم عن طيب خاطر. وتبرّع فارس بقسم من ثمن البطاقة لجرجي الذي تمنّع أوّلاً عن القبول، ثم وافق بعدما استحلفه فارس بالصداقة التي بينهما.

كانت المفاجأة كبيرةً جدّاً، وكان هذا الاحتيال الذي مارسه وكيل السفر دافعاً لهم ليتمحور كلامهم على الصدق والكذب في سورية كلها.

لم يكن بعض المبشّرين الأميركيّين يُخفي رأيه في أهل البلاد من هذه الناحية، ومنهم من قال كتابةً إنّ الكذب هو من الخصال الأساسيّة التي يتمتّع بها السوريّون. وكان بعض أساتذتهم في كليّة الطبّ يصرّح لهم بذلك في الصفّ، وبخاصّة منهم الدكتور بوست الذي شكوه بالاسم إلى «هيئة المندوبين» أثناء الإضراب.

وكان يقول لهم لا تكونوا مثل الآخرين من أهل بلدكم. وكان يخبرهم دائماً بمشاكله مع الباعة من كل نوع، لأنّه غير معتاد على المساومة في الشراء، ففي أميركا الأسعار معلنة ولا أحد يساوم. كان بوست حين ينزل لسبب ما إلى السوق ليشتري شيئاً يعود غاضباً، وكان يردّد ما كتبه أحد المبشّرين يوماً من أنّ الكذب تجسّد في أهل هذه البلاد، وأنّه ضرورة بيولوجيّة لهم كالماء والهواء. فلا البائع يصدق ولا العامل يصدق ولا الحدّاد يصدق ولا النجّار ولا البنّاء ولا الخيّاط ولا أحد.

وكان بوست يقول لهم إنّ الصدق في القول والعمل من الإيمان الحقّ.

لكنّ بوست على ما يبدو كان يريد من طلّابه أن يكونوا مؤمنين أوّلاً، وكانوا هم يريدون أن يكونوا مواطنين أوّلاً، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الإيمان الحقّ لا يكون إلّا في المواطنيّة الحقّة. وهذا في الحقيقة ما كان الدكتور بوست وآخرون كرئيس الجامعة الدكتور بلس، يؤمنون به هم أيضاً، لكن كأميركيين. كانوا يؤمنون بأنّ المسيحي الحق (أي البروتستانتي) هو الأميركي الحقّ، وأنّ الأميركي الحقّ هو البروتستانتي.

وراح الثلاثة في أحاديث وأخبار لا تنتهي عن كذب أهل البلاد الذين لا يصدقون في شيء ولا وعد ولا موعد.

ـ «حتّى أمّي كانت تكذب!» قال فارس فجأةً وبغضب، وأخذتْه نوبةُ بكاء جاءته بلا إنذار، وراح يبكي ويشهق أمام جميع من كانوا على سطح الباخرة، غير قادر على أن يتمالك نفسه. وكان جرجي زيدان وأمين فليحان واقفين أمامه وعيونهما دامعة، وينظران

إليه كأنّه يبكي عن نفسه وعنهما أيضاً.

قال إنّ أمّه كانتْ تكذب أيضاً، وكان لم يمضِ على وفاتها سنة بعد. وأخبر أنّ أوروبيّاً نام عند جيرانهم يوماً، وقد ترك خارج البيت خُرْجَ حصانه، ونسي فيه ساعته، والساعةُ يومذاك ثروة، ولمّا نهض في الصباح لم يجدْها. فارس كان متأكّداً من أنّ الذي سرق الساعة كانت والدتَه، لأنّه في ما بعد، عرف أنّها قصدت أحدَ الساعاتِيّين وباعتْه إيّاها، وكان ذلك أثناء انقطاع أخبار والده عن العائلة.

ـ ما يفعله الإنسان تحت ضغط الحاجة لا يوصف بالكذب! قال له جرجي.

ـ بلى! أجابه فارس وأخبره بأنّه رأى الجيران يسألونها، وكانت تُنكر أشدّ الإنكار وتُقسم بالله وبالسيّد المسيح وبالسيّدة العذراء مريم أنّها لم ترَها ولم تمسَّها وأنّها لم تقترب من الخرج.

وقال إنّ أهلنا يعلّموننا الكذب منذ ولادتنا، وإنّ والدته كانت تقول له ولإخوته عندما كانوا صغاراً إنّهم إنْ لم يناموا فسيأكلهم الذئب.

ـ «أيّ ديب؟» صرخ بأعلى صوته من على سطح الباخرة موجّهاً كلامه نحو الشاطئ، إلى بيروت، إلى الحيّ الذي فيه بيتهم.

ـ لم يأكلْنا الديب يا أمّي، بل أكلنا البحر! ها أنا يأكلني البحر الآن يا أمّي بعدما أكل والدي منذ سنين. أمّا أنتِ فقد ارتحتِ الراحة الأبديّةَ بعدما أكلكِ التراب.

لكنّ فارس لم يكن يحسَب نفسَه مهاجراً، بل طالباً يسافر ليُكملَ دروسه في نيويورك حيث يقيم والده ويعمل، ثمّ يعود بعد ذلك إلى بلاده ليبني مستقبله فيها، وليساهم في نهضتها.

وكذلك كان جرجي زيدان، الذي لم يكن يدري ما يُخبّئ له المستقبل، ولم يكن يدري ما طبيعة المحلّ الذي يُخصّصه له تاريخ الثقافة العربيّة ليحتلّه بفخر وشرف نادرَين.

عندما انتهى فارس من نوبة البكاء، ومسح دموعه وأنفه، وصَفَت عيناه، رأى رفيقيه يبكيان بهدوء مثله، ورأى المسافرين الواقفين في ذات المكان يتحاشونهم ويبتعدون عنهم. فاقترب عندذاك من رفيقيه وقال لهما هامساً: تعالوا نقسم بأنّنا سنعود إلى بلادنا بعد أن نُنهي دروسنا!

ـ «يَ الله! ردّوا ورايي!».

ثمّ انتقل من العاميّة إلى الفصحى لأنّ الأمر تحوّل إلى الجدّ والمهابة ولأنّ اللحظة صارت مصيريّة، فقال بصوت صارخ لكنْ مخنوق:

«أُقسم بالله العظيم إنّني سأعود إلى بلادي المقدّسة، بعد نيلي شهادتي، لأعمل فيها على نهضتها، في مدنها قاطبةً، وفي كلّ قراها الطاهرة».

وردّد جرجي وأمين وراءه القَسَم بصوت صارخ أيضاً لكن مخنوق، حتّى لا ينتبه أحد إلى ما يقولون، خصوصاً أنّ ضابطاً من الجمارك كان قد صعد إلى سطح الباخرة ليتأكّد من «قانونيّة» أوراق المسافرين. وكانت هذه المرّةَ الثالثة التي يتحقّق فيها أفراد

الجمارك من أوراق المسافرين. كانت المرّة الأولى عندما عبروا مبنى الجمارك، حيث دفع كلّ من الثلاثة نصف «مجيديّة» ـ العملة العثمانية وقتها ـ وضعوه تحت جواز السفر الذي قدّموه إلى الموظّف المناوب. ثمّ جرى التدقيق في أوراقهم مرّة ثانيةً وهم في المركب الصغير الذي كان ينقلهم من الرصيف إلى الباخرة، وقد فعلوا الشيء نفسَه، فقدّموا للمفتّش جوازات سفرهم مع مجيديّة هذه المرّة، وها هم الآن من جديد، ومرّة ثالثةً، يقدّمون الجوازات والنقود معها، حتّى يتأكّد الضابط أنّ كلّ شيء يجري حسب القانون.

وقد ظنّوا وهم على سطح الباخرة أنّهم يستطيعون التمنّع من دفع «البخشيش»، كمبادرة نضاليّة ضدّ الفساد المستشري في جسم الإدارة والمجتمع، لكنّ أحد مساعدي القبطان الذي كان معتاداً على مرفأ بيروت، لم يشأ أن يكبّر المسألة، فنبّههم إلى خطورة هذا التمنّع، لأنّ الضابط الذي صعد إلى السفينة، كان قادراً بالقوّة على أن يمنع الباخرة من الإبحار، أو أن يُنزلهم منها وأن يعيدهم إلى البرّ، حتّى وإن كان سلوكه غير قانوني.

أمّا جرجي وأمين فانفجرا بالبكاء بعدما تحرّكت الباخرة مبتعدَةً عن المرفأ، وبعدما راحت بيروت تنأى عنهما شيئاً فشيئاً، ثمّ استدركا وراحا في أحاديث عن فوائد الاغتراب بالنسبة إلى نهضة الوطن.

فجرجي زيدان وأمين فليحان سيكملان دراستهما في مدرسة قصر العيني في القاهرة، وهي واحدة من مدرستين عريقتين في تعليم الطبّ، وسيعودان إلى بيروت ـ بإذن الله! ـ ليقوما بواجبهما القومي نحو شعبهما. ثمّ إنّهما حتّى لو عملا في مصر فسيكون

لعملهما فائدة قوميّة لأنّ مصر أرض الكنانة، وقاهرة المعتزّ.

أمّا فارس فذاهب إلى بلاد بعيدة، لكنّها أميركا.

أقسم فارس أمام رفيقيه بأنّه لن يوفّر جهداً من أجل أن يُنهي دروسه دون إضاعة وقت، وأقسم بأنّه سيغرف من حضارة تلك البلاد ما أمكن، وسيتعلّم منهم المواطنية وكلَّ صفات التمدّن، وبشكل خاص حبّ الوطن، وأقسم بأنّه سيعود إلى لبنان ما إن يُنهي هذه المهام.

واتّفق الجميع على أنّ الاغتراب، بما يعنيه من التعرّف على الحداثة في كلّ مظاهرها والغَرْف منها، يخصّب تقاليدنا السليمة والنافعة والمناسبة للعصر والمتمشّية معه. واتفقوا جميعاً على أنّ مِن هذا اللقاء، تولد حضارتنا المستقبليّة، وأنّه لا طريق أخرى غير هذه لبلوغ هذا الهدف.

يجب ألّا نبكي إذن، بل أن نفرح، لأنّ ما نقوم به يشكّل خطوةً ضروريّة على طريق النهضة.

نزلوا جميعاً من الباخرة في ميناء الإسكندريّة، حيث استقبلهم موفد من قبل ملحم بك شكور، واهتمّ بهم طعاماً ومنامةً، قبل أن ينتقل جرجي وأمين بعد عدّة أيّام إلى القاهرة.

وأمضى الثلاثة هذه الأيّام معاً يجولون في شوارع الإسكندرية، يتعرّفون على معالمها الحضارية، ويقدّرون النهضة الجارية في مصر على قدم وساق.

اهتمّ ملحم بك شكّور بهم لأنّهم من الوطن، ولأنّ أمين بالإضافة إلى كونه من بلدته عين زحلتا، كان مثله بروتستانتيّاً وقد نجا أهلهما معاً من مجزرة دير القمر بعدما هربوا إليها من عين زحلتا واختبأوا في بيت المبشّر البروتستانتي بورد، وعزّزت هذه التجربة الصداقة بين العائلتين وقوّت الروابط بينهما.

ثم افترقوا بعدما أكمل جرجي وأمين طريقَهما إلى القاهرة، وبقي فارس ينتظر في الإسكندريَة عدّة أيّام أخرى مجيءَ الباخرة الفرنسيّة Grandeur القادمة من بيروت والمتّجهة إلى مرسيليا في فرنسا.

أحسّ فارس بالوحدة، وقد تأخّرت الباخرة، وكان يذهب عدّة مرّات في اليوم إلى المكان الذي كانت تقوم فيه منارة الإسكندريّة الشهيرة، التي بناها الإسكندر المقدوني الكبير، وكان يتذكّر هناك الأساطير التي قرأها عن بنائها، وبخاصّة تلك التي تروي كيف أنّ دواب البحر كانت تخرج من البحر كلّ ليلة وتخرّب ما بناه العمّال في النهار، وكيف أنّ الإسكندر أمر بتابوت كبير نزل فيه ومعه رسّامان إلى أعماق البحر حيث الدواب، فرسموها، ثم أمر بعدما عادوا بصناعة تماثيل على صُور هذه الدواب التي خافت حين خرجت في الليل من البحر لتدمّر البنيان ورأت صورها، وتراجعت ولم تعد.

تمنّى فارس وهو يتأمّل فعل الزمن في العمران أن يقول الشعر لكنّه لم يكن شاعراً.

وزاده بحر الإسكندريّة إيماناً بضرورة النهضة القوميّة: على العرب أن يفيقوا من غفوتهم، وتمثّل قولَ الشاعر النهضوي الشهير في

ذلك الوقت، ناصيف اليازجي، ووقف قبالة البحر وقال في ما يشبه الإنشاد:

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العربُ...

ولكنّه كان يُحسّ بالوحدة تقوى عليه حتّى تكاد أن تغلبه، فاستهدى. والمرأة خير أنيس للرجل المستوحش البعيد عن أهله ووطنه، وحبُّ المرأة في طبعه، وكان معه نقود تكفيه للإقامة في فنادق جيّدة والتعرّف إلى نساء من طبقة عالية. والده أرسل له مبلغاً من المال يسمح له بذلك، وادّخر هو من أعمال كان يقوم بها، كالترجمة والدروس الخاصّة، وما إلى ذلك.

لم يكن يتصوّر أنّ كلفة التخصص في الطبّ في أميركا مرتفعة إلى هذا الحدّ، فتصرّف بحريّة بما معه من مال.

كان يذهب في الليل عند «بيلات» التي كانت تطعمه أطيب الطعام، ثمّ كانت تُغسل يديه بعد أن ينتهي من الأُكل وتنشّفهما. كانت تنشر المنشفةَ على يديها المفتوحتين كأنْ للصلاة، ثمّ تغمر بها يديه وتمسحهما. وبعد ذلك كانت تقدّم له أفخر النبيذ الفرنسي. النبيذ ذاته الذي كان يشرب منه أحد أصدقائها، حفيد ضابط من كبار ضباط نابليون، وقد بقي في مصر بعد انسحاب الجيش الفرنسي عام ١٨٠٢ وتزوّج من مصريّة وتمصّر وتاجر بالقطن واشترى بواخر وورث عنه أولاده وأحفاده كلّ هذه الشركات والممتلكات.

وكانت تدهشه حين كانت تقول له بصراحة كليّة إنّها مسرورة بعملها، وإنّها اختارت هذه المهنة بإرادتها! فلماذا هي مجبرة، أصلاً، على اختيار مهنة؟ فمن يُجبر المرأة في بلادنا على العمل؟

إنّ أهلها مجبرون بها حتّى تتزوّج.

لم يسمع فارس من قبل أنّ امرأةً امتهنت هذا العمل بإرادتها، وهي فخورة به.

وأَراد عند ذاك أن تخبره عن أهلها، فرفضت محتجّةً بأنّهم لا يُحبُّون أن يكونوا أهلها، وقالت: أنا أحبّهم ولكنّني لا أحبّ أن يكونوا أهلي لأن هذا يعذّبهم حتى الموت. حتّى القتل. لذلك فلا هم يعلمون شيئاً عنّي ولا أنا أعلم شيئاً عنهم. أعرف أنّهم يقيمون في القاهرة وهذا كلّ ما أعرفه عنهم. وليتني لم أكن أعرفه. وهم الآن لو رأوني فلن يعرفوني، لأنني سمنت كثيراً قياساً على ما كنته عندهم، ثمّ إنّني جرحتُ نفسي عن قصد فوق حاجبي ليغيّر أثر الجرح معالم وجهي، فلا يعود أحد يعرف من أنا. وأصبغ شعري دائماً بالأشقر، بينما لون شعري الأصلي أسود فاحم، وقد ألبست سنّي هذه ذهباً وهي سنّ سليمة.

كلّ هذا أسرّت به «بيلات» إلى فارس بعدما أَنِست إليه ووثقت به.

أحبّها فارس، لكنّ إصرارها على أنّها اختارت هذه المهنة بإرادتها أزعجه كثيراً، بل أقلقه. أفقدته توازنه أوّل مرّة أخبرته بذلك. فكيف يمكن لامرأة أن تحبّ هذه المهنة؟ إنّ النساء يُجبرنَ على ذلك إجباراً. الحياة تضطرّهن إلى ذلك. فأي امرأة عاقلة تختار أن تنام مع رجل مختلف كلّ يوم أو كلّ ساعة لتعتاش من ذلك؟

المومس التي أحبّها في بيروت، يورما، كانت تبكي بحرارة ومن أعماق أعماقها، حين كانت تخبره عن الظروف التي دفعتها إلى هذا العمل المذِلّ.

لم تكن يورما فخورةً بعملها، بل كانت تخجل منه خجلها من العار الذي ما بعده عار، وكانت تسعى دائماً إلى التخلّص منه. وهذا أمر طبيعيّ بالنسبة إلى فارس، بل هذا هو الأمر الطبيعي. لكنّ بيلات الإسكندرانيّة كانت العكس تماماً. كانت فخورةً بعملها وتحبّه، ولولا أنّها تخاف الثورة عليها من العامّة والخاصّة من الناس لكانت أعلنت ذلك صراحةً على الملأ، ولكانت كتبت ذلك في الجرائد والمجلّات. لكنّ الزمن كان في العام ١٨٨٣ والمدينة كانت الإسكندريّة.

شغلت بيلات بال فارس، وفكّر في أمرها ليل نهار، بحيث إنّ النوم خانه أيّاماً متتاليةً، كان أثناءها ينهض من فراشه ويقصد بيتها من جديد بعد أن يكون أمضى السهرة عندها. ومرّة قالت له ألّا يأتي لعندها بعد ظهر غد لأنّ صديقها، حفيد الضابط الفرنسي، عاد من القاهرة وسيمضي في الإسكندريّة عدة أيّام. وقالت إنّها تستطيع أن تراه في النهار قبل الظهر إن أراد.

لم يذهب في ذلك النهار قبل الظهر ولا بعده ولا في النهارات التالية. لكنّ بيلات ستبقى في ذاكرته إلى الأبد لغزاً لا يُدركُ سرّه: امرأة تختار مهنة مومس لأنّها تحبّها!

عندما بدأت الباخرة بالابتعاد عن مرفأ الإسكندريّة، انتبه إلى أنّ رحلة الاغتراب عن الوطن بدأت بالفعل، وأحسّ بأن عينيه تدمعان، وبأنّه لم يعد يستطيع أن يبلع ريقه. لم يعرف من قبل هذه الحالة، لكنّه تذكّر أنّ لها اسماً:

ـ الغصّة!

وأكثر ما جرحه في صميمه، رؤية هؤلاء الأولاد ــ أولاد بلاده ــ الذين كانوا يرافقون أهلَهم أو أقاربهم، ويعانون من دوار البحر، صفرَ الوجوه منهدِّي الأجسام، يدورون على أنفسهم فوق قطعة صلبة وسط مياه عظيمة غاشمة ممتدّة، ولا يفهمون أبعاد ما هم فيه، وماذا جرى ويجري ولماذا، وكلّ ما كانوا يدركونه هو أنّ أهلهم قالوا لهم: سنذهب إلى أميركا، وسنبقى هناك بضع سنوات، نعود بعدها لنبني بيوتاً ونُنشئ مصالح نعتاش منها. وقالوا لهم إنّ أميركا على مسافة شهرين سفراً أكثره في البحر وقليل منه في البرّ، نجتاز أثناءه فرنسا بالقطار، من مدينة مرسيليا على البحر المتوسّط إلى مدينة اللوهافر على المحيط الأطلسي، والقطار صناديق كبيرة لها فتحات من زجاج، وهذه الصناديق تجرّ نفسها بنفسها من دون حيوانات ولا بشر، وهي مثبّتة على دواليب من حديد كبيرة كالمنخل، تجري على خطّين من حديد يسمونهما سكّتين. والقطار يستطيع حمل جبال ونقلها من مكان إلى آخر بدون أن يتعب أو أن يتألّم لأنّه بلا روح.

لا تتعب إلّا الروح! لذلك كان هؤلاء الأطفال يتعبون.

ولا تتألّم إلّا الروح! لذلك كان هؤلاء الأطفال يتألّمون.

ــ أطفال بلادي!

ورغب في أن يغنّي أغاني بلديّة، وأغاني فراق، رغب في أن يغنّي أغنية تشبه الأغنية التي يغنّيها وديع الصافي اليوم، والتي ألّف كلماتها أسعد السبعلي:

يا مهاجرين ارجعوا

غالي الوطن غالي

لكنّه امتنع، لأنّ البكاء في هذه اللحظة مضادّ لقناعته بضرورة بناء الإنسان الجديد في الوطن السوري، ومضادّ لقناعته ببناء مواطن جديد يُعمِل عقله وفكره لا عاطفته وهواه، مواطن جديد يؤمن بنهضة الشعب وبحقّ الأمّة في الوجود الكريم، أمّة تصمد في حلبة صراع الأمم، وفي وجه الرياح العاتية مهما عتَتْ، أمّة واحدة تنهض كجسم واحد في بحر العواصف مهما هاجت، ويكون لها دور رائد في سباق الأمم نحو المجد.

امتنع عن البكاء لأنّه نذر عذابه لنهضة الأمّة.

عندما صار في وسط البحر انتبه إلى أنّه لا يرى إلّا سماءً وماء، فدبّ فيه الخوف، وكان خوفاً لاعقلانيّاً لأنّ الطقس كان صحواً وكان البحر هادئاً جدّاً.

كان واقفاً على حافة السفينة مستنداً إلى الدرابزين عندما أحسّ بأنّ الخوف يأخذه فجأةً، وكان ينظر إلى البحر الذي بدا له عميقاً وغامضاً، وأحسّ بوجودِ ساحرٍ في قعره يناديه، فخاف من أن يستجيب لهذا النداء، فابتعد فجأة عن حافة السفينة وجلس على أرضها حتّى لا يغريه النداء وتودي به التجربة إلى الهلاك، إلى أن يرمي بنفسه في هذا الغموض.

لكنّ الطقس لم يستقرّ على الصحو طوال الرحلة، بل تحوّل في منتصف الطريق إلى عاصف بدون سابق إنذار، وراحت الرياح والأمواج تتلاعب بالسفينة، حتّى اضطرب كلّ من عليها، وأفرغ الكثيرون منهم أحشاءهم، هذا خلسةً وهذا باحتشام وهذا صراحة.

انتبه فارس إلى أنّ الإنسان كائن ضعيف، وأنّ العناصر من ماء وهواء لا صديق لها ولا عدوّ، وهي إذ تهتاج فلا كرهاً ولا غضباً، وحين تهدأ فلا حبّاً ولا رحمةً. وقد أفرغ أحشاءه ممّا فيها، وما زالت العاصفة تلعب بالسفينة.

وكانت المياه ترتفع إلى مستوى سطح الباخرة فيظنّ نفسه في عمق البحر لا على سطحه.

لكنّ العاصفة لم تدم طويلاً، بل هدأت بعد أقلّ من يومين، وسكن البحرُ وبدأ فارس يستعيد معنويّاته.

لم يسمحْ فارس لنفسه رغم كلّ شيء بأن يندم على ما يقوم به، أي على السفر إلى أميركا ليكمل فيها دراسة الطبّ ويؤمّن مستقبله، ويتعرّف على حضارتها من قرب، ويتعلّم المواطنيّة الحقّة، ثمّ أن يعود إلى وطنه ليساهم في نهضته القوميّة بكلّ ما فيه من عزم.

كانت أوّلَ خطوةٍ قام بها فارس بعدما رست الباخرة في مرفأ مرسيليا، وترجّل منها وأجرى المعاملات اللازمة واجتاز الرقابة الصحيّة، هو أنّه رمى الطربوش العثماني الأحمر عن رأسه واشترى قبّعةً إفرنجيّة، وانطلق مع صحبه الذين تعرّف إليهم في الباخرة، لاكتشاف المدينة.

سحرتهم الأضواء الكهربائيّة التي تنير المنازل والشوارع والساحات.

كان فارس ورفاقه يقفون تحت المصباح الكهربائي المشتعل، ويدورون على أنفسهم كما يدور المستحمّ بالماء النازل من مرشّة.

ـ ليتني كنت شاعراً! كان فارس يردّد.

ثمّ صاح:

ـ إنّي أستحمّ بنور!

(مواطنه جبران خليل جبران قال بعده بسنين في قصيدته «أعطني الناي وغنِّ»:

هل تحمّمتَ بعطر

وتنشّفتَ بنور

وشربت الخمر فجراً

في كؤوس من أثير؟)

ثمّ أضاف فارس:

ـ متى ستشعّ بيروتُ بأنوار هذه المصابيح؟ ومتى ستشعّ بها قرى وبلدات جبال لبنان العالية الرأس المرفوعة الجبين؟ وكل مدن سورية وقراها ودساكرها؟ متى سيحلّ النور محلّ الظلام؟

وكاد عدّة مرّات يكسر عظام رقبته وهو ينظر إلى المباني المؤلّفة من طبقات، ويعدّها، واحدة فوق الأخرى. مبانٍ في نسق مدروس مسبقاً لا يحيد عنه أحد.

ـ فمتى يا بلادي؟

وأدهشته الشوارع المستقيمة الواسعة المعبّدة المخصّصة للعربات، والأرصفة المخصّصة للناس والنساء! النساء اللواتي يمشين بمفردهنّ بلا خوف ولا حرَج، دون أن يرافقهنّ رجل.

كان فارس يعرف اللغة الفرنسيّة معرفةً جيّدةً، فاستطاع أن يستدلّ على سوق المومسات بلا صعوبة. وكان برفقته شاب من شمال لبنان تعرّف إليه في الفندق وأحبّ معشره. وكان اسم هذا الشابّ رشيد، وكان قاصداً بورتوريكو حيث سبقه أقرباؤه وإخوته، وقد مات هناك بعد عدّة سنوات بمرض السفلس، الذي التقطه من كثرة معاشرته المومسات بلا وقاية ولا حذر. وعلم فارس بوفاته، وكتب إلى إخوته يعزّيهم، ويذمّ الجهلَ والغربةَ.

لكنّ فارس كان حذراً جدّاً في معاشرة المومسات، وساعدته ثقافته الطبّيّة على أن يكون كذلك، ولم يكن يجرؤ على فعل ما يريد، بل كان يجاوز ما يحلم به وما يشتهيه إلى ما يستطيع. كان مبدأه: كثير من المتعة بأقلّ ما يمكن من المخاطرة.

والتقى مرّة بمومس لا تعرف اللغة الفرنسيّة جيّداً، وسألها بالعربيّة إن كانت من جبل لبنان، فأجابته بفرنسيّة مكسّرة بأنها من إسبانيا، فقال لها متعجّباً: وكيف فهمتِ سؤالي؟ فاضطربت وتركته عارياً في الغرفة وخرجت ولم تعد. كانت من جبل لبنان إذن أو من إحدى قرى أو مدن بلدان سوريّة!

الفقر والعوز والجهل! قال فارس في نفسه وتنهّد. وأراد أن يعرف المزيد عن تلك المرأة لكنّها اختفت.

وكانت الرحلة إلى باريس بالقطار.

وأدهشه القطار. أدهشته هذه الغرف الحديديّة التي تنسلّ في الشوارع مسرعةً، كأفعى، وتجتاز الساحات والحقول.

وكان الدخان المتصاعد من قاطرة القطار، كأنّه تحيّة، أو علامة ساطعة على انتصار العقل على الجهل والتقليد.

كان الدخان المتصاعد من القطار ينتشر في الفضاء كابتسامة، وكإشارة بالنصر وبأنّ الأمل بسّام والمستقبلَ وضّاء وضّاح.

وكان صفير القطار يُشعر فارس بأنّه قادر على الطيران. كان فارس حين يفرح يشعر بأنّه خفيف الوزن وقادر على التحليق كطير. لم يكن ظهور الطائرة بعدُ قد بدا في الأفق.

لكنّه أحسّ بشيء من الكآبة بينما القطار يجري في هذه السهول المتشابهة تحت هذه السماوات الرماديّة.

كان فارس يشعر بأنّ الشمس هديّة من السماء حين كانت تطلّ على الدنيا وتضيء هذه المساحات الواسعة من وقت لآخر.

وأحبّ فارس أن تطول إقامتُه في باريس، لكنّه خاف من أن يتأخّر وأن تصل الباخرة «أتلنتك» إلى مرفأ مدينة «لو هافر» وأن تبحر منه قبل أن يصل.

استطاع أن يجول ساعات قليلة فقط في الأحياء المحيطة بالمحطة. وقد أدهشته الجادات العريضة والمستقيمة، وأكثر ما

لفت انتباهه لباس الناس. كان الناس رجالاً ونساء يرتدون بدلات أنيقة ونظيفة. وأحسّهم فخورين بشيء لم يستطع تحديده، واستدلّ على فخرهم هذا من لباسهم ومن طريقة مشيهم وطريقة مخاطبتهم بعضهم البعض.

«موسيو!» أي سيّدي! هكذا يخاطب الواحد منهم الآخر مهما يكن المخاطَبُ فقيراً أو وضيعاً أو معدماً.

في باريس كان الناس مسرعين جدّاً، بحيث إنّ فارس لم يرَ أحداً، لا رجلاً ولا امرأة، واقفاً على الرصيف يمضي وقته عليه بلا سبب. فإلى أين هم مسرعون؟ تساءل فارس في نفسه.

أمّا رشيد الذي كان يرافقه فكان لا يفقه شيئاً ممّا يرى. كأنّه في دنيا من الوهم المبهم، كأنّه في عالم من الهباء، يشبه العالمَ في مكنون علمِ الخالق قبل خلقه، لكنّه ملوّن. كان لا يرى جيّداً ولا يسمع جيّداً. كان في مكان لا جاذبيّة فيه تشدّه إلى شيء.

أمّا فارس فكان يعرف ما يجري حوله. ويعرف بالخصوص أنّه في بلد متحضّر ومتقدّم وراق وحرّ.

ثم سمع الاثنان فجأةً هديراً يقترب، كهدير موج البحر، فاضطربا، وهمّا بالعودة إلى المحطّة ليأمنا هناك من خطر محتمَل، لكنّ أعداداً لا تُحصى من البشر مجتمعةً متقاربة متلاصقة كانت تسير في الشارع وتصرخ وتحمل أقمشة عليها كتابات وترفع قبضاتها في الهواء بغضب.

ـ العمّال! قال فارس لرشيد حتّى لا يخاف. لكنّ هذه الكلمة لم تهدّئ من اضطراب رشيد.

ـ ماذا؟

ـ العمّال! العمّال! ردّد فارس، وأضاف بفرح غامر:

ـ هؤلاء من أنصار دارون!

وتناسى فارس دارون، وشرح له ما معنى «العمّال»، وكيف يعملون وأين، وكيف ينتظمون في ما يسمّونه «نقابات» ويطالبون بما يسمّونه «حقوق»، وكيف أنّ أغلبهم لا يؤمنون كثيراً بالأديان، وأنّ البعض منهم يطالب بأن يكون الحاكم منهم، وأنّهم يكرهون الملوك والسلاطين ويعلنون ذلك. فخاف رشيد وأحس بعدم التوازن بعدما فَقَد كلَّ مَعلَم وأراد أن يعود إلى ضيعته.

في مرفأ «لو هافر» اشترى فارس بطاقةً للسفر في الدرجة الأولى، ودفع ثمنها غالياً. لم يكن ذلك من أجل راحته فقط، بل لسبب أهمّ بكثير، أراد أن يُعطي صورةً عن بلاده مفادها أنّها ليست مجرّد بلاد فقراء مغلوب على أمرهم، بل إنّ فيها الكثير ممّن يتطلّعون إلى العلى وممّن يحبّون العيش مثل الأجانب بل أفضل.

أثارت الفرنسيّة الدقيقة والرصينة التي تكلّم بها فارس دهشة الموظّف الذي باعه البطاقة في مكتب السفر. وهي فرنسية أخذها فارس من الكتب في مدارس بيروت التي تعلّم فيها. وكان من الطبيعي بالنسبة إلى هذا الموظّف أن يسافر في الدرجة الأولى من هو بهذا المستوى من المعرفة بلغةٍ ليست لغةَ أهله.

ـ أين تعلّمت هذه الفرنسية؟ سأله الموظف بإعجاب.

ـ في بيروت! أجابه فارس، ثمّ أضاف:

ـ في المدرسة!

وقد أضاف «في المدرسة» حتّى يفهم الموظّف الفرنسي أنّ في بيروت مدارس مهمّة، يتعلّم فيها الناس اللغات حتى الإتقان.

ـ أُحبّ اللغة الفرنسية ـ أضاف فارس ـ لأنّها لغة الثوّار، لغة روبسبيار خطيب الثورة العظمى الذي قال مخاطباً رسول الملك: نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلّا على رؤوس الحراب!

ـ وتعرف ذلك أيضاً! قال له الموظّف وكاد أن يقبّله. وعرض عليه على الفور أن يحضر اجتماعاً تثقيفيّاً لتجمّع اشتراكيّ هو عضو فيه، وقال له إنّ هذا التجمّع أمميّ وليس قوميّاً، لكنّ فارس سأله، بدل أن يجيبه، إن كان يؤيّد نظرية دارون، فقال له: من هو دارون؟ فتعجّب فارس من جهله بدارون رغم أنّه اشتراكي أمميّ، فكيف لاشتراكي أمميّ أن يجهل دارون؟ ثمّ شكره على دعوته وهو يقول في نفسه إنّ على السوريين الاهتمام بأنفسهم أوّلاً قبل أن يهتمّوا بالعالم أجمع.

ـ سنلتقي قريباً مع الأمم الأخرى! قال فارس للموظّف الذي لم يفهم قوله.

لكنّ المشكلة كانت عندما رفض البحّار الأميركيّ، الذي يحقّق في بطاقات المسافرين على درج الباخرة، أن يسافر فارس في الدرجة الأولى مع الآخرين البيض الشقر الطوال القامة الزرق العيون.

كان فارس متوسّط الطول، عسلي العينين، عادي السمرة. ورغم ذلك لم يقبلوه في الدرجة الأولى.

وأصرّ الموظّف الأميركي على رفضه، وأصرّ على إجبار فارس على السفر في الدرجة الثالثة مع جموع قومه، رغم البطاقة التي كان يحملها. وأصرّ فارس على الدرجة الأولى لأنّه كان يرى في هذا الرفض رفضاً لقبول وطنه على مائدة الأمم، فحاول الانزلاق من بين يديّ المراقب الذي دفعه بقوّة ورماه في الماء!

لم يخَفْ فارس وهو يسقط في ماء المحيط الأطلسي لأنّه كان غاضباً، لكنّه لمّا صار صراحةً في الماء وهو لا يجيد السباحة اضطرب وتحقّق من الغرق، لكنّه في الوقت نفسه كان متحمّساً للموت شهيداً من أجل وطنه، وأمام أبناء قومه المسافرين، الذين كان يشهدون على ما يجري، بل إنّه شعر بنوع من السعادة والرضى وهو يغرق، رغم اضطرابه العظيم، لأنّ أبناء قومه كانوا يرونه يغرق، ويعرفون لماذا، ولأنهم سيخبرون الناس جميعاً في الوطن وفي بلاد الاغتراب ما رأوه بعيونهم ولم يخبرهم به أحد، ولأنّ شعبه سيعدّه شهيداً من أجل استقلال الوطن الجديد، وسيعتبره منارة ترشد إلى الطريق المؤدّية إلى الهدف المنشود. وودّ لو يقول لهم وهو يغرق: ادفنوني في أرض بلادي ليُخصبها دمي فتُنبِت زهوراً حمراءَ قانيةً كلّ ربيع.

لكنّ القوارب الصغيرة كانت منتشرة بكثرة قرب الباخرة الأميركيّة العظيمة الحجم، فانتشلوه بسرعة قبل أن يبلع كثيراً من الماء ويهلك، ونقلوه إلى البرّ، فتجمّع حوله أبناء قومه وبخاصّة صديقه رشيد، واهتموا به وكان ما يزال هناك متسع من الوقت قبل أن يحين موعد إبحار الباخرة فذهب إلى السوق واشترى ثياباً جديدةً وعاد.

اشترى ثياباً غالية وعلى الموضة. أحدث موضة للرجال في فرنسا.

ومرّ بالفرنسي الذي باعه البطاقة وأخبره بما جرى له. فغضب الفرنسي وقال له إنّ الدستور الفرنسي يمنع التمييز بين البشر، ويجعل من الناس جميعاً مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، ولا يحقّ بالتالي لهذا الأميركي أن يمنعه مما أراد وهو ما زال في المياه الإقليميّة الفرنسيّة، ثمّ نادى على شرطة المرفأ وأخبرهم بما جرى، فاهتموا بالأمر وصعدوا إلى الباخرة وحقّقوا مع المراقب الذي أنكر أن يكون رماه في الماء قصداً، وقال إنّه كان يريد منعه فقط من الصعود إلى أماكن الدرجة الأولى، فاعترضوا عليه وقالوا إن في هذا السلوك مخالفة للقانون الفرنسي.

وهكذا كان فارس أوّلَ سوري مشرقي يُسافر إلى أميركا في الدرجة الأولى. وهو الذي فتح الطريق إلى ذلك. وتبعه آخرون. ولم يعد جميع الناس الآتين من شرقي المتوسّط مجبرين على السفر في الدرجة الثالثة، في أقبية السفينة وحجراتها التي تشبه الصناديق، أو في الصالات الواسعة التي كانت تضيق بالمسافرين المهاجرين إلى أميركا من فقراء أوروبّا ومن كل ناحية من العالم ومن مختلف شعوب الأمبراطوريّة العثمانية. كانوا يُحشرون كالبهائم وكانوا ينامون على بعضهم، وتفوح منهم رائحة الأوساخ والفحم الحجري والأجساد التي لم تغتسل منذ ولادتها.

رشيد مثلاً، صديق فارس، لم يغتسل بكامل جسمه طوال حياته، بل كان يغسل رأسه فقط مرّة كلّ شهر أو أكثر أحياناً. كان الناس في ذلك الوقت يخافون من الاستحمام. وكان الاعتقاد سائداً بأنّ الاستحمام يؤدّي إلى الإصابة بأمراض مميتة.

تمتّع فارس في الدرجة الأولى. كانت له مقصورته التي يستقلّ بها، وكان طعامه طيّباً ونظيفاً، بخلاف صديقه رشيد والآخرين

من أبناء وطنه الذين كانوا يمتنعون أحياناً كثيرة عن الأكل رغم جوعهم، لأنّ الأكل كان بلا طعم، وكان يوضع في سطول ومقال، ويوزع عليهم بكميّات محدّدة في صحون صغيرة وقليلة العمق. فكانوا لذلك يستعينون بما جلبوه معهم من أطعمة مجفّفة كالتين والزبيب، وشرائح اللحم المجفّف وأقراص الشنكليش واللبنة، يمدّون اليد إلى أكياسهم ويتناولون منها القليل كلّما ألحّت عليهم الحاجة، أو كلّما أرادوا الاتصال بوطنهم.

كان فارس في الدرجة الأولى، لكنّ قلبه وفكره كانا في الدرجة الدنيا، حيث يقيم أبناء وطنه في أتعس الظروف، وكان دائم الزيارة لهم، وكان يلتقي بهم أيضاً على ظهر السفينة حين يُسمح لهم بالصعود، وحيث شارك صديقه رشيد مرّة مأدبةً أقامها بلا سبب، وشرب معه كأس عرق على بضع حبّات من الزيتون، وقرصاً صغيراً من اللبنة المجفّفة، وقطعةً من الشنكليش. تربّع رشيد عند مقدّمة السفينة، وكان الطقس صحواً والوقت قبيل الغروب، وسكب كأساً له وكأساً لفارس وشربا نخب الوطن. وغنّى رشيد بصوته الجميل الجريح مواويل الفراق والحنين. وبينما هما كذلك فوجئا برؤية سيّدة شابّة من جنسهما تخرج من مقصورة بحّار، وتتجه إلى حافة السفينة وتستفرغ ما في أحشائها ثمّ تختفي حياء منهما.

ثمّ بدأ المحيط باللعب، وبدأت السفينة باللعب هي أيضاً! وبدأت تميل نحو اليمين ونحو اليسار بقوّة، وفي كلّ اتجاه، وكانا لم يُنهِيا كأسيهما بعد، فخاطب رشيد المحيط بعاميّته الجبليّة اللبنانيّة لائماً:

«عم تتمَرجَلْ يا طْلَنطيك؟»

ثمّ انتبه إلى أن هذه العبارة قد تكون مطلع بيت من الشعر الزجلي، ففكّر في إكماله ثمّ أحسّ بالعجز، خاصّةً أنّ السفينة كانت تدخل في منطقة عاصفة جدّاً. لكنّ هذه العبارة شكّلت في ما بعد مطلعاً لبيت من الزجل قاله الزجلي اللبناني الشهير طانيوس الحملاوي، بعد نحو من سبعين عاماً، عندما كان يشرب كأساً من العرق، وهو مسافر إلى أميركا على ظهر باخرة في المحيط الأطلسي، وقد بدأ المحيط يموج وتموج معه الباخرة، ويهتزّ كأس العرق حتّى انقلب، فخاطب المحيط عندذاك قائلاً:

عم تتمرجل يا طلنتيك

والحملاوي مسافر فيك

انْ ألله وصّلني عَ الشطّ

وانقَرتْ الدفّ بفرجيك

فهل بلغته عبارة رشيد، رفيق فارس في السفر، ورغبته في إكمال البيت؟ أم أنّ كثيراً من هؤلاء الناس الذين اجتازوا المحيط آتين من قراهم الجبليّة اللبنانيّة في الغالب، والذين لم يروا البحر من قبل، قد استفزّهم المحيط وتحدّاهم بأطواره، وشعروا بالعجز تجاهه، فلاموه لكونه يتحدّى رجالاً عزّلاً ونساءً مرضعات وأطفالاً لا حول لهم ولا قوّة، وإنّ هذا ليس من شِيَم الرجال؟ «أيتمرجل» المحيط لأنّه ضرورة لهم لا يستطيعون الاستغناء عنها من أجل الوصول إلى مبتغاهم، أميركا؟ لماذا يضطرب المحيط إذا ما ساروا على سطحه ناشدين السلامة لا الأذى؟

وقد عدّ هذا البيت في ما بعد من أجمل شعر الزجل.

عندما هدأ المحيط بعد أيّام من الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة، عاد فارس ورشيد إلى الاهتمام بأمر المرأة التي شاهداها تخرج من مقصورة البحّار وتتقيّأ، فراقباها بحذر وبشيء من الخفر أيضاً، وسألا عنها وعرفا من هي ومن أيّ قرية جاءت. كانت هذه السيّدة مسافرة لتلحق بزوجها الذي هاجر منذ سنتين، بعد زواجهما بأيّام، وكان على اتصال دائم بها يكتب لها مشتاقاً ويرسل لها حاجتها ما استطاع، لأنّ أوضاعه من حيث العمل والمسكن لم تكن تسمح له بأكثر من ذلك ولم تكن تسمح له باستدعائها للإقامة معه، إلى أن تحسّنت أحواله وأقام في محيط شارع واشنطن في نيويورك في غرفة بمفرده. كانت امرأة ممتلئة دون بدانة أو ترهّل، وكانت متوسّطة الطول، ولون بشرتها حنطيّ يميل إلى السمرة. وصار اسمها «المرأة» حين كانا يتناولانها بالكلام دون أن يذكرا اسمها، كأنّ ذكر الاسم يعرّضهما شخصيّاً للإهانة. تحدّثا كثيراً في موضوعها، وكان رأي رشيد أنّه لا يجوز لها أن تزور هذا البحّار في هذه المقصورة، وأنّها بذلك تدنّس شرفها وشرف زوجها وشرف عائلتها، وشرف جميع المسافرين السوريين أبناء قومها معها، وأراد رشيد أن يضربها ليمنعها عن ذلك، لكنّ فارس ردعه بقوله إنّ القوانين السارية المفعول هنا في الباخرة هي قوانين أميركيّة، وستطبّق عليه إن ضربها، وإنّه إذا ادّعت عليه يُسجن، والنساء في أميركا حرّات، ويمشين في الشوارع وهنّ سافرات ـ كما رأيناهن في باريس ومرسيليا ولوهافر ـ ويسكرن كالرجال، ويترنحن في الشوارع مثلهم، لكنّ الغالبيّة منهنّ فاضلات، والكثيرات منهنّ مثال التقى والآداب الرفيعة، ويترأسن الجمعيّات الخيريّة التي تعيل البائسين وتغيث الملهوفين، وهن يتنزّهن عن كلّ ما يشين أو يلحق العار بهنّ أو بعائلاتهن. ولهنّ أعظم نصيب في رفع شأن الأمّة، وقد صحّ فيهنّ قول المتنبّي:

ولو كان النساء كما فقدنا

لفُضّلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التذكير فخر للهلال

أتعرف من هو المتنبي يا رشيد؟ سأله فارس، فأجابه فارس بالنفي، فقال له إن المتنبي هو من أهم الشعراء العرب، ومنهم من يعدّه أهمّ شاعر عرفته لغتنا العربيّة العظيمة، وكان يرى نفسه فوق الناس بحيث إنّه قال يوماً عن نفسه:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لكنّ فارس ورّط نفسه بإنشاده هذه الأبيات، لأنّ رشيد كان جاهلاً القراءة والكتابة لا يميّز الألف من صارية السفينة، فسأله أسئلة كثيرة حتّى استطاع فهم معنى البيت. سأله عن معنى كلمة بيداء وعن معنى كلمة قرطاس، وسأله عمّا يقصد من كلمة تعرفني، وكان على فارس أن يجيب عن جميع هذه الأسئلة حتّى يبلغ مراده، الذي كان تعريف مواطنه الأمّي بواحد من أعظم شعراء لغته العربيّة، وقد اختار له هذا البيت لأنّه يمجّد الشجاعة والفكر في آن معاً.

أمّا عن اسمه، فقد سمّي كذلك لأنّه ادّعى النبوة.

ـ معقول؟ قال رشيد مندهشاً. لكنّ فارس لم يُجبه بشيء.

وكان فارس منزعجاً من سلوك هذه المرأة الشابّة، وكان سبب

انزعاجه كما عبّر عنه لرشيد وطنيّاً أوّلاً، على أساس أنّها بسلوكها هذا تُعطي انطباعاً سيّئاً عن وطنها، لأنّ البحّارة وطاقم السفينة والمسافرين من الجنسيّات المختلفة قد يظنّون أنّ جميع بنات وطنها من نوعها. هذا بالإضافة إلى أنّها تخون زوجها المهاجر الذي يشقى ليل نهار، ويسعى في البرد والحرّ، وفي المدن والبراري، وحيداً كالمشرّدين لا يعرف في أي ديار يبيت ليلته، ولا في أي طقس ماطر أو مثلج، من أجل أن يؤمّن لها وللعائلة المقبلة لقمة العيش ومستقبلاً كريماً وزاهراً. وكانت أخبار معاناة المغتربين من جبل لبنان ومن بلدان سوريّة العثمانيّة كافّةً، معروفةً لدى القاصي والداني. كان معروفاً أنّ غالبيتهم الساحقة يعملون بائعي كشّة، ويتعرّضون لأنواع الصعوبات التي لا عدّ لها ولا حصر: اللغة وجهل عادات البلاد والمناخ والعنصريّة بسبب اللون والدين، والمسافات الطويلة التي كان عليهم أن يقطعوها ليبيعوا محتويات الصناديق التي كانوا يحملونها على ظهورهم، أو يعلّقونها في رقابهم، وهي مليئة بالأمشاط ومغيط الثياب والدبابيس ومشكّات الشعر وأزرار القمصان والأكمام، والبَكَر والخيطان والإبر والمقصّات والكشاتبين والحلَق وجزادين الجلد والأساور والعقود، وما إلى ذلك مما كانت تحتاج إليه ربّات البيوت البعيدة والمنعزلة.

وكان العمل بالكشّة أصعب عليهم حتّى من العمل في المصانع، لكنّهم اختاروه لأنّه يؤمّن لهم حرّيّة لا تؤمّنها المصانع.

ثمّ تأتي الزوجة وتخونه مع غرباء..! هذا أمر غير مقبول.

لأسباب قوميّة وإنسانيّة كان انزعاج فارس إذن، ولو كانت هذه المرأة من أمّة عظيمة متقدّمة وكان زوجها ميسور الحال لما شعر بما شعر به.

من ذلّ!

يجب الانتصار على الفقر والحاجة والجهل! لقد كان محقّاً في تحمّل مشقّة السفر. ما من شيء في هذه الحياة إلّا يُعطيه الحقّ في ذلك.

لم يكنْ والدُه في انتظاره ولم يفاجئه ذلك، ولم يكن بين المنتظرين على رصيف المرفأ أي أحد من جبل لبنان أو من بلدان سورية كلها. وذلك بكلّ بساطة لأنّ ركّاب الدرجة الأولى كانوا يعاملون بشكل مختلف، وكان أغلبهم من الأميركيين. خرج إذن فارس إلى البرّ بسرعة، فيما كان على المسافرين الآخرين من أبناء جنسه، ومن كلّ الأجناس أن ينتقلوا في باخرة أخرى إلى مكان مخصّص للتأكّد من الهويّات وللمراقبة الصحيّة، وكان عليهم أن يمضوا هناك أيّاماً طويلة قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى مدينة نيويورك.

كان في استطاعة فارس أن يذهب في الحافلة الآليّة، أو الترامواي، من المرفأ إلى حيث يسكن والده، لكنّه فضّل أن يأخذ عربة وحده لتنقله مع أغراضه دون أن يجرّها ويتعذّب بها في الحافلة كما يتعذّب بأغراضهم أهل قومه. وكان يحفظ العنوان ولم يكن بحاجة إلى التأكّد منه حيث دوّنه في دفتر.

وصل فارس إلى البيت ولم يكن والده في انتظاره، وفكّر في أنّ والده قد يمكث في المرفأ في انتظار مجيئه ساعات طويلة، فقرّر أن يذهب هو لعنده، وطلب لذلك من الجيران بعدما عرّفهم عن نفسه بإنكليزيّة أثارت إعجابهم بأنّه ابن منصور السوري من جبل

لبنان الذي يسكن هنا. وأخبرهم بأنّه كان يتعلّم الطبّ في بيروت، وقد جاء إلى هنا ليُكمل دراسته، وليعود من ثمّ إلى وطنه، فازداد إعجابهم به، ورحبّوا به وطمأنوه على أغراضه. وأحبّ أن يُخبرهم عن اقتناعه بنظريّة دارون وأن يسألهم عن رأيهم فيها، لكنّه تريّث متذكّراً الفرنسي الذي باعه بطاقة السفر. وأراد أن يُخبرهم أيضاً بأنّه جاء إلى هنا أيضاً ليتعلّم حضارة الأمّة الأميركية العظيمة، ولينقل المناسب منها في ما بعد إلى وطنه. لكنّه قال في نفسه إنّ المناسبة قد تأتي.

تصرّف فارس كمواطن زائر متحضّر، اشترى خريطة المدينة وخطّ سير الحافلات، وتعيّن المحطّات التي تمرّ بها الحافلة التي تقود إلى المرفأ الذي ينزل فيه الناجون من تجربة المراقبة الصحيّة (القليل النادر في الحقيقة كان من لا ينجو من هذه التجربة.)

فارس بن منصور بن هاشم هو أوّل سوري اشترى خريطةً في مدينة غريبة ومشى مستدلاً بها!

وركب في الدرجة الأولى، بخلاف الغالبية العظمى من سكّان مدينة نيويورك. وكان عمليّاً الأسمرَ الوحيد في هذه المقصورة التي كانت خالية من أيّ أسود أو سوداء. كان يشعر أنّه أكثر اسمراراً منه في بيروت! ونظر إليه بعضهم صراحةً بازدراء بادٍ، ومنهم من نظر إليه من طرف عينه ثمّ تجاهله، لأنّ مَنْ مثله لا يتنقّل في الدرجة الأولى. ومنهم من تصرّف تجاهه كما يتصرّف تجاه أي راكب آخر. لكنّ فارس كان دائماً رافعاً رأسه شامخاً بأنفه، يتطلّع حوله ليتأكّد من أن كلّ ما عرفه عن نيويورك عن طريق أساتذته المبشّرين أو بواسطة القراءة والسمع والصّورة هو صحيح. ولو بادر أحد منهم إلى سؤاله عن سبب ركوبه الدرجة

الأولى، لكان أخبره بصوت عال ليسمعه الجميع أنّه أنهى السنة الثانية في الطبّ، وأنه جاء إلى أميركا ليُكمل دراسته، وأنّه عائد إلى وطنه بعد ذلك، لكنّه لن يقول لهم بأنّه جاء ليعبّ ما أمكن من حضارة الأمّة الأميركية العظيمة لينقلها من ثمّ إلى بلاده. لم يرد أن «يحطّ من واطي!» أمامهم حتّى ولو اضطُرّ.

حين وصل إلى المرفأ كان هناك كثير من الناس المتجمهرين في الأمكنة القريبة من مرسى البواخر. لكنّه سرعان ما وقعت عيناه على والده، فاندفع نحوه وهو يناديه. كان ينادي بالعربيّة كأنّه في بيروت:

- بيي! بيي!

وظلّ مندفعاً ينادي والده حتّى اقترب منه وسمعه والده الذي اضطرب لرؤيته آتياً من المكان المعاكس.

كان والده يراقب الواصلين ويتفحّصهم واحداً واحداً، وكان خائفاً من أن يفوته التعرّف إلى ابنه فيمرّ إلى مركز المراقبة الصحيّة دون أن يراه أو يتعرّف إليه. سنوات طويلة من الغياب كبر فارس أثناءها، ولا بدّ أن تكون ملامحه تغيّرت.

رشيد مرّ دون أن يتعرّف إلى والد فارس، مع أنّ فارس وصفه له، وطلب منه أن يقول له، إن استطاع، بأن ينتظره في البيت. لكنّ رشيد انشغل بأقربائه الذين كانوا يتجمهرون لرؤيته يمرّ ويتأكّدون من وصوله سالماً. ثمّ إنّ مخاطبة الآخرين المنتظرين لم يكن أمراً سهلاً.

سأله الوالد عن أغراضه فطمأنه إلى أنّها عند الجيران! وأخبره

كيف قطع المحيط في الدرجة الأولى وكيف كان مكرّماً وفخوراً. وكان والده يحاول أن يعرّفه على الشوارع التي كانوا يجتازونها، والمباني الشاهقة التي كانوا يمرّون أمامها، لكنّ فارس كان يسبقه كلّ مرّة ويقول له اسمَ الشارع الذي بلغوه، واسم البناية التي كانوا يمرّون إزاءها، وكان والده في كلّ مرّة يزداد تعجّباً.

كان فارس في الحقيقة يتذكّر ولا يكتشف! كان يعرف هذه الشوارع وكان يعرف أسماء هذه البنايات. وكان يعرف اسم مقبرة سان جان في آخر برودواي بل كان يحفظ أسماء بعض المدفونين فيها، ومواقع مدافنهم من المقبرة!

ـ إنّني أتذكّر! قال مجيباً والده الذي كان يبدي كلّ مرّة مزيداً من التعجّب ويسأله كيف يعرف ذلك ومن أين.

لكنّ والده لم ينتبه إلى ما قاله ابنه.

لم يجد فارس نفسه في عالم جديد، ليس لأنّه مرّ في مرسيليا وفي باريس، بل لأنّه كان يعرف هذه المدينة وكأنّه عائد إليها وليس ذاهباً إليها لأوّل مرّة.

صحيح أن من يسمع ليس كمن يرى، لكنّه لم يكن مندهشاً كما يندهش السوريّون المهاجرون من جبل لبنان. فهو لم يُفاجأ باختفاء كلّ ما هو تركي عثماني، ولم يُفاجأ بأضواء الكهرباء، وبالقطارات وحافلات الشوارع، والشوارع المبلّطة والبنايات الشاهقة، والملابس والروائح ـ الروائح بخاصّة ـ وواجهات المحلات والناس والنساء سافرات وبمفردهنّ وما إلى ذلك، لأنّه كان سمع به وقرأ عنه، ولأنّه شاهد شيئاً منه في مرسيليا الفرنسيّة

وفي باريس إحدى عواصم الدنيا! ومع ذلك فإنّه كان يعيش تجربة لم يعشها من قبل.

لكنّ الهدف الذي جاء من أجله كان يشغله في الحقيقة عن كلّ شيء، ولم يغب عن باله لحظة ولن يغيب. لذلك فإنّ أوّل حديث جدّي مع والده كان عن هذا الموضوع، فأعلمه والده بكلّ أحواله، وأخبره بأنّه قد استعلم عن كلفة التخصّص في الطب، وأنّ ما يملكه غير كاف تماماً وأنّه ربّما بعد سنة أو اثنتين من الادّخار سيكون بإمكانه دفع الكلفة.

أدرك فارس بسرعة أنّه لا يستطيع الاتكال بالكامل على والده، وأنّ عليه أن يعمل قبل أن يتمكّن من الالتحاق بالجامعة ليتابع تخصّصه. وكان هذا قراره منذ تلك اللحظة دون حقد على أبيه، ولا حتّى عتب. ولم يندم على السفر في الدرجة الأولى والامتناع عن النزول في الفنادق الشعبيّة الرخيصة. لم يحسب ذلك هدراً، بل حسبه حقّاً له واحتراماً للنفس والوطن.

ثمّ إنّ والده نصحه بأن يرتاح عدّة أيّام من تعب السفر قبل أن يبادر إلى العمل. لكنّه لم يكن متعباً كما يتعب سائر المهاجرين في الدرجة الدنيا، ولم يكن لديه وقت ليُضيعه، لأنّ المستقبل ينتظره والوطن ينتظره. وهكذا بدأ يشتري الجرائد في اليوم التالي لوصوله، وراح يقرأ عروض العمل، ويضع إشارات على العروض التي تناسبه. وكان يذهب على المواعيد بعد أن يدرس العناوين على الخريطة. لكنه لم يكن يوفّق. كان في كلّ مرّة يصل متأخراً:

ـ سوري؟ هناك من سبقك واتفقنا معه!

ودامت هذه الحالة أكثر من أسبوع، لم يكن أثناءه يوفَّق بعمل، ثمّ

نصحه أحدهم بأن يذهب إلى أمكنة العمل بالذات ليسأل أصحابها عمّا إذا كانوا بحاجة إلى عامل. وكان أغلب هذه الأمكنة محلات للبيع. لكنّه أيضاً لم يوفّق. وأحسّ بالفشل وبأن الأفق يضيق، بل إنّه أحسّ مرّة بأنّ الهواء نفسه ينقص، وأحسّ بصعوبة في التنفّس وخاف. وبدأ يشعر أنّه فعلاً غريب عن بلد أحبّه وطالما حلم به. وبدأ ييأس من إمكانيّة أن يجد مكاناً لائقاً له تحت سماء هذه البلاد ولو مؤقّتاً، حتّى يستطيع إنهاء دروسه فقط والعودة إلى الوطن.

لكن والده الذي خبر البلاد، كان دائماً يطمئنه ويؤكّد له أنّه سيجد عملاً وأنّه في أسوأ الحالات يمكنه أن يعمل معه بالكشّة: تحمل صندوقاً تملؤه من هذه الأغراض، وتسير معي أوّلاً، ثمّ تتحرر منّي في ما بعد وتعمل وحدك على هواك.

أدرّبك على المهنة أوّلاً: أدلّك على الطرقات وأعلّمك كيف تخاطب الناس وبخاصّة النساء منهم، حتّى لا يخافوا منك، وأعلّمك أين تنام، وكيف عليك ألّا تتأخّر لئلّا يفاجئك الليل في مكان قفر أو يفاجئك المطر والثلج والجليد.

ثم جاءه في هذه الأثناء أحد أقربائه، وعرض عليه مرافقة أخته «جميلة»، التي كان عمرها حوالى أربعين عاماً، وكانت تعمل بالكشّة منذ خمسة وعشرين عاماً، خمسة أعوام منها عزباء وعشرون منها أرملة، إذ لحق بها خطيبها، وكان ابن عمّها، بعد خمس سنوات من التردّد لأنّه كان يخاف من البحر، وسافرت بدونه بعد أن وعدها بأن يلحق بها في أسرع وقت ممكن، لكنّه كان يتأخّر دائماً لشدّة خوفه، ثمّ بعد إلحاح منها وتهديد له بالهجر قرّر السفر لعندها، لكنّ التعيس البائس مات وهو على

الباخرة في مكان ما مِن المحيط الأطلسي، قبل أسبوع من الوصول إلى نيويورك، وأُلقيت جثّته من على سطح الباخرة إلى ماء المحيط، «وأكلته الأسماك!» كما كانت تقول جميلة بحسرة كلّما أرادت الكلام عليه.

لا تأكل جميلة السمك منذ ذلك الوقت إطلاقاً.

وكان خطيبها وابن عمّها شابّاً جميلاً وقويّاً:

ـ مثل القمر!

وكان طيب الحديث، طيّب العطر، أنيساً، مبتسماً على الدوام، وكان «تِكلة» شجاعاً مقداماً، وكانت رائحة فمه كالمسك!

كان فارس يشعر بالضياع عندما كانت قريبته الأرملة «جميلة» تقول له ذلك، وكان لا يفهم لقولها معنى أو مغزى أو هدفاً. وكان كلّما قالت له ذلك يضع كفّه أمام فمه ويلهث عليه ليشمّ رائحة نفسه ويتأكّد منها.

حزنت جميلة لوفاة خطيبها، ونذرت من بعده العفّة وقرّرت ألّا تتزوّج أبداً، وكانت تعرّف عن نفسها بأنّها أرملة مع أنّها لم تتزوّج.

فرافقها فارس بناءً على نصيحة قريبه، ومباركة والده، ورحّبت هي بما طلبه منها أخوها.

وهكذا بدأ فارس رحلته بائعَ كشّة.

في الأيّام الأولى كان يراقب ما تقوم به قريبتُه وهو يرافقها من باب إلى باب. ثم بعد أيّام من المراقبة طلب من والده أن يعطيه كَشّةً ويملؤها له بالبضاعة فأعطاه، وذهب في جولة بيع برفقة جميلة إلى نيوجورسي القريبة من نيويورك، وكانت مفاجأة عند الجميع بأنّه باع أكثر من جميلة ذاتها، جميلة المكتملة الجمال وصاحبة الخبرة والتي توحي بالثقّة.

وبعد أيّام قليلة طلب من والده أن يعطيه كشّةً صغيرة وأن يملأها له بما خفّ وزنه وغلا ثمنه، من نوع شالات الحرير، وأغطية الطاولات الحرير والعقود والأساور الغالية، بدل البضاعة الثقيلة الوزن تلك والرخيصة الثمن التي كان يضعها في صندوق كبير. وعند عتبة أوّل باب طرقه باع سيّدة البيت شالاً من الحرير وعقداً وإسوارة. ودفعت له هذه السيّدة الثمن الذي طلبه دون مساومة، وأعطته فوق ذلك «بخشيشاً». فخجل من نفسه لأنّه رفع سعر ما باعها إيّاه ظانّاً أنّها ستساوم كما يفعل الناس في بلادنا.

ـ إنّه شعب طيّب! قال في نفسه.

وكان يتفق مع جميلة على أن يلتقيا في مكان محدّد قبل المغيب، ليعودا معاً إلى مكان منامتهما، وكانت تتأخّر أحياناً فينشغل باله. ومرّةً انتظرها تحت شجرة قرب غرفة خشبيّة لا أحد فيها، وتأخّرت ولم تأت إلّا بعد أن حلّ الليل واختفت معالم الطريق.

ـ تتأخّرين دائماً! قال لها معاتباً.

ـ وفي البيوت ذاتها! أضاف لائماً.

وبرد الجو وفاجأهما المطر، فخلعا باب الغرفة واحتميا في داخلها،

ثمّ إنّها طلبت منه أن يلتصق بها حتّى يُدفئ بعضهما بعضاً، فتردّد ثمّ سبقته إلى ذلك وغمرته والتصقت به بقوّة حتّى لا تترك فراغاً بين جسديهما يمرّ فيه الهواء البارد. وبعد مضيّ ساعة من الوقت أملا أثناءها أن يتغلّبا على البرد، فوجئا بأنّ البرد يزداد، وبأنّ ساعة الطمأنينة مع تقدّم الليل ولّت، وخاف فارس أن يموت في تلك اللحظة، في بلاد الغربة دون أن يحقّق أيّ حلم من أحلامه، فبكى من دون أن يلفت انتباه قريبته، التي أحسّت بانشغال باله وخوفه، فأشارت عليه بأن يسحب من كَشَّتَيهما كلّ ما هو قماش ليلتحفا به، لأنّ الحياة أغلى من كلّ شيء، ثمّ خرجت من الغرفة وغابت قليلاً وعادت شبه مبتلّة ومعها حزمة من الأغصان، وفتحت قنّينة من العطر وسكبت منها على غطاء طاولة من حرير وأشعلته تحت القضبان.

كانت القضبان مبتلّةً ولم يكن اشتعالها سهلاً، ولمّا اشتعلت أخيراً بعد جهد وصبر طويل، وتصاعد منها لسان من النار أنار الغرفة، بَانَ لهما أنّهما في مقبرة، بين تابوتين مهترئين من قِدَمهما، وقد بدا منهما هيكلان عظميّان، فولولت جميلة وصارت في لمحة بصر في الخارج تحت المطر، أمّا فارس فتمالك نفسه، وتذكّر سرقة الجثث من المقابر، فخرج ليقنعها بالعودة إلى الداخل حتّى لا تموت من البرد والمطر، فقبلت وعادت لكنْ مغمضة العينين تخبّئهما بيديها، ثمّ حرّرت يديها بعدما عصب لها عينيها بفوطة من حرير، حتّى لا تفتحهما عفواً ويقع نظرها على التابوتين وما فيهما. ثم التصق بها بقوّة حتّى لا يدخل الهواء البارد بين جسديهما، وتمدّدا قرب النار ليغفوَا لحظةً ويصحوَا أخرى. وداما كذلك ملتصقين ولم يكن البرد الداعي الوحيد، حتّى اقترب الفجر، وكانت السماء ما تزال تمطر وكانت حبّات المطر مزيجاً

من الماء والثلج، فخافا من أن يتحوّل المطر إلى ثلج صريح يقطع عليهما الطريق، فقرّرا الانطلاق إلى أقرب مكان آهل.

وعندما اكتمل الصباح وبانت الأشياء، خجل فارس من أن ينظر صراحةً إلى وجه قريبته جميلة، وتساءل عمّا إذا كانت الأمور التي جرت بينهما طبيعيّة بالنسبة إليها إلى هذا الحدّ البادي عليها.

ثم انفرد فارس بعد مدّة بعمله وصار يجول وحده، وكانت ربّات البيوت تبتهج بلغته الإنكليزيّة المثقّفة، التي كانت تثير فضولهن وتدفعهنَّ إلى طرح الأسئلة عليه، وكانت هذه مناسبة لديه للكلام على بيروت، وعلى المدارس الكثيرة المنتشرة فيها والتي تعلّم اللغات الأوروبيّة والأميركيّة، وكان لا يتردّد في إخبارهنّ عن أنّه أنجز السنة الثانية في الطب، وأنّه يعمل ليدّخر ما يمكّنه من متابعة دراسته. وكنّ غالباً ما يستمتعنَ بهذه الأخبار ويسألنه المزيد منها، ويدعونه إلى داخل البيوت ويقدّمن له طعاماً وشراباً. وكان بعضهن يحاول الاستفادة من معلوماته الطبية فيسألنه عن آلام يشعرن بها، ومنهنّ كنّ يحتججن بذلك. وكان يتردّد في الإقدام أوّلاً ثمّ صار يُقدم. ومرّة هرب من الشبّاك عندما فاجأه الزوج.

كان فارس يشعر بالفخر حين يُقدم مع ربّات البيوت، وكان يشعر أنّ أميركا ليست عصيّة بل ممكنة.

وقد جال على كلّ القرى وأطراف المدن المحيطة بمدينة نيويورك، وكان يبات الليالي في منازل للمنامة رخيصة الثمن.

ونام مرّةً في «مونت كلير» في نيوجرسي، في علّية فوق دكّان لأحد اللبنانيين، وكان ينام معه عدد من اللبنانيين الآخرين البائعين الجوّالين مثله، ولم يكن هذا بغريب ولا بالشيء الذي يُذكر، لولا

أنّ الشرطة دهمت المحلّ تلك الليلة، وسحبت بائعَين اثنين من نومهما كانا قربه. كانا متّهمين بالسرقة. وقد خاف على نفسه. وحزن حزناً مضاعفاً، لأنّ السارقَين من بني قومه، ولأنّ السرقة عيب بحدّ ذاتها لا ترضاه أخلاق أيّ جنس كان من البشر.

وهو في الحقيقة لم يكن راضياً عن سلوك بني قومه عموماً في الولايات المتّحدة، وخاصة في ما كان يُسمّى ليتل سيريا (Little Syria) وهي المنطقة المؤلفة من شارع واشنطن وبعض الشوارع المتفرّعة منه، حيث كان التجمّع الأهمّ للمهاجرين الآتين من مناطق سورية العثمانيّة وبخاصّة من جبل لبنان. لذلك فإنّه قرّر الابتعاد عنهم هرباً من مشاكلهم ومن «فايروسات» التأخّر التي يحملونها معهم من بلادهم. فكم مرّة تدخّلت الشرطة النيويوركيّة لحلّ مشاكلهم. وقد تضاربوا يوماً بالعصيّ والسكاكين، ووقع جرحى نقلوا إلى المستشفى، وكانت أكبر «المعارك» تحدث بين الروم والموارنة، لأنّ المهاجرين الدروز والسنّة والشيعة كانوا قليلي العدد جدّاً يوم ذاك لا يشكّلون أقليّةً بالحدّ الأدنى الضروري لإثبات الوجود وإثارة المشاكل.

وكتبت جريدة النيويورك تايمز عن حادثة تضارب وقعت يوماً في واشنطن ستريت اشترك فيها أقرباؤه وجُرح عدد منهم لم ينقلوهم إلى المستشفى خوفاً من أن يُقبض عليهم ويُحاكموا، وكان أحدهم في حالة تستدعي نقله إلى المستشفى. وأُجبر فارس بالذات على مداواته، ولو أنّ الشرطة عرفت بذلك لزجّته في السجن ثمّ طردته من البلاد. لكنّ فارس كان مرغماً على فعل ذلك، وقد فكّر مراراً بأن يُخبر الشرطة لكنّه خاف، لأنّ مبادرةً كهذه لا يمكن لأبناء قومه أن يميّزوها عن الخيانة.

قرّر فارس الابتعاد سريعاً عن شارع واشنطن، وأقام وحده بعد أيّام من الحادثة في شارع «غراند ستريت» على بعد بنايتين من برودواي، في غرفة صغيرة في الطابق الأوّل فوق محلّ لتصليح الأحذية. وكانت المواصلات من هذا المكان سهلةً جدّاً إلى كل أنحاء نيويورك وإلى الضواحي والمدن والقرى المجاورة.

وفي هذه الأثناء التقى فارس من جديد «حسنا» ابنة قريته براشا التي أقام معها علاقةً لمدّة وجيزة. كان والدها متورّطاً في الحادثة وجُرح جرحاً خفيفاً بضربة سكّين لم تتمكّن منه، وتوارى أسابيع قليلة عن الأنظار حتّى يزول كلّ أثر للجرح، وزاره فارس بعد إلحاح من والده وبرفقته، والتقى هناك حسنا وكان هذا ما يتوقّعه. بل كان هذا ما يخطّط له والده بالتأكيد، لأنّ أخبار علاقتهما السابقة بلغته من إخوته في جبل لبنان ومن مصادر أخرى.

وسُرّ فارس كثيراً للقاء حسنا التي رآها جميلة وناضجة وشهيّة. وتواعدا والتقيا مراراً بالسرّ عن الأهل، لكنّها في الأخير أصرّت عليه أن يطلب يدها من والدها وأن يعقدا خطبتهما رسميّاً على أن تنتظره بعد ذلك ما شاء. وهكذا كان، وقرّرا الزواج حال أن يُتِمّ فارس تخصّصه. وتمّت الخطبة في حضور والده ووالديها والأقرباء والأصحاب.

وكانت خطبة فارس دافعاً إضافيّاً له إلى العمل والاقتصاد، وهو كان في الأصل مقتصداً ما استطاع، لا يتعدّى مصروفُه اللازمَ والضروريَّ إلّا من وقت إلى آخر حين يزور مومساً، وهذا عنده كان ضروريّاً، لأنّ المومس كانت مدخلاً إلى كلّ بلاد يقوده عمله إليها، وكانت مؤنساً من وحشة الاغتراب عن الوطن. ثمّ إنّ الأمور بعد الخطبة لم تتغيّر كثيراً، لأنّ خطيبته حسنا كانت تبقى

في نيويورك، فلا يراها إلّا عند عودته مرّة في الأسبوع، وأحياناً أكثر، وكانت عذراء لا تسمح له بمزيد من الحريّة في التعامل مع جسدها قبل الزواج، ولا هو يسمح لنفسه بالذهاب بعيداً معها. وهو، إضافةً إلى كلّ ذلك، يحبّ المومسات منذ فتح عينيه على عالم اللذة، ولا يرى أيّ ضرر في معاشرتهنّ.

وكان في تلك المرحلة يعاشر من المومسات الرخيصات الثمن، وهؤلاء كنّ أميركيّات وأوروبيّات متقدّمات في السنّ أو إيطاليّات ويونانيّات أكثر شباباً، أو صينيّات وآسيويّات شابات.

ثمّ وجد فارس طريقةً أخرى للربح والادخار مساعِدة لعمله الأساسي بالكشّة. وكان لرسائل التزكية التي كتبها له أساتذته والمبشّرون الآخرون فائدة فائقة الأهمّيّة في هذا المجال غير المتوقّع.

كانت هذه الرسائل تساعده على إيجاد عمل من وقت لآخر، يكسبه بعض المال، وكان هذا العمل إلقاء محاضرات عن فلسطين، البلد الذي ولد فيه السيّد المسيح. كان كثير من الأميركيين في ذلك الوقت يتشوّقون لمعرفة أشياء عن هذا المكان، ويتمتّعون بسماع أخبار عنه. وكان فارس ينجح في أن يُستدعى من وقت إلى آخر لإلقاء محاضرة عن مكان هو منه، فكان يخبرهم عن عيش الناس فيه وعن مسكنهم ومأكلهم ومشربهم وعاداتهم في الزواج والولادة والموت. كانوا يتمتّعون كثيراً حين كان يصف لهم بيوت أقربائه في الضيعة التي هجر منها والده: كانت بيوتهم من غرفة واحدة جدرانها من حجر،

وسقفها من تراب بسماكة عشرين أو ثلاثين سنتمتراً يستوي على جسور وألواح من خشب فوقها أشواك من نوع البلّان، وكانت الغرفة مستطيلة الشكل يُخصّص القسم الأكبر منها للإقامة، أي للنوم والأكل والجلوس والاستقبال والقسم الثاني وهو أصغر وأدنى مستوى من الأوّل يُخصّص للحيوانات:

ـ في مكان مثل هذا ولد يسوع! كان فارس يعلّق قائلاً.

وكان يصف لهم الجبال والوديان والسهول، وشاطئ البحر المتوسّط، والثلوج على قمم جبال لبنان، وشجر الأرز المعمّر آلاف السنين، الذي بُني منه هيكل النبي سليمان وقصور الأباطرة والملوك، والذي بُنيت منه أساطيل الفينيقيين واليونان والرومان والعرب ليغزوا بها الدنيا.

كان فارس يصف المنطقة كما هي موصوفة في التوراة التي كانوا يعرفونها جيّداً، ويتوسّع في هذا الوصف انطلاقاً من التوراة، وكان إذا أراد تقريب شيء من أذهانهم توسّل التوراة. كان فارس يريد بهذا أن يحبّب بلادنا إليهم. إنّها في أذهانهم أرض النبوءات، وقد دعّم في أذهانهم هذا التصوّر.

لم يكن فارس مؤمناً وممارساً كما كان الكثير من الناس في ذلك الوقت، ولكنّه كان يقرأ صفحات من التوراة قبل أن يذهب ليحاضر.

كان على فارس أن يجني المال ليتابع دروسه. لم ينسَ ذلك لحظةً. وكانت عينه تدمع دائماً في مناسبة واحدة فقط، وهي حين كان يمرّ قرب جامعة ويرى الطلّاب تحت آباطهم كتب، وهم متحلّقون أو يروحون ويجيئون.

ومرّةً كان يمرّ حاملاً صندوقه الصغير قرب جامعة «يال» في مدينة «نيوهايفن» في ولاية «كونكتكت»، وكان قاصداً ضيعةً صغيرة فيها سيّدة قال له أحد الباعة السوريين إنّها تريد عقداً من ذهب لابنتها، وشالاً من حرير لها هي. كان واقفاً ينظر إلى الطلّاب ويتذكّر السنتين اللتين قضاهما في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وإذا برجل يتقدّم منه ويطلب منه إبراز التصريح بالعمل بائعاً متجوّلاً، ففوجئ فارس بهذا الطلب، وانتبه إلى أنّ الرجل شرطيّ وإلى أن الطلب جدّي، فأجابه بأنّه لم يسمع إطلاقاً بأنّ البائع المتجوّل بحاجة إلى تصريح، فأجابه الشرطيّ:

ـ ألم تتعلّم ذلك في بلادك؟

يحبّ فارس أميركا لكنّه لا يحبّ أن تُذمَّ بلاده! لا يحبّ هذا النوع من الكلام الذي جاء على لسان هذا الشرطي.

يحبّ فارس أميركا، ويعرفها ويعرف تاريخها وجغرافيّتها واقتصادها وحضارتها، أكثر ممّا يعرفه هذا الشرطي.

ويعرف فارس قيمة أميركا وأهميّتها في العالم، أكثر ممّا يعرفه هذا الشرطي. لكنّه لا يحبّ هذا الكلام.

أميركا قياساً إلى السلطنة العثمانيّة.

أميركا الحريّة، والحياة الكريمة، واحترام الإنسان والقانون والمؤسّسات.

وأميركا حريّة المرأة في العمل وفي اختيار الزوج، بل أكثر من ذلك، إنّ فارس يرى أنّ هناك فائضاً من الحرّيّة بالنسبة إلى المرأة

في أميركا في بعض الأوساط، فهي تتمتّع بحقّ اختيار العزوبيّة والعيش بمفردها في المكان الذي تريد، بل ومع من تريد وبدون زواج أحياناً.

هذه كلّها لا وجود لها في سوريّة العثمانيّة. يعرف فارس ذلك خير معرفة لذلك هو لا يحبّ هذا الكلام.

ثمّ أضاف الشرطي:

ـ ألم يعلّمْكَ أحد في بلادك أنّه لا يُفترض في أحد أن يجهل القانون. وأنّ جهل القانون ليس حجّةً لمخالفته؟

احتار فارس في ما يجيب. ثمّ بلغت دهشته أقصاها حين أمسك به الشرطيّ ودفعه أمامه ليجد نفسه بعد حين في السجن!

فارس الذي أنجز السنة الثانية في الطب في الجامعة الأميركيّة في بيروت هو الآن في السجن.

فارس الذي عاهد نفسه على أن يتصرّف خلال إقامته في أميركا كما يتصرّف المواطن المثالي، والذي جاء إلى أميركا ليأخذ من حضارتها ما صلح لبلاده، هو الآن في السجن ولا يعرف بمن يستنجد ومن يستطيع مساعدته وكيف يمكن الوصول إليه.

ففي أي جهة تنادي يا فارس؟

كتائه وحيد في الصحراء!

كان الوقت قبل الظهر عندما أُدخل إلى السجن، والآن صار الوقت المساء، وكان كلّما تقدّم الوقت كبر حزنه، لكنّه تعزّى

بأنّه سينام في مكان بدون مقابل وليس أسوأَ من الأمكنة التي ينام فيها عادةً وهو يجول بالكشّة.

لم يكن فارس كغالبية السوريين، الذين كانوا يمضون أوقات فراغهم في تذكّر أيّامهم في وطنهم وضياعهم وجبلهم، قرب الينابيع العذبة في الوديان وعند سفوح الجبال. يتذكّرون أيّامهم في وطنهم وهم يدخّنون الأراكيل في واشنطن ستريت ويشربون العرق ويغنّون العتابا والميجانا الحزين ويدمعون ويهزّون رؤوسهم أسى. كان فارس عمليّاً براغمائيّاً، لا يعيش في الماضي بل في الحاضر من أجل المستقبل، ولم يكن يقول كغيره بأن الشرق هو الروح والغرب هو المادّة، وبأنّ الشرق هو العاطفة والغرب هو العقل، بل كان يؤمن بأن الغرب هو مستقبل الشرق وأنّ الشرق إذا لم يتغرّب فإنّه سيبقى في حضيض التاريخ يجرجر نفسه في موكب الإنسانيّة.

لذلك فإنّه لم يبكِ للصدمة التي تعرّض لها، ولم ينهزم، بل فكّر في ما عليه عمله للخروج بسرعة من هذا السجن، لئلّا تحسب هذه النقطة السوداء في سجلّ إقامته في أميركا. ولكن ما العمل؟

كان فارس دائماً متحسّباً، وكان يحمل رسائل التزكية التي زوّده بها أساتذته في الجامعة الأميركيّة وبعض المرسلين في كيس صغير، يعلّقه تحت ثيابه كأغلى شيء يملكه. وفي الصباح عندما جاءه الشرطي بفطوره ـ وكان قطعة خبز ومقدار قبضة من الذرة الباردة وفنجاناً من الشاي ـ حاول محادثته وإطالة المحادثة ما أمكن، حتّى استطاع أن يعرّفه عن نفسه حقيقةً.

الشرطيّ الذي جاءه بالفطور لم يكن ذاته الذي زجّه في السجن.

كان هذا الشرطي مختلفاً بالكامل عن زميله ليلة البارحة، كان أكثر إنسانيّةً وثقافةً، وأبدى إعجابَه صراحةً بلغة فارس الإنكلزيّة، الذي اجتهد في إظهار حسن تصرّفه بهذه اللغة، ليبرهن له تميّزه عن المهاجرين الآخرين الذين لا يحسنون الكلام بالإنكليزيّة ولا يقرؤونها ولا يكتبون بها، بل يجهلون القراءة في لغتهم بالذات ويجهلون الكتابة بها. واهتمّ الشرطيّ بفارس وبأخباره، وأغرب عن استعداده لمساعدته، واستجاب لطلب فارس بأن ينقل إحدى رسائل التوصية التي في حوزته من بيروت، إلى قسّيس بروتستانتي راعي منطقة نيوهايفن.

كان القسّيس مريضاً جدّاً وملازماً فراشه، لكنّه اهتمّ بأمر فارس وأرسل إلى محاميه يطلب منه الذهاب إلى السجن لإخراجه منه.

وكان حظّ فارس رائعاً لأنّ القسيس دعاه إلى قضاء الليل عنده، وكان إلى ذلك كلّه من قرّاء مجلة «الهيرالد ميشنري» المهتمّة بأخبار المبشّرين البروتستانت الأميركيين في العالم كلّه خارج أميركا، وكانت بيروت أحد أهمّ مراكزهم في قارّة آسيا، لذلك فإنّه كان يعرف أشياء عن الكلّية السوريّة الإنجيليّة في بيروت، أي الجامعة الأميركيّة اليوم، وكان يتتبّع من حين لآخر أخبار المرسلين البروتستانت إلى البلاد السوريّة العثمانيّة، وكان يعرف ما حلّ بمن اعتبره المرسلون البروتستانت الشهيد البروتستانتي الأوّل في سورية ـ أسعد الشدياق. وكان أول ما طلبه من فارس بعد أن ساعده على الخروج من السجن، هو أن يحدّثه بالتفصيل عن هذا الشاب. وكان لا يحبّ مسيحيي الشرق ولا يكنّ لهم الكثير من الاحترام. كان متأثّراً بآراء المبشّرين الأوائل وبمراسلاتهم إلى هذه المجلّة. ذكر اسم المبشّر «بورد» مثلاً وسأل فارس عن رأيه فيه.

وكان يعرف ما تعرّض له المسيحيّون في جبل لبنان ودمشق من مجازر عام ١٨٦٠، لكنّه كان يعتبر أنّهم كانوا معتدين، وقد قاصصتهم العناية الإلهيّة على يد فئة متعصّبة من الدروز في جبل لبنان وعلى يد جهلة العامّة في مدينة دمشق، وفتحت بذلك الطريق أمام البروتستانتيّة لمزيد من الانتشار.

كان فارس غير مرتاح لهذا الحديث الذي جرى سريعاً ومتقطّعاً بالسعال والتوقّف القسري عن الكلام، في غرفة القسّيس وعند فراشه، ففي الشرق لا يناقش أحد أحداً في دينه، فقد يقتل الواحدُ الآخرَ من الدين المختلف أو من الطائفة المختلفة لكنّه لا يناقشه في دينه. وكان فارس يحاول كلّما سنحت له الفرصة أن يغيّر الموضوع، إلى أن سأله القسيس فجأةً عن دينه فأجابه فارس جواباً جعله ينتبه إلى أنّ الأمر ليس بهذه السهولة. أجابه فارس: ديني هو خيرُ الناسِ من جميع الطوائف والأديان! ديني هو تقدّم وطني الرازح تحت نير الفقر والجهل والظلم والعبوديّة! وإنّ ديني هو خير البشرية جمعاء! فلم يجب القسّيس بشيء.

وكانت دجسّي، ابنة القسيس البالغة من العمر ستة عشر عاماً، حاضرةً تستمع إلى ما يقوله فارس بانتباه لفت نظره، وألهمه كلاماً جميلاً بلغة إنكليزيّة راقية، قد عزّزها فارس كثيراً منذ إقامته في أميركا بالممارسة وبالقراءة أيضاً، لأنّه لم يتوقّف يوماً عن تخصيص ساعات طويلة من أيّام فراغه وراحته، للدرس في كتب الطبّ المهيّئة للدخول إلى الجامعة، وقراءة الكتب الأدبيّة، وذلك في المكتبات العامّة التي أدهشه وجودها في كلّ مكان.

وفي الصباح تناول الجميع الفطور معاً، ما عدا الوالد. وكان على الطاولة زوجة القسّيس وابنته الصغرى «دجسّي» وابنه الأصغر منها

سنّاً، أمّا ابنته المتزوّجة فكانت في بيتها مع زوجها وأولادها، وابنه الأكبر كان ضابطاً في الجيش الأميركي ـ مدرسة الوطنيّة ـ كما وصفته زوجة القسّيس وهي تخبره عن عائلتها.

دهش فارس من هذا الاستقبال، ومن هذه الضيافة. وانتبه إلى أنّ من الأميركيين من هو مضياف جدّاً كالسوريين وأكثر ولكن على طريقته.

وقد ازداد اهتمام دجسي أثناء الفطور بالشاب السوري الأسمر الذكيّ، الآتي من البلاد التي ولد فيها السيّد المسيح ومشى على ترابها. وكانت عيناها تلمعان حين تنظر إليه صراحة، وأوصته وهو يودّعها ووالدتها عند الباب على غطاء من حرير للطاولة التي تدرس عليها، مهما يكن ثمنه، وأوصته على رسم أرزة محفور على خشب من أرز لبنان المذكور عدّة مرّات في التوراة وفي أساطير الشرق القديمة. وسألته متى يعود في المرّة المقبلة، ووعدها بأن تكون عودته في أقرب وقت. ولم ينتبه أحد سواه إلى أنّها كانت تتسمّع إليه، وهو يحدّثهم عن بلاده، بنحو لافت. وأحسّ وهو ينظر إليها أنّ شروش شجرته تمتدّ في أعماق أميركا. فخاف لأنّه أحسّ أنّ هاتين العينين وهذا الشعر وهذا اللون وهذه القامة وهذه النظرة قادرة على أن تجعله يستقرّ في أميركا إلى الأبد وأن يتجذّر فيها. فخاف لأنّ بلاده حضرت في ذهنه وعذّبته لشروده... أيمكن أن ينسى بلاده؟ أيخون إنسان بلاده؟

وبعد أن عاد من الضيعة النائية التي كان يقصدها في الأصل، قبل أن يقبض عليه الشرطي، أحبّ أن يمرّ بهم من جديد لكنّه خجل، وخاف أيضاً من أن ينكشف سرّه الذي كان ما يزال بذرة لا تُرى إلّا بعد جهد بالعين المجرّدة. سِرُّه الابنة الصبيّة.

لكنّه حين وصل إلى المكان الذي اعترضه فيه الشرطيّ، اتجه نحو الجامعة بدل أن يتابع طريقه نحو محطّة القطار، وسأل عن مكتب عميد الجامعة واستأذنه أن يسمح له بمقابلة سريعة دون موعد، فلم يعترض العميد واستمع إليه بانتباه واهتمام وهو يخبره قصّة حياته، وقرأ رسائل التزكية من أساتذته والمبشّرين، وهنّأه على عزمه، لكنّه نصحه بأن يختار جامعةً أخرى لأنّ هذه، أي جامعة يال، غالية جدّاً يصعب عليه تحمّل كلفة الدراسة فيها. وقد أعجب به ووثق بسرعة، إلى حدّ أنّه كتب له رسالةَ تزكية ليبرزها في الجامعة التي يريد التسجيل فيها.

عاد فارس إلى دراسته بعد أن عمل ثلاث سنوات مقتصداً ما استطاع، وكان بإمكانه الاتكال قليلاً على والده، الذي تحسّنت حاله خلال هذه السنوات، وفتح دكّاناً في نيوجورسي وصار يمدّ المهاجرين اللبنانيين بالبضاعة، بدل أن يجول هو بنفسه بين القرى والمدن، وكان في الوقت ذاته يؤجّر التختيّة التي فوق الدكّان للعابرين من البائعين بالكشّة من أبناء جنسه، وكانت تتسع لخمسة زبائن وأحياناً أكثر، وهذا ما كان يزيد في مدخوله بنحو ملموس.

وكان فارس قبل أن يبدأ دراسته قطع خطبته مع حسنا. وقد سبب له هذا الأمر مشكلةً كبيرة بينه وبين نفسه أوّلاً، وبينه وبين والده خاصة.

وكان في الحقيقة قد فكّر جدّياً في أن يقطع علاقته بها عندما التقت عيناه بعيني دجسي الأميركيّة في نيوهايفن، وندم على

الخطبة، وقرّر منذ ذلك الوقت أن يتحيّن المناسبة ليتحرّر من هذا الوعد. وهكذا كان، فقد التقى بها عندما قرّر العودة إلى الدراسة، في الغرفة التي كان يسكنها في «غراند ستريت» في مدينة نيويورك، واعتذر لها عن عدم قدرته على الوفاء بوعده، وقال لها إنّ هذا القرار هو لصالحها أكثر ممّا هو لصالحه، وذلك حتّى تتدبّر أمرها منذ الآن، لأنّه لا يعرف كيف ستتطوّر أحواله وإلى ماذا ستنتهي به الأمور. أمّا هي فحاولت إقناعه بأنّها تستطيع الانتظار ما شاء من السنين، شرط أن يُبقي على وعده، فرفض. ولم يكن سهلاً عليه أن يرفض وهي واقفة أمامه بجمالها وقامتها وسَمارها، ورائحة الوطن تفوح من مسامها. وبلغ هذا الخبر والده الذي غضب منه، لأنّ وعد فتاة بالزواج علناً في حضوره، هو الوالد، وفي حضور والديها معاً، ثم عدم الوفاء بالوعد ليس من شيمنا نحن السوريين، وإذا كان صحيحاً أنّنا في أميركا نكتسب حضارة الأميركيين، فإنّنا ما زلنا أبناء جبل لبنان وفي نفوسنا من أخلاق بلادنا ما لا يفنى إلّا بفناء نفوسنا ذاتها بالذات.

الخطبة!

الوفاء بالوعد!

ـ «وَلَوْ!» أنسيتَ بلادك؟

وكان والده يريد تزويجه بنتاً من بلده حتّى لا تبتلعه أميركا.

ـ نحن هنا مؤقّتاً يا بُنيّ، مهما طالت بنا الإقامة.

لكنّ فارس أصرّ على موقفه، مع أنّ شيئاً عميقاً فيه كان يلحّ عليه بأن يفي بوعده، وكان كلّما أراد أن يستجيب لهذا النداء، الذي

كان يحسّه آتياً من الوطن البعيد، يتذكّر عيني دجسّي التي ما تزال تنتظر أن يجلب لها ما أوصته عليه، ويتذكّر صفاء بشرتها وقامتها المديدة وبراءة نظرتها ودهشتها به، ويشعر بأنّ أبواب أميركا ستفتح له عن طريقها، وستكشف له عن كنوزها، وأنّ جناحين سينبتان له وسيكون في قدرته أن يطير.

والد حسنا قطع كلّ علاقة به، وأرسل لوالده أبو فارس مع وسيط بأنّ الكرامة أغلى من كلّ شيء، وبأنّنا ما زلنا أبناء الشرق وإن كنّا في أميركا، وبأنّه حتّى ولو عاد الابن عن رأيه فَـ:

ـ «ما عندنا بنت للزواج!».

تفهّم أبو فارس شعور والد الفتاة، لكنّ هذا لم يمنعه من الوقوف إلى جانب ولده من أجل أن يستطيع تحقيق حلمهما المشترك في إكمال تخصّصه.

استطاع فارس خلال ثلاث سنوات من العمل في «الكشّة» أن يجمع سبعة آلاف دولار، وكان هذا المبلغ كافياً ليُتمّ تخصّصه بدون أن يستعين بوالده وبدون أن يعود إلى العمل. لكنّ الصبيّة الأميركية كانت تنتظره أن يجلب لها غطاء الطاولة الحريري ورسم الأرزة المحفور.

فوجئ والده الذي كان على علم بوضع ابنه المادّي، عندما طلب منه صندوق «الكشّة» الصغير ليقوم بجولة بيع، وفوجئ أكثر عندما طلب منه غطاءً من حرير وقطعة من خشب الأرز محفوراً عليها أرزة لبنان. فارتاب، ولم يبح له بارتيابه، لكنّه فتح عينيه وراح

يتسقّط أخباره بحذر خوفاً من مفاجأة لن يكون من السهل عليه تقبّلها. لن يتحمّل أبو فارس أن يتزوّج ابنه من فتاة أميركيّة غريبة عن بلادنا وأخلاقنا وعاداتنا.

كتب فارس عدّة مرّات لصبيّته واعداً إيّاها بأنّه سيجلب لها ما طلبته، في أقرب وقت ممكن، وكانت تجيبه باختصار وتشكره. ومرّةً فاجأته بتساؤلها عن عنوانه في الجامعة، من أين له ذلك، إذ لا يُعقل أن يكون طالباً في الجامعة وبائعاً متجوّلاً في الوقت نفسه. ثمّ كتب لها أخيراً أنّه سيكون عندها في آخر تشرين الثاني، أي يوم عيد الشكر الذي هو من أهمّ الأعياد في أميركا. وقد اختار هذا التاريخ لأنّ الدروس تتوقّف فيه في الجامعة لمدّة عشرة أيام.

لم يأخذ منها ثمن الأشياء التي باعها إيّاها. قدّمها لها بدون مقابل. وفاجأها ذلك كثيراً وأسرعت تطير من الفرح عند والدتها، وأخبرتها بأنّ فارس السوري لم يأخذ ثمن ما أوصته عليه. قالت ذلك وبسطت الهدايا أمامها متأمّلة إيّاها وراقصة كعصفور سعيد، فاقتربت والدتها منه وشكرته لكنّها لم تدعُه إلى الغداء. وكان فارس أكيداً من أنّها ستدعوه إلى الغداء قياساً على ما بدا منها المرّة السابقة من حفاوة، وقياساً على ما بدا من زوجها القسّيس الذي كانت صحّته تتراجع ولم يستطع فارس أن يراه لسوء حظّه.

ـ شكراً دجسّي!

خاطبها باسمها. صار يجرؤ على لفظ اسمها بعدما رافقته إلى باب الحديقة المُفضي إلى الطريق لتودّعه.

كان يريد أن يخبرها في حضور والدتها على طاولة الغداء، بالتطوّرات التي جرت له منذ رآهم المرّة الأولى، لكنّ الأشياء

سبقته ولم تجرِ الأمور كما توقّع. استطاع أن يخبرها وهو على الباب سريعاً أنّه بدأ متابعة دروسه في الجامعة كما يُفهم من الرسائل التي بعث بها إليها. لم يستطع أن يطيل الكلام معها، لأنّ والدتها كانت واقفة على الشبّاك، تودّعه من هناك بتحريك يديها وتنتظر عودة ابنتها.

ـ اكتب لي دائماً! قالت له بصوت خافت.

سأبقى هذه الليلة في فندق «بلفيو» (Belleview) في نيوهايفن، وموعد القطار غداً عند الظهر. قال ذلك بصوت خافت أيضاً حتى لا تسمعه والدتها، ثم رفع يده ليودّعها وهو يدور على نفسه ليعود إلى الفندق.

ولم يخرج طوال ذلك النهار من الفندق خوفاً من أن تأتي لتزوره ولا تجده، وهو في العادة، عندما يكون له متّسع من الوقت، يخرج ويزور الأماكن السياحية ويتعرّف إلى المدينة، ويزور المتاحف ويقوم بجولة على المكتبات ويطّلع على الإصدارات الجديدة، ويقرأ الصحف في المقاهي... تماماً كأميركيّ تلميذٍ في كلية الطب في إحدى الجامعات المحترمة. ويكتب أيضاً إلى أصدقائه في الوطن والمهاجر الأخرى يخبرهم عن أحواله وعن مشاهداته، ويسألهم عن أحوالهم وعن البلاد. ويكتب بخاصّة إلى جرجي زيدان في القاهرة، وقد علم بالطبع أنّه لم يستطع الدخول إلى كليّة الطب في قصر العيني، وأنّه انصرف نهائيّاً إلى الأدب والصحافة، وأنّه بدأ يخطّط لتأليف كتب وإنشاء دار «الهلال» للنشر، وإصدار مجلّة، من أجل تعميم المعرفة في العالم العربي وحثّ العرب على النهوض من كبوتهم التي دامت أكثر من اللازم. وكانا في رسائلهما يتبادلان الآراء والأسرار بخصوص ما

يمكن فعله مع آخرين من أجل نهضة الوطن، وبخصوص الجمعيّات السرّية التي كانا يفكّران في إنشائها مع آخرين، والتي كان الإعلان عنها يشكّل خطراً أكيداً عليهما وعلى الآخرين. وكانا دائماً يتواعدان على اللقاء في بيروت، لكنّ الظروف كانت دائماً تمنعهما من ذلك.

وكتب فارس وهو جالس في مقهى الفندق يوم ذاك إلى صديقه الحميم سعدالدين الجباوي، الذي ترقّى في سلك الشرطة وتزوّج وأنجب، والذي ظلّ يشارك النخبة المثقّفة مساعيها لتحقيق الحلم بدولة عصريّة.

وصحّ ما توقّع، إذ جاءت دجسّي، وحسناً فعل أنّه بقي في الفندق ولم يخرج. وربّما كان جُنّ لو أنّها جاءت ولم تجده. واضطرب لمّا رآها وخاف أن يغيب عن الوعي، فهذه المشاعر التي تعصف به الآن لم يعتدْ عليها ولم يكن مستعدّاً لها... لم يكن مستعدّاً لأن تكون أميركا بعظمتها، وبفجرها المنبلج، تتقدّم نحوه لتمدّ له اليد بالسلام وتجلس معه وتشرب كأساً من عصير البرتقال.

أخبرها أنّه عاد إلى دراسة الطبّ في الجامعة وأنّه سعيد جدّاً بهذه العودة، لأنّه سيكون طبيباً بعد سنتين.

لم يقُلْ لها إنّه سيعود بعد ذلك إلى وطنه. وأحسّ بالحزن لأنّه أخفى عنها ذلك، ليس لأنّه كذب ـ فهذا ليس كذباً! بل لأنّه خاف من أن يُفصح لها عن ذلك فيُعيق الشيء الذي بدأ يتكوّن ما بينهما.

ـ الوطن! لا تنسَ وطنك! انسَ اسمَك ولا تنسَ وطنك يا فارس! انسَ لون عينيك ولا تنسَ الجبال العالية «الميزّرة» بالغيم والمكلّلةَ

بالثلوج. لا تنسَ السهول المرويّة بالماء الزلال وعرقِ الجبين، ولا تنسَ السماء العميقة حتّى السحر النزيه، والفصولَ الأربعة والبحر البعيد الزرقة، والينابيع المتفجّرة والسواقي والأنهار. ولا تنسَ بني قومك الذين يُثقلهم الجهل والفقر والمرض، والوطنَ الذي يقيم في البؤس بعيداً عن مائدة العالم المتحضّر؟

هذا ما فكّر فيه فارس في ذلك الوقت وقاله لنفسه. لكنّ موضوع العودة ليس مطروحاً الآن، بل موضوع دجسّي.

وودّعها فارس وهو يُضمر مشاعرَه نحوها ويؤجّل البوح بها إلى الوقت المناسب، ويتمنّى في الوقت نفسه أن تكون مثله تنتظر اليوم المناسب للبوح. وقد غذّى حلمه هذا أنّها طلبت منه أن يجلب لها ربطات للشعر في المرّة المقبلة وشكلات ودبابيس، متناسيةً أنّه لم يعد يعمل بائع كشّة وأنّه أصبح طالباً لا يسمح له وقته بذلك.

وهكذا صار ينتظر العطل الجامعيّة حتّى يزورها، محتجّاً ببيعها ما توصيه عليه، ثمّ يلتقيها في مقهى الفندق، وكان حبّه لها يكبر بسرعة، وكان ينتظر بفارغ الصبر أن تحين اللحظة لكي يبوح لها بحبّه هذا. وكانت هي تكتم مشاعرها وتمضي أوقات اللقاءات في أسئلة عن دروسه وعن بلاده البعيدة التي ولد فيها السيّد المسيح، وعن طقسها ومائها ونباتها وحيوانها، وعن الناس فيها وطرق عيشهم، وعمّا إذا كانوا يحافظون حتّى اليوم على العادات ذاتها التي كانت متّبعةً أيّام السيّد المسيح، وكان يحدّثها بلذّة عن بلاده إلى أن يحين موعدُ عودتها إلى البيت، فتوصيه على أشياء جديدة لتوفّر له حجّةً للمجيء. فهل يمكن ألّا تكون مبطِنةً شيئاً؟

لكنّ والدتها وقعت بالصدفة على رسالة من فارس إلى ابنتها.

لم يكن في الرسالة ما يُثير الريبة حقّاً، بل أخبار سريعة عن الدراسة في الجامعة، وعن موعد قدومه المرّة المقبلة. لكنّ الرسالة بحدّ ذاتها أثارت الريبة، فلماذا يكتب لها هذا السوري بائع الكشّة رسائل كأنّه صديق؟

ثمّ إنّ عنوانه الجامعة! فما سرّ هذا الغموض؟ وما هذه الفوضى؟

وأبلغت الوالدة الوالد رغم وضعه الصحّي المتفاقم، وبلغ الخبر الأخَ الضابط في الجيش الأميركي، الذي اهتمّ للأمر كثيراً وطلب من والده صرفها عن ذلك، إذ لا يمكن لشقيقة ضابط في الجيش الأميركي أن تقيم علاقة مع شاب سوري تركي من جبل لبنان، أسمر اللون، لا أحد يعرف شيئاً عنه ولا عن عائلته، ويعمل بائعاً متجوّلاً وعنوانه في جامعة، حتّى وإن كانت هذه العلاقة بريئةً ومحضَ إنسانيّة، فقد تتطوّر إلى ما لسنا في حاجة إليه.

خاف الأخ على أخته من أن تنزلق إلى الزواج من هذا التركي الذي قد يكون طامعاً بمكانتها في المدينة والولاية كلها، وفي حصّتها الخاصّة من إرث والديها الذي يُقدّر بخمسة وعشرين ألف دولار. وخاف على مستقبله أيضاً، لأنّه كان يسعى للوصول إلى مركز عالٍ في الجيش ويخطّط، إذا لم ينَلْ ذلك، للانخراط في العمل السياسي والترشّح لكرسيّ النيابة عن المنطقة، مستفيداً من صِيته الحسن في الجيش ومن رصيد والده القسّيس.

حين اكتشف والد دجسي أنّ فارس يتابع دراسة الطبّ في الجامعة، تعجّب كيف أنّه ما زال يعمل بائع كشّة، وشكّ في نيّته، ولم يتأخّر عن سؤال ابنته عن مقصد هذا الشاب من زياراته

المتكرّرة، فأجابته مدّعيةً البراءة أنّه يعمل بالكشّة في أيّام العطل، حتّى يُكمل تسديدَ مصاريف الدراسة في الجامعة.

ثمّ إنّ العائلة اجتمعت على الطلب من دجسي أن تطلب من هذا الشاب التوقّف عن زيارتها، وأن تتوقّف هي عن الشراء منه، وكان هذا الإجماع تامّاً بحيث إنّها لم تستطع التسلّل من فجوة لتُحدِث خللاً فيه، فسكتَتْ على مضض وأعلنت انصياعها لرغبتهم. وعندما جاء على موعده أثناء عطلة جامعيّة لم يستقبله أحد غيرها في البيت، ولم تشترِ منه ما أوصته عليه، مدّعيةً أنّ ما جاء به ليس موافقاً لما طلبته، ثمّ استطاعت أن تسرّ له أنّها ستشرح له كلّ شيء غداً في الفندق.

لم يصدّق فارس أنّ الصباح طلع عليه وهو حيّ يتنفّس، لقد ضاق به العالم الفسيح، وأُقفلت أبواب أميركا في وجهه وخسر العالم وخسر نفسه، وتمنّى لو أنّه بقي في لبنان، ولو أنّه لم يزن موقفه من إدارة الجامعة الأميركيّة في بيروت بميزان الكرامة، وتمنّى لو أنّه لم يشارك في الإضراب أثناء حادثة دارِون، وتمنّى لو أنّه بقي في مصر مع صديقيه جرجي زيدان وأمين فليحان.

قالت له إنّ أهلها جميعاً لا يرتاحون إلى العلاقة بينهما، وإنّهم طلبوا منها أن تمتنع عن شراء أغراضها منه وأن تمنعه من زيارتها.

ـ وأنتِ؟ سألها فارس وهو يكاد أن يُغمى عليه.

ـ أنا؟ قالت وتنهّدتْ، ثمّ أضافت:

ـ أنا مستعدّة أن أعمل بما تقترحه عليّ!

فقال فارس غير مصدّق ما يسمع، قال بعدما أخذ نفَساً عميقاً:

ـ عندنا في الشرق حكمة تقول إنّ كلّ فتاة هي ضيفة في بيت والديها.

ـ ماذا تقصد؟ قالت له.

فاحتار في الجواب لكنّه تورّط وكان عليه أن يخرج من هذه الورطة، وكانت هذه المرّة الأولى التي يكلّمها بصراحة ووضوح. ولم يعد بإمكانه التراجع. كانت أحاديثُهما في الماضي إشارات غامضة، وعواطف مغلّفة بالبيع والشراء، لكنّ الوقت حشرهما الآن، وكان عليهما اتخاذ قرار، وكان عليه أن يبادر.

ـ ماذا تقصد؟ قالت له مرّة ثانيةً مستعجلةً جوابَه، كأنّها تنتظر منه الحلّ السحريّ الذي يعرف كيف يجده هؤلاء السُمر الآتون من الشرق البعيد، شرق الحكمة والروح.

فأجابها بأنّ بيت الفتاة الفعلي هو عند زوجها، وراح يحدّثها عن السعادة التي يوفّرها الزواج، وعن وجوبه الذي لا مفرّ منه. فلم تجب بشيء، وانتهى اللقاء بأن اتفقا على أن يلتقيا من الآن فصاعداً في الفندق دون أن يمرّ بالبيت. واتفقا على أن يضع على الغلاف اسم الخادمة البولونيّة التي كانت لا تجيد قراءة الإنكليزيّة، فيظنّ أهلها أنّ الرسالة مكتوبة بلغتها فلا تلفت نظرهم، وأخبرت دجسي الخادمة بالخطّة وطلبت منها تسليمها الرسالة التي عليها علامة محدّدة فور وصولها، وحذّرتها من أن تبوح لأحد بهذا السرّ. وكانت الخادمة تحبّها خصوصاً، لكثرة ما كانت دجسي تكرمها وتعاملها بإحسان.

ومنذ ذلك الوقت، ضاعف فارس جهوده في الدراسة، واختصر من ساعات اللهو، وقرّر ألّا يقصد مومساً إلّا عند الضرورة القصوى، رغم صعوبة تنفيذ هذا القرار عليه. أراد أن يكون جديراً بحبّ دجسّي، وبتضحيتها، وببياض نيّتها.

لكنّ الخادمة باحت للأهل بالسرّ، عندما انتبهوا إلى كثرة الرسائل التي تصلها، وذلك على غير عادة. وكانت نتيجة هذا أن قرّروا الضغط على ابنتهم، لتزويجها من شاب أميركي في سنّها، من عائلة Lenn المحترمة جدّاً في المدينة، والتي تملك أراضي شاسعة ومحلّات تجارية وأسهماً في شركة السكك الحديديّة، والمعروفة خصوصاً في مساهماتها في المشاريع الخيريّة وفي بناء وتجهيز المكتبات العامّة المجّانيّة.

فكيف يمكن فارس منصور هاشم، اللبناني السوري التركي، المهاجر، بائع الكشّة، الأسمر الشعر، الأسمر اللون، الأسود العينين، المتوسّط الطول، أن ينافس الأميركي الشاب ابن العائلة الغنيّة، البروتستانتي المذهب، الأشقر الشعر، الأبيض اللون، الأزرق العينين، الطويل القامة، الذي أنهى دروس الهندسة في الجامعة منذ أقل من سنة بنجاح؟

قالت لها أختُها المتزوّجة إنّ هؤلاء الشرقيين الذكور يتزوّجون العشرات من النساء، فهل ترضين بأن تكوني واحدةً منهنّ؟ وقال لها أخوها الضابط إنّه سيستقيل من الجيش إذا تزوّجتْه، وسيعدل عن مشاريعه في السياسة.

ولمزيد من الحيطة اتفق الأخ الضابط والأخت المتزوّجة على تكليف مكتب للتجسس الخاصّ بأن يراقب تحرّكات فارس.

ورغم أن لقاءاتهما تباعدت كثيراً باتفاق الإثنين ورضاهما، مرّةً كلّ أشهر أحياناً، فإنّ هؤلاء المتحرّين الخاصين ضبطوهما مجتمعَين مرّة في باحة فندق بلفيو، ولاحظوا صعودها معه إلى غرفته وبقاءها هناك حوالي ساعة كاملة! وقد جاءت لتقول له يومها إنّ عليهما التسليم بالأمر الواقع، وقد صعدت بالفعل إلى غرفته وانفردا، وتعانقا طويلاً وسمحت له بأن يقبّلها على رقبتها وعلى خدّها. وقبّلته هي أيضاً على خدّه.

ـ وداعاً! قالت له، ومضت.

لم يكن لدجسّي إذن مهرب من الرضوخ لرغبة الأهل، ولم يكن على فارس إلّا أن يقبل بنصيبه من أميركا.

لكنّ المفاجأة كانت أنّ الشرطة جاءت إلى الفندق الذي يقيم فيه فارس وطلبت منه إبراز الإذن بالبيع بالكشّة، فقال لهم إنّه توقّف عن البيع لأنّه الآن طالب في كليّة الطب، فما كان منهم عندذاك إلاّ أن أروه الشال الذي أهداه إلى دجسي منذ ساعة فقط. ثمّ اقتيد إلى السجن وكان الوقت اقترب من الغياب، وأيقن فارس أنّه وقع في فخّ لم يتصوّر يوماً أنّه سيقع في مثله، واستعدّ للمبيت في زنزانته، للمرّة الثانية منذ وصوله إلى هذه البلاد البعيدة، وندم مرّة أخرى على المجيء، وتمنّى لو أنّ ذلك الإضراب لم يكن له وجود. لكنّ رائحة دجسي التي كانت ما زالت تملأ أنفه ورئتيه وأحلامه كانت تنسيه حاله من وقت إلى آخر... إلى أن سمع باب الزنزانة يُفتح ليخرج منها ويقع نظره على دجسي بالذات. جاءت لتقول للشرطة إنّ هذا الشال كان هديّة منه. لقد انتبهت إلى أنّ الشال اختفى، وذهبت إلى والدها لتعلمه بما جرى، فبذل جهداً كبيراً ليطّلع منها على الأمر، وفهم الحيلة المحاكة ضد

فارس بسرعة، وأراد النهوض من فراشه لكنّه لم يستطع فطلب من ابنته أن تأتيه بالمحامي فوراً، وأن تشرح له الوضع وأن ترافقه إلى مركز الشرطة لإبلاغهم أنّ هذا الشال كان هديّةً وحسب.

كان والدها يرغب في أن تقطع علاقتَها بفارس، خوفاً عليها من رجل آت من بلاد بعيدة، وخوفاً عليها ممّا قد يستتبعه زواجها به من احتقار وازدراء، لها وللعائلة، في هذا الوسط الأميركي التقليدي، وفي هذه المدينة المحافظة. فعن هذه المدينة يتناقل المغتربون السوريّون خبراً عن أحد أبناء قومهم أنّه اشترى بقرةً ووضعها في البستان المحيط بالبيت الذي يسكنه، فانزعجت منه جارته الأميركيّة ورفعت دعوى عليه، وقبل أن يدخل المغترب مع محاميه إلى المحكمة قال له: أخفِ هذا الصليب المتدلّي من رقبتك لئلّا يراه القاضي فنخسر الدعوى! فالتعصّب ضدّ كلّ ما ليس بروتستانتيّاً أبيض كان منتشراً في كثير من الأوساط هناك.

لكنّ الوالد لم يكن ليرضى بأن يُزجّ الشاب في السجن ظلماً.

أخبر فارس المحامي بحقيقة ما جرى له حين اختلى به، فطمأنه المحامي ووعده بأن يسعى للإفراج عنه فوراً، لكنّه لم يجد اسم فارس منصور هاشم في دفاتر السجن، ولا تاريخ صدور الأمر بتوقيفه، فاحتار في المسألة، وهو لا يستطيع إخراجه بكفالة ما لم يعرف مكان صدور الأمر بالتوقيف، وراح يتحرّى حتى استهدى على مكان صدور الأمر هذا، الذي كان من قاض في محكمة ثانويّة في أطراف المدينة. لكنّ الوقت كان تأخّر وبلغت الساعة التاسعة مساء، وكان على فارس أن ينام في السجن، بعدما طمأنه المحامي بأنّه سيخرج منه في الصباح. لكنّ الأمور لسوء

حظّه تعقّدت كثيراً، فقد مات القسيس والد دجسي في الليلة ذاتها.

أفاق أهل البيت صباحاً وتفقّدوا الوالد الذي تأخّر في النهوض، فوجدوه جثّة باردة ساكنةً في فراشه. مات منذ ساعات، كما أكّد لهم الطبيب.

وكان والدها سألها قبيل وفاته إن كانت تريده فعلاً فقالت نعم أريده، فقال لها أمهليني إذن مدّةً حتّى أسوّي الأمر مع والدتك وأختك وأخيك. لكنّ الموت لم يسمح له بالكلام على الموضوع مع ابنه الضابط، ولا مع ابنته المتزوّجة التي كانت أكثرهم عداء. أمّا والدتها فأطاعت زوجها عندما كان حيّاً لكنّها الآن لا تخالف أولادها، وتلزم الصمت وتصرّح لابنتها «حبيبة قلبها» بأنّها لا تستطيع إقناع أخيها ولا أختها بشيء أو بعكسه. كانت تتنصّل إذن وكان هذا لا يساعد دجسي في شيء.

ومع اشتداد الأزمة صارت الأمّ تنزوي في غرفتها فلا تخرج إلّا نادراً، وكانت تمنع ابنتها أو أيّ أحد آخر من مفاتحتها بهذا الموضوع.

وهكذا بقي فارس في السجن شهراً كاملاً حتّى وقّعت دجسي لأخويها بالتنازل عن كلّ شيء من تركة والدها. وقد أقنعوا المحامي بطريقتهم ألّا يتدخّل لمصلحة فارس لإخراجه من السجن قبل أن توقع أختهم على التنازل. لقد ظنّوا أنّ هذا الشاب طامع بما سترثه عن والدها، والذي كان يُقدّر بخمسة وعشرين ألف دولار ما بين مبالغ نقديّة وأسهم وعقارات، وكان هذا المبلغ هائلاً بالنسبة لمهاجر سوري من آسيا العثمانيّة لا يربح في اليوم

الطويل من السفر والتعرّض للمخاطر ومزاج الطبيعة في الحرّ والبرد والمطر والثلج إلّا القليل، عشر دولارات أو عشرين، في أكثر أيّام العمل توفيقاً.

وهكذا بقي فارس في السجن شهراً كاملاً كانت أثناءه دجسي ترفض الابتزاز، ولا تصدّق أنّ أخاها وأختها يفعلان بها ذلك.

أحسّ المحامي بتأنيب الضمير، فكان لذلك يزور فارس في السجن من وقت إلى آخر، ويقدّم له عشرة دولارات في اليوم من جيبه الخاص، مدّعياً أنّه يحصل عليها من منظّمة إنسانيّة. بل أكثر من ذلك، فقد راح ابتداءً من الأسبوع الثاني ينقل إليه رسائل من دجسي التي كان فارس يستقبلها بفرح كبير، والتي كانت تُنسيه أنّه في السجن ظلماً، وكانت تشعره أنّه حرّ وأنّه في الهواء الطلق النظيف على جبال لبنان وفي غابات الأرز والصنوبر والشربين، وعند منابع المياه، وأمامه الروابي والسهول الممتدّة بعيداً حتّى البحر، وكانت دجسي تُصرّح له بحبّها، وتدعوه إلى الصبر وترفع من معنويّاته.

عندما وثق فارس ودجسّي بالمحامي، أطلعاه على رغبتهما في الزواج بعد أن يتخطّيا هذا الظرف الصعب، فازدادت رغبته في مساعدتهما، حتّى أنّه باح لهما أخيراً بحقيقة ما يجري، وأخبرهما بأنّه لا يستطيع مقاومة الضغط الذي يمارسه عليه أخوها الضابط وأختها المتزوّجة حتّى لا يُخرجه من السجن قبل أن توقّع الأختُ على التخلّي عن حقّها من إرث والدها.

ثمّ وقّعت دجسي أخيراً، لكن بعدما رأت صحّةَ والدِتها تسوء بسرعة مخيفة، وبعدما قالت لها: من أين جاءنا هذا السوري؟

وكان قرارها مزدوجاً.

قرّرت التخلي عن حقّها في الإرث لتُطَمئن عائلتها، وقرّرت في الوقت نفسه أن تقطع علاقتها بفارس، وتتراجع عن وعدها له بالزواج منه، وكأنّها أرادت الانتقام لنفسها من نفسها، أو أنّها أرادت تبرئة نفسها من وفاة والدها وسوء حال والدتها.

لم يُصدّق فارس وهو في السجن ما كتبت له، وظنّ أن المحامي يشارك في المؤامرة عليه، فأصرّ على مقابلتها لتبلغه قرارها مشافهةً، فرضي إخوتها بأن تلتقيه شرط أن يكون ذلك بوجود المحامي. وهذا ما كان. ولكي تؤكّد له قرارها أخبرته بأنّها ستقبل بالزواج من الشاب الذي يطلب يدها.

ـ افهمْ موقفي! قالت له قبل أن تودّعه الوداع النهائي. كنتُ السبب في تعاسة والدتي وربّما في تعجيل وفاة والدي.

لكنّ فارس تغيّب كثيراً عن الجامعة، فما ستكون حجّته؟ وكيف سيعوّض ما فاته؟

والأهمّ من كلّ هذا هو كيف سيواجه إدارة الجامعة إذا علمت بأنّه كان في السجن؟ فهل تطرده؟ وهل ترفضه بعد ذلك كلّ الجامعات؟

فهل خسر الجامعة إضافة إلى دجسي الأميركيّة وحسنا ابنة بلده؟

وماذا عن كلّ أحلامه، حينذاك، بالعودة إلى الوطن طبيباً؟ والمراسلات المستمرّة مع جرجي زيدان وسعدالدين الجباوي

وآخرين؟ وماذا عن القَسَم مع جرجي زيدان وأمين فليحان على ظهر الباخرة قبالة شاطئ بيروت؟

وقد صحّ خوفه حين عاد إلى الجامعة وذهب لمقابلة العميد، الذي قال له بأن الجامعة صُدمت حين بلغها أنّ أحد طلّابها كان في السجن بسبب الاحتيال على فتاة بريئة، وبسبب مخالفة القانون الأميركي بممارسة التجارة بدون رخصة من المراجع المختصّة.

أصابه هذا الكلام في كرامته الشخصيّة، وفي كرامته الوطنيّة أيضاً. وهو الحريص على إعطاء الصورة الفضلى عن بلده وأهل بلده.

والأسوأ من كلّ ذلك أنّ العميد لم يعطه متّسعاً من الوقت ليدافع عن نفسه، بل انصرف إلى أوراق كانت أمامه إشارةً إلى أنّ على فارس الخروج من مكتبه. ورفضت إدارة الجامعة إعطاءه ورقةً تفيد بحسن سلوكه وبأنّه كان مسجّلاً فيها.

لماذا يتابع أخواها خوض حرب ربحاها؟

كانت تلك لحظة ذلٍّ لا يُطاق، وفي تلك اللحظة بالذات قرّر فارس الانخراط في الجيش الأميركي، ليبرهن لكل من يحتاج إلى برهان، عن طيب معدنه ليس كفرد وحسب، بل كسوريّ أيضاً من مدينة بيروت التي تسابق الإسكندريّة والقاهرة على الريادة والتمدّن، والتي تتحوّل باستمرار لتصير شيئاً فشيئاً عروسَ المدائن، ونجمةَ المتوسّط، لأنّ الالتحاق بالجيش للدفاع عن الوطن، هو أسمى ما يمكن للمواطن أن يقدّمه إلى وطنه.

وسيسمع بفارس كلّ من كان مطّلعاً على علاقته بدجسّي.

لن ينام ابن بيروت على هذه الإهانة التي تعرّض لها، وسيندم كلّ من شارك في التسبّب بها.

ولكنّ فارس تريّث في تنفيذ قراره الالتحاق بالجيش الأميركي، ليأخذَ نفَساً، وحسناً فعل، لأنّ المحامي بعدما أعلمه فارس في إحدى رسائله بقرار إدارة الجامعة، طلب مقابلة العميد وأخبره ببراءته وقال إنّ سجنه كان خطأ، وإنّ من أصدر الأمر بذلك اختلط عليه الاسم. لكنّ إدارة الجامعة لم تقتنع كليّاً بشهادة المحامي (بضغط من أخوَي دجسي بالتأكيد)، فعادت عن قرارها جزئيّاً فقط، وأعطته إفادة بأنّه كان مسجّلاً فيها وإفادة بالمواد التي أنجزها، لكنّها لم تسمح له بمتابعة الدراسة فيها.

لكنّ فارس لم ييأس، واستطاع أن يتسجّل في جامعة أخرى حسنة الصيت هي جامعة سان لويس، دون أن يتخلّى عن قراره الالتحاق طوعاً بالجيش الأميركي في الوقت المناسب. لقد أجّل ذلك فقط إلى ما بعد الانتهاء من دراسته.

وأمضى فارس وقته، وهو ينتظر ابتداء الفصل الجديد، بالبيع المتجوّل بعدما استصدر رخصةً هذه المرّة لأنّه لم يأتِ إلى هذه البلاد ليخالف قوانينها. وأمضى وقته أيضاً بالدرس استعداداً. وأصرّ في هذا الوقت على إتقان اللغة الإنكليزيّة إلى مستوى أعلى من مستوى الأميركيين أنفسهم.

ثمّ إنّ تبنّيه قِيَم المواطنيّة الأميركيّة الحقّة، بالتحاقه بالجيش الأميركي، سيُظهر للناس جميعاً حقيقة المواطن السوري، وحقيقة الجنديّ السوري، وشجاعته في القتال، وإخلاصه في خدمة الوطن وتفانيه في سبيل القيم الرفيعة.

ـ لسنا هنا لنأخذ فقط! كان يردّد دائماً لمن يلتقي بهم من المهاجرين، أو لمن يراسلهم في الوطن والمهاجر الأخرى ـ نحن هنا لنُعطي أيضاً.

ثمّ إنّ فارس كان متفوّقاً في كلّ المواد التي كان يدرسها، بما في ذلك الرياضة، وبما في ذلك مادة التشريح التي أعادته بالذاكرة إلى أيّام الجامعة في بيروت، وإلى سرقة الجثث من أجل أن يستطيعوا تعلّم هذه المادّة، وأعادته بالذاكرة أيضاً إلى يورما!

«يورما الشهيدة!» قال في نفسه.

يورما شهيدة مادة التشريح في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ضحيّة التخلّص من الخرافات، ضحيّة لسانه الطويل، وإفشائه سرّ ما كانت تفعله له. لكنّ هذا لم يكن في الحقيقة إفشاءً بل كان تقليداً بين الرفاق، أن يتناقلوا أخبارهم مع المومسات أو «الشراميط» كما بدأ الناس يسمّونهنّ في بيروت.

وتذكّر أنّه تغيّب عن درس التشريح في بيروت لأنّ الجثّة كانت لعمّته.

كم تبدو اليوم بعيدةً تلك الذكريات!

فاجأه هذا الشعور. لكنّ الوطن قريب! قال مُطَمْئِناً نفسَه.

وأعاده نجاحه في مادّة التشريح بالذاكرة أكثر من كلّ شيء آخر إلى والدته! وخاف عندما بدت له والدته أنّها من وجود آخر سابق، ومن حياة أخرى سابقة، ثمّ ناداها باسمها:

ـ زكيّة! أم فارس!

وناداها بصوت عالٍ، ليطمئنَها إلى أنّه ما زال هو هو، ابنها فارس، وأنّها ما زالت هي هي والدته التي عاشت من أجله ومن أجل إخوته. وليُطَمئن نفسَه.

وفي الفصل الأخير الذي سبق التخرّج، طلب من والده المساعدة حتّى لا يُضطر إلى العمل بالكشّة كعادته في العطل المدرسية.

كان يعمل بالكشّة في الصيف بخاصّة، ويدّخر ما استطاع لأنّ كلفة الدراسة كانت أعلى بكثير ممّا توقّع، إذ إنّ الأمر لا يقتصر على القسط وحسب، بل هناك الإقامة أيضاً والأكل والكتب والدفاتر والأقلام ومصاريف المختبر وما إلى ذلك، وهناك مستوى اللباس الذي يفرضه الوسط الذي هو فيه، وهناك التسلية والمقهى، وهناك المومسات اللواتي لم يكن يحرم نفسه منهنّ من وقت إلى آخر وبخاصّة بعد نهاية علاقته بدجسّي. كان يرى أن هذه التسلية جزءٌ من العمل. وقد تعرّف إلى مومس صينيّة في الأشهر الأخيرة كانت هاربة بدون أوراق ثبوتيّة من كاليفورنيا منذ العام ١٨٧٧ حين بلغت الاضطرابات المعادية للعمّال المهاجرين الصينيّين هناك ذروتَها. عرّفه إليها شاب لبناني مهاجر كان يأتي بها سرّاً في الليل إلى الغرفة التي يسكن فيها.

كان فارس على علاقة خاصّة بالمومسات، وكان يعطف عليهنّ ويثور في نفسه على ظروف الحياة التي أجبرتهن على أن يكنّ ما هنّ عليه.

كانت حياة المومسات في أميركا تذكّره بظروف الحياة في بلاده، في الوطن البعيد المتروك لمصيره.

سيعود.

والآن وقد أنهى دروسه وتخرّج طبيباً يجب أن يأخذ نفَساً وأن يضع بهدوء خطّة للمرحلة المقبلة وأن يُحدّد الأولويّات.

لن يعود إلى الوطن قبل أن يجمع كمّية من المال تسمح له بشراء بيت وعيادة والعيش بضع سنوات بكرامة إذا ما تأخّر عمله بالانطلاق لسبب أو لآخر. لن يعود إلى بيروت صفر اليدين. هذا يعني أنّ عليه أن يعمل هنا في الغربة ما لزم من السنوات قبل أن يعود إلى الوطن.

وعليه في هذه الأثناء أن يكتسب ما أمكن من حضارة أميركا لينقل المناسب منها إلى وطنه.

وعليه أن ينتهز أقرب فرصة ملائمة ليخدم في الجيش الأميركي ولو لسنة أو حتّى لأشهر.

لن يعود فارس إلى الوطن وفي نفسه ذكرى الذلّ الذي عاشه بمناسبة علاقته بدجسّي الأميركيّة. سيمحو هذه الذكرى بإشعار جميع الذين تورّطوا وتآمروا عليه بالندم والذنب.

فارس ليس حاقداً على أحد، لكنّ كرامته الشخصيّة وكرامته الوطنيّة على المحكّ، وهو لا ينسى أنّه لهذا السبب بالذات ترك الجامعة الأميركيّة وهاجر إلى أميركا.

ثم إنّ الخدمة في الجيش الأميركي، إضافةً إلى كلّ ذلك، ستسهّل عليه الحصول على الجنسيّة الأميركيّة التي ستساعده على العمل في بيروت دون ضغط من السلطات العثمانيّة، بسبب

الامتيازات التي يتمتّع بها حاملو الجنسيّات الأجنبيّة في جميع الأراضي الخاضعة لحكم السلطنة.

لكنّ العمل بعد التخرّج بشهادة الطبّ لم يكن سهلاً بشكل عام، ولم يكن سهلاً عليه بشكل خاص، لأنّه أوّلاً لا يملك من المال ما يسمح له بفتح عيادة خاصّة به، ثمّ إنّه ما زال طبيباً متخرّجاً بدون تجربة، فلن يثق به أحد، بل لن يثق هو بالذات بنفسه. والطريقة الفضلى للبدء كانت بأن يعمل مساعداً لطبيب في مرحلة أولى. وانتظر هذه المناسبة وهو يقرأ الجرائد كلّ صباح علّه يقع على إعلان مناسب، ودام هذا الوضع عدّة أشهر طلب أثناءها مساعدة مادّيّة من أبيه الذي لم تكن أحواله في تلك المرحلة على خير ما يُرام. ثمّ رأى نفسه مضطراً إلى البيع بالكشّة من جديد، إلى أن قرأ ذات صباح باكر جدّاً إعلاناً عن طبيب يطلب مساعداً له، فسارِع إلى الحضور إلى المكان المعيّن في الإعلان، آملاً أن يكون أوّلَ الواصلين، لكنّه فوجئ بأنّ عدداً من الأطباء المتخرّجين الجدد سبقه إلى المكان، ولم يرَ في ذلك إشارة خير، وفكّر في ألّا يمضي ساعات من الانتظار بلا أمل فِعلي، وأن يعود إلى عمله بالكشّة فلا يضيّع عليه النهار، لكنّه فوجئ بالطبيب يطلب منه بعد انتهاء المقابلة أن يعود غداً لمقابلة ثانية. وفي نهاية هذه المقابلة الثانية قال له الطبيب:

ـ أتعرف لماذا اخترتك من بين جميع المتقدّمين؟

فوجئ فارس بهذا السؤال، لأنّه كان موقناً بأنّه اختير على أساس ملفّه، وهذا كان شرطاً ضروريّاً بالطبع، لكنّ ملفّات أخرى كانت تعادله في القيمة.

ـ اخترتك بسبب اسمك! إنّ اسمك «فارس هاشم» ليس أميركيّاً، والأميركيّون يثقون بالأطباء الآتين من بلاد بعيدة، وبخاصّة منهم الأميركيّات اللواتي يؤمنّ بقدرة الأطباء الأجانب على الشفاء.

فتعجّب فارس ممّا سمع، وتذكّر أنّه قرّر وهو يتسجّل في كلّية الطبّ في سان لويس أن يُؤمركَ اسمه حتّى لا يعاني من التعصّب العرقي، لكنّ شيئاً ما غامضاً منعه من ذلك، شيئاً يشبه الصوت جاءه من جدِّه في جبل لبنان، ومن جدّ جدّه، ومن المقابر على أطراف القرى، فأبقى على اسمه.

إنّ اسمه عنوان تعلّقه ببلاده.

لن يموت فارس منصور هاشم في بلاد الغربة، حتّى ولو كانت بلاد الغربة هذه الولايات المتّحدة الأميركيّة، التي يحترمها أشدّ الاحترام، ويحترم حضارتها وقوانينها، والتي هو عازم على الانتساب إلى جيشها.

وهكذا بدأ العمل في قرية صغيرة تعداد سكّانها مئتا نسمة فقط، لكنها كانت ملتقى طرق لقرى عديدة، وكانت محاطة بمزارع كثيرة ومزدهرة. وكان عمله محدّداً في أن يحلّ محلّ مستخدِمِه طوال مدّة غيابه، وكان مستخدِمه لا يأتي إلّا ثلاث مرّات في الأسبوع، هي الإثنين والأربعاء والجمعة، وفي أوقات ما قبل الظهر لساعة أو ساعتين فقط. لأنّه كان يملك عيادات خاصّة أخرى في أماكن مختلفة.

والشيء الغريب الذي حدث لفارس هو أنّ أوّل طلب استعانة به كان من مزارع في لباس الحقل، طويل القامة قويّ البنية، أشقر الشعر أبيض الوجه أحرقت بشرتَه أشعةُ الشمس، وقد دخل عليه

في مكتبه وقال له:

ـ عندي عجل يموت!

ـ عجل؟ قال فارس بدهشة.

ـ عجل! نعم! فقد أُخبرت أنّك شرقي، وأعرف أن الشرقيين يعرفون الكثير من أسرار هذا العالم، ومن أسرار الحياة والموت.

فاعتذر فارس مذكّراً إيّاه بأنه طبيب بشري، وليس طبيباً بيطريّاً، وأنّ هذين اختصاصان مختلفان، وأنّه بالتالي لا يحقّ له قانونيّاً التعدّي على مجالات ليست من اختصاصه.

وكان اعتذار فارس شديد التهذيب، خوفاً من أن يكون هذا المزارع عنصريّاً يرفض وجود الأجانب في بلدته، التي كانت بالفعل خاليةً منهم، ولم يكن فيها إلّا فارس الوافد الجديد الوحيد.

وكانت الحالة البشريّة الأولى التي جاءته صبيّاً ينازع في منزل والديه، وكان عليه مجابهتها بلا تردّد. كان الكاهن موجوداً في المنزل حين وصل، وكان أنهى إجراء المراتب الدينيّة التي تُجرى للشخص الذي يموت. لكنّ فارس لم ينجح في إنقاذه وتوفي الصبيّ بين يديه.

لم يعالج فارس حالةً واحدة قبل أن يتسلّم هذا العمل في هذه القرية النائية، ولم يكن أيّ من أساتذته إلى جانبه ليستشيره، ولم يكن مستخدِمُه معه. وحين كان في المرحلة الأخيرة من دراسته الجامعيّة لم يكن يسمح له بمعالجة أحد في المستشفى الجامعي كما كان يسمح لبعض زملائه الأميركيين، وذهبت ظنونه إلى أنّ

السبب كان «سياسيّاً»، أي بكلام أقلّ ديبلوماسيّة «عنصريّاً».

وانتشر الخبر في القرية والجوار بأنّ الصبيّ توفّي بين يدي الطبيب السوري الجديد، الذي لم يستطع أن يفعلٍ له شيئاً. وقرّر فارس إثر ذلك ترك القرية، وعاد وقرّر من جديد أَمْرَكَةَ اسمه، وفكّر في أن يسمّي نفسه «جوناثان» في مكان عمله المقبل.

وكان يستعدّ للعودة إلى نيويورك للعمل بالكشّة، في انتظار مناسبة سعيدة، حين وصل مستخدِمُه، وأقنعه بالعدول عن قراره والبقاء في القرية، وقال له إنّه يعرف هذا الصبيّ الذي كان مصاباً بمرض لا يمكن شفاؤه، والذي كان أهله يعرفون باستحالة شفائه، فقَبِل بأن يعاود المحاولة، لكنّ الحظ السيئ لم يفارقه إذ جاءته حالة أخرى أخطر من الأولى، وكانت سيّدةً ضعيفة القلب أصرّت على الحبل لأنّها بدون ولد، فتوفّيت وهي في شهرها الخامس. وحضر «الطبيب السوري» نزْعها الأخير ومفارقتها الحياة.

وحاول مستخدِمُه هذه المرّة أيضاً أن يثنيه عن قراره الحاسم بترك البلدة فلم ينجح، وكان لهذا الطبيب الأميركي عيادات في قرى أخرى فاقترح عليه أن يتبادل المراكز مع طبيب آخر، فوافق فارس أخيراً بعدما أقنعه مستخدِمه بأنّ هؤلاء المزارعين الذين يقيمون في هذه القرى النائيّة، لا يقصدون الطبيب إلّا عندما يقترب المريض منهم من الموت المحتّم. وأخبره بأنّه واجه حالات عديدة من هذا النوع مات المريض فيها بين يديه.

واشترط المستخدِم على فارس ألّا يغيّر اسمه، وذكّره بأنّه اختاره من بين الآخرين بسبب اسمه العربي. وأكّد له أنّها مرحلة سيّئة قد يمرّ بها أي طبيب مهما تكن خبرته، وبأنها مرحلة ستنتهي.

ثمّ بدأت بالفعل نجاحات فارس في هذه البلدة الجديدة. وكانت أوّل حالة جابهته صبيّة في الخامسة عشرة من عمرها في وضع دقيق جدّاً، فشفاها. ثمّ جاءته حالة أخرى صعبة جدّاً فشفاها أيضاً، وظلّ يشفي حتّى بلغ صيته بعد بضع سنوات الأماكن البعيدة، وكثرت مواعيده حتّى شبّهه بعضهم بالمسيح الثاني الآتي من أرض فلسطين. وكان هو يسند نجاحه بمحادثة المرضى وأهلهم عن أرض فلسطين وبيت لحم حيث ولد السيّد المسيح وعن الناصرة حيث عاش مع والديه وعن بستان الزيتون حيث قُبض عليه، وعن القدس حيث صُلب. وكان يخبرهم عن جبال لبنان المحيطة ببيروت، والقرى المنثورة عليها، وغابات الأرز المقدّس والصنوبر والسنديان. وكان يصف لهم سهول سورية وروابي فلسطين بشكل مطابق لما هو مذكور في التوراة. كان هؤلاء المزارعون والساكنون في الأرياف البعيدة يحبّون أخبار البلدان المذكورة في التوراة.

وهكذا قرّر فارس فتح عيادة خاصّة به، مؤجّلاً عودته إلى بيروت مرّة أخرى.

وكان يشعر بالذنب لأنّه لم يفِ بوعده بالتطوّع في الجيش الأميركي، لكنّه لم يكن يقطع الأمل من الوفاء به.

أمّا أوّل من زاره في عيادته الجديدة في برودواي، عند مفرق شارع غراند ستريت، قرب مكان سكنه السابق، فكانت «حسنا»، خطيبته السابقة، وابنة بلده. علمت فوراً بمكان عيادته وموعد البدء بالعمل فيها، لأنّ الخبر انتشر بسرعة في أوساط الجالية اللبنانيّة السوريّة، التي كانت فخورة بابنها البار، الذي صار طبيباً مشهوراً، يعترف له الأميركيون بالقدرة، ويشبّهه بعضهم بالمسيح

الثاني الآتي من أرض فلسطين.

قالت له حسنا: أنا بصحّة جيّدة، لكنني جئت لأقول لك إنّ زواجي سيُعقد في الأسبوع المقبل، فإن شئت الزواج منّي فأنا مستعدّة لأن ألغي زواجي فوراً، وأن أذهب معك أينما تريد ومتى تريد، فاضطرب فارس، وعاد من جديد يشمّ فيها رائحة الوطن، فقام وضمّها إليه، وأراد تقبيلها لكنّها رفضت، فأغرته عفّتها وزادته رغبةً فيها، فحاول إجبارها لكنّها قاومته، ثمّ أفلتت منه وخرجت من عيادته بدون أن تقول له كلمة وداع. وفي الأسبوع التالي تزوّجت.

وظلّ فارس هكذا يؤجّل عودتَه إلى لبنان، حتّى جمع ثروة لا بأس بها، وضع قسماً منها في أحد البنوك واشترى بقسم آخر أسهماً، واقتنى بالقسم الباقي بضع شقق في مدينة نيويورك. وكان كلّما كبرت ثروته وازدادت عودته إلى لبنان صعوبةً ازداد رغبةً في العودة، وازداد شوقه إلى ربوع بلاده الجميلة، وإلى قمم جبالها المكلّلة بالثلوج، وبحرها الهادئ المزاج، ونسيمات هوائها التي تشفي العليل.

ثمّ قرّر مرّةً لمّا ألحّ عليه الشعور بالذنب، وألمّ به الشوق، أن يعود نهائيّاً إلى وطنه وأن يقيم في بيروت، وأن يتزوّج فيها بالسرعة الممكنة، ولن يكون ذلك أمراً صعباً عليه لأنّ شهرته سبقته إلى هناك، وصارت أضعاف ما هي عليه في أميركا. واتفق مع والده على أن يسبقه والده إلى بيروت وأن يهتمّ بشراء بيت له ومكان لعيادته، في منطقة رأس بيروت قرب الجامعة الأميركيّة، فربّما رأى أن يعطي فيها بعض الدروس للبقاء على اتصال مع الجيل الجديد والبحث الجامعي. ولأنّ رأس بيروت منطقة مختلطة، فيها من

جميع الطوائف والجنسيات، وهو لا يتحمّل أن ينشأ أولاده في منطقة بلون طائفي واحد.

وبعد سنة من عودة والده، وفي العام ١٨٩٨، وبينما كان هو في نيويورك يبيع أملاكه والأسهم التي يملكها، شيئاً فشيئاً، ودون تسرّع، حتّى لا يخسر ببيعها بدون داع، نشبت الحرب بين الولايات المتّحدة وإسبانيا في كوبا. وبدأ الشباب الأميركيّ بالتطوّع استجابة لنداء الوطن وخدمةً لعَلَم البلاد المفدّى. ولم يرَ فارس نفسه إلّا في صفّ المتطوّعين في مركز برودواي. لقد تطوّع كطبيب حتّى تنتهي الحرب فقط، محقّقاً بذلك حلماً قديماً بالبرهان للأميركيين من هو السوري جنديّاً بعدما برهن لهم من هو السوريّ طالباً ومهنيّاً.

وبعد أقل من أسبوعين جاء الأمر بالإبحار إلى كوبا على باخرة تابعة للبحريّة الأميركيّة.

وكانت المفاجأة السعيدة التي صادفت فارس أنّه التقى هناك على أرض المعركة في كوبا عدداً كبيراً من السوريّين المجنّدين طوعاً، وكان أوّل من التقاهم «جبرائيل الياس ورد» من مدينة طرابلس، وقد سأله باللهجة اللبنانيّة:

ـ شو عم تعمل هون؟

فأجابه جبرائيل بإنكليزيّة مُكَسَّرة متعثّرة:

ـ أنا هنا لأخدم رايتنا المجيدة، راية الخطوط والنجوم، الراية الخفّاقة فوق صرح الحرّيّة السامي. أنا هنا لأساهم في صنع تاريخ أميركا المجيد، الذي يضج بالرقي والأدب والتجارة والصناعة والاختراع. أنا هنا لأدافع عن بلد الحرّيّة الثابتة، التي يحميها الدستور الذي يعطي لكلّ حقَّه.

فدهش فارس من هذه الإجابة التي كانت في شكل خطاب حماسي، وكان ينتظر إجابةً بسيطة تعرّف بجبرائيل فقط، ولم يكن يدري أن جبرائيل قد تعرّض لتجربة أزعجته كثيراً، وهي أنّه قُبض عليه وهو يتنقّل في المعسكر من خيمة إلى أخرى ومن طابور إلى آخر، بدون هدف معيّن، واتُّهم بالتجسّس لأنّه الجندي الأكثر شبهاً بالإسبان من حيث ملامحه ولون بشرته السمراء، وزاد الأمر خطورةً أنّه كان يعرف الإسبانيّة، لأنّه أقام في الأرجنتين سنوات قبل أن ينتهي به المطاف إلى الولايات المتّحدة. وقد أنجده قائد فرقته الذي كان قائد الشرطة في مدينة «سبرينغفيلد» حيث كان يقيم، والذي كان يعرفه من قبل، ويعرف أنّه من «جنس» سوري لا إسباني.

التقى الطبيبُ فارس الجنديَّ جبرائيل في محيط الخيمة التي كان يقيم فيها الكولونيل «ثيودور روزفلت» على مقربة من مدينة «سانتييغو» الكوبيّة، حين تعرّض الكولونيل لوعكة صحيّة استلزمت طبيباً، فنودي على الطبيب السوري الشهير.

وكان الكولونيل يُبقي جبرائيل في متناوله ليستعين به مترجماً عن الإسبانيّة كلّما دعت الحاجة.

يا للصدفة!

حين وقع نظر فارس على الكولونيل روزفلت دُهش. هذا هو الوجه الذي رآه في بيروت، قربَ الجامعة الأميركيّة أوائلَ السبعينيات. حين انتشر الخبر في المدينة بأنّ شخصيّة أميركيّة مهمّة من آل روزفلت يزور مع عائلته بيروت ويقيم في منزل رئيس الجامعة الأميركيّة الدكتور «بلِس»، ذهب هو وصديقاه جرجي زيدان وسعدالدين الجباوي، إلى جوار الجامعة وشاهدا ثيودور الابن يركب على حمار مع ابن الرئيس بلس ويجولان قرب الجامعة ويتضاحكان، وكاد ثيودور مرّة أن يقع عن ظهر الحمار وأن يوقِع معه بلس الابن.

ـ بلى! أجابه الكولونيل عن سؤاله. زرت بيروت وأحببتها، وأحببت بلادكم، وأحفظ لها في قلبي ذكرى جميلة. ووافقتُ على استدعائك عندما اطّلعت على منشئك، وهذا ما شجّعني أيضاً على الاستعانة بمترجمي جبرائيل.

وكاد فارس أن يسكر من الفرح بهذه الشهادة، في تلك البلاد البعيدة.

وسُرّ فارس عندما أخبره جبرائيل بأنّ عدداً من السوريين تطوّعوا في الجيش وهم الآن على الأرض الكوبيّة، وأخبره بذلك باللغة الإنكليزيّة ليسمع الكولونيل. وكان سرور فارس عائداً إلى اعتباره أنّ هؤلاء الجنود الذين يكتسبون خبرة القتال بالطرق الحديثة المتطوّرة سيشكّلون نواة الجيش المستقبلي في سوريّة (أو في لبنان على الأقلّ ـ لأنّ الملامح بدأت تشير في ذلك الوقت إلى نشوء ثلاث دول في سورية العثمانيّة،

هي سوريّة ولبنان وفلسطين، بدل دولة واحدة.)

وكان فارس يوصي جبرائيل كلّما التقاه، بأن يكون مثالي السلوك والمناقب، ليعطي صورةً رائعة عن الجندي السوري في ميادين القتال. لذلك فإنّه غضب منه مرّة حين رآه يبيع معلّبات إلى الجنود. فقد حدث أنّ جبرائيل كان يحمل معه على الشواطئ الكوبيّة بنطلوناً لا حاجة له به، فعقد رجليه بعضهما ببعض حتّى صار كالخرج، وراح يضع فيه ما يلتقطه من المعلّبات التي كان يوزّعها الجيش الأميركي على جنوده والتي كانت تقع منهم. وعند المساء، حين يرتاح الجنود، كان يتنقّل بينهم ويبيعهم هذه المعلّبات. وقد ربح من هذه التجارة في يوم واحد، وهو اليوم التالي على نزولهم من البواخر إلى شواطئ كوبا، ستّين دولاراً.

قال له فارس حين سمع منه هذا الخبر: أميركا بلاد خير، فلا تنسَ أن تبادلها بالمثل.

ثمّ رآه مرّة يطلب سيجارةً، من الأميركي «فرار هويتمان»، قبَيل أن يبلغوا بلدة «ألكاني»، لأنّ الدخان نفد منه كما نفد من غالبيّة الجنود في الفرقة، فادّعى «فرار» أنّه لم يبقَ له سوى هذه اللفافة التي كانت بين يديه، والتي كان يدخّنها بمتعة فائقة، لكنّ جبرائيل رآه بعد فترة مختبئاً وراء جذع شجرة يلفّ سيجارة من علبة سحبها من جيب قميصه، فلم يتردّد في التقدّم منه ومخاطبته بالقول: لم تعد تنطلي حيلك عليّ فهات سيجارةً إذن! فأجابه فرار أنّه سيرفض أن يقدّم سيجارة حتى لوالده لو جاءه الآن مباشرة من سبرينغفيلد. وقال له إنّ السيجارة في هذه الظروف أغلى من كلّ ما يملك. وكان جبرائيل يحترق رغبةً في سيجارة، فأسرّ لفارس إنّه يتمنّى أن يُقتل هذا الرجل ليستولي على علبة سجائره.

فحذر فارس منه، وخاف من أن يكون سيّئ المعدن.

ودعّم خوفه هذا ما رآه منه في الساعات الأولى من المعركة الشهيرة على بلدة الكاني، التي لا تبعد إلّا أميالاً عن مدينة سانتييغو، والتي كان الإسبان قد حصّنوها بالخيّالة والمشاة، وبعدّة صفوف من الخنادق وبالمدافع السريعة الانطلاق. تشنّجت عضلات جبرائيل وهو منبطح على الأرض عندما بدأ القصف وإطلاق النار، وراح يرتجف من الخوف وبندقيته في يده كأنّها عصا ليس إلّا، وكان كلّما انطلقت من جانبهم قنبلة أو تلقّوا من الإسبان قنبلة، يلتصق أكثر بالأرض. وزاد الأمر سوءاً عندما التفت إلى يمينه ورأى أحد رفاقه يتخبّط بدمه، فراح يطلق النار جزافاً وعلى غير هدى، ولمّا رآه فارس عاجزاً عن الوقوف اقترب منه وهو يصيح بالعربيّة الفصحى:

ـ يا جبرائيل! أنت جنديّ سوري! قاتلْ من أجل وطنك! أميركا الآن هي سورية!

ثمّ عاد جبرائيل وتمالك نفسه بعد الوهلة الأولى هذه، وأظهر أنّه جنديٌّ شجاع، إذْ تقدّم واقتحم وكاد أن يُقتل مرّات. عاد وأبدى شجاعةً أدهشت رفاقه الأميركيين وأثارت إعجاب قادته، وقد خجل منه الضابط الذي اتّهمه بالتجسس لمّا رآه على هذا المستوى من الشجاعة والفاعليّة في القتال، واعتذر منه تكراراً.

وشاهده فارس وهو يتقدّم من موقع إلى موقع، نحو الخطوط الحصينة للإسبان على أبواب بلدة ألكاني، وكان الجنود يتساقطون من حوله صرعى ويزداد هو عزيمةً واندفاعاً. وتحوّل حذره وخوفه إلى فخر صرف.

لكنّه لحظه مرّة ينحني على أحد الجرحى، ويأخذ من جيب قميصه علبة دخان، ويلفّ منها سيجارة ويدخّنها، فانزعج ممّا رآه، وسأله عن ذلك وقت الاستراحة، فتبسّم جبرائيل وقال له باللهجة اللبنانية:

ـ ما بدها هالقد!

وقصد بذلك أنّ الأمر لا يستحقّ هذا الانتباه، وأنّ على فارس بالأحرى أن يأخذ الأمور ببساطة، وليس بهذه الجدّية القصوى وهذه المهابة.

ـ الأميركيّون يحبّون «المقالب» والمزاح! فما الضرر في الذي فعلتُه؟ أضاف جبرائيل.

ثمّ إنّ فارس لم يعالج جبرائيل من جروحه التي أصيب بها في هذه المعركة، لأنّه لم يعرف بإصابته إلّا في اليوم التالي، فأسرع إليه فوجده وإلى جانبه ممرضة تعتني به باهتمام زائد، وكان رغم الوجع الذي يشعر به بمزاج جميل. كان مسروراً بهذه الممرّضة إلى حدّ كاد معه أن ينسى إصابته، وكانت المفاجأة بالنسبة إليه أنّ فتاة لا يبلغ عمرها العشرين، تتناول جسمه بيديها الاثنتين، وتلمسه وتقلّبه وتشعر معه وتعتذر منه حين تؤلمه وكأنّه بين يديها درّة نادرة، وكلّ ذلك ببراءة وطهر كاملين.

كانت هذه الممرّضة الأميركيّة المتطوّعة ممتنّة بعمق لهذا السوري الآتي من بلاد بعيدة، والذي يدافع باستماتة عن وطنها، وكانت تشعر بأنّها مهما فعلت له تبقى مقصّرة.

لم يختبر جبرائيل حالةً مثل هذه من قبل. لم يسبق له أن اقتربت منه امرأة إلى هذا الحد، ولامسته بدون تردّد أو خفَر. امرأة شريفة. فتاة دون العشرين. لم يشعر من قبل بأنّه شخص مهمّ إلى هذا الحدّ. أخبر جبرائيل فارس بالعربيّة أنّه لا يصدّق بأي حسن تعامله هذه الممرضة. وأخبره أيضاً، وهو يبتسم ابتسامةً كانت مزيجاً من الخجل والمَلْعَنة، أنّه وهو في هذه الحالة يهتاج أحياناً ويخجل من أن تنتبه إليه، وأن تلحظ كِبَر غرضِه عند أسفل بطنه. بل أكثر من ذلك فقد أراق مرّة حين كانت تنظّف له جروحه. فنبّهه فارس إلى ضرورة السيطرة على النفس، حتّى لا نبدو شعباً غير متمدّن، وكرّر له ما كان جبرائيل خبره منذ سنوات، وهو أن المرأة حرّة هنا في هذه البلاد وأنّ مخالطتها الرجل لا تعني الرذيلة أو النيّة السيئة، وأنّ النساء هنا عاملات في كلّ الميادين وبخاصّة منها التمريض.

ـ أمّا الممرّضة التي تهتمّ بكَ الآن فهي تهتمّ بعشرات الجنود الجرحى بل بالمئات منهم، وهي فخورة إلى أقصى درجات الفخر، لأنّها تخدم وطنها الذي يؤدّب المعتدي، ويُنجد شعباً جريحاً، وينشر على أرضه رايات الحرّيّة والترقّي، وينير عتمتَه بنجومه التي تشعّ من علمه الخفّاق.

ـ أوكّي! أوكّي! أجابه جبرائيل، قاصداً بذلك أنّه سئم من دروس الأخلاق هذه!

وبعد ثلاثة أيّام من حادثة إصابته نقلت قيادة الجيش الجرحى في باخرة عسكريّة خاصّة إلى بلدة «كي وست» في ولاية فلوريدا، وعيّنت وفداً لمرافقتهم كان في عداده الدكتور فارس. وكان بين الجرحى سوريّ آخر من زحلة اسمه حنّا حدّاد أَمرَكَ اسمَه ليصير

«جون هاد»، وكان مصاباً في عينه إصابةً قد تفقده بصره، لكنّ معنوياته كانت عالية جدّاً، وكان مطمئناً إلى مستقبله لأنّ الحكومة الأميركيّة لا تتخلى عنه في أيّ حال. وقد أجريت له عملية في المستشفى العسكري في مدينة أطلنطا، التي نُقلوا إليها في قطار تابع للصليب الأحمر، ونجت عينه.

عانى فارس من جبرائيل، رغم رضاه عنه كجندي مقاتل، لأنّ هذا الأخير كان بمزاج مختلف تماماً وبعقليّة مختلفة.

لاحظ فارس وهم في القطار إلى «رتشمند» ـ فرجيني، أنّ جبرائيل يُحْدِث بسيجارته ثقوباً في قبّعته العسكرية، فسأله عن الدافع إلى ذلك، فأجابه جبرائيل بأنّه كان شارداً وقد حدث ذلك سهواً وخطأ. وقد أعدّت لهم السلطات في هذه المحطّة استقبالاً حاشداً يليق بـ«أبطال كوبا» كما سمّوهم، وحضر هذا الاستقبال جمع غفير، وأُقيمت لهم مائدة فاخرة، وإذا بصبيّة لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها تتقدّم نحوه وتستأذنه في إطعامه، فكاد دماغه ينفجر من وقع المفاجأة. قالت له: أرى يدَك مصابة فهل تسمح لي بإطعامك؟ ثمّ ادّعى أنّ يده الأخرى مصابة بالروماتيزم، فازداد حنانها عليه، وجلست إلى جانبه تطعمه فتمنّى لو أنّ له بطن الحوت الذي ابتلع يونان النبي. وكان فارس يراقب ويتعجّب ممّا يرى ويتعاظم تقديره لحضارة أميركا، وينزعج في الوقت نفسه من سلوك جبرائيل الذي «زادها» في استغلال وضعه وفي استغلال براءة الأميركيين وشعورهم بالامتنان.

ثمّ اقترب أحد الحضور من جبرائيل وقال له، يبدو أنّ قبّعتك شاركتك القتال وقد أصيبت مثلك، فهل تسمح لي باقتنائها مقابل ما تشاء؟ فادّعى جبرائيل بأنّه يصعب عليه التخلّي عنها لأنه متعلّق

بها عاطفياً، وهو يريد أن يُبقيها ذكرى، فسكت الرجل وهمَّ بالتراجع، فخاف جبرائيل من ضياع المناسبة فسارع إلى القول: ولكن إذا كنتَ فعلاً تريدها فخُذها، ففرح الرجل وأعطاه خمسة وعشرين دولاراً في المقابل.

ثمّ أقنع جبرائيل جنديّاً وهو في القطار، بأن يبيعه قبّعته مقابل خمسة دولارات، فأخذها وثقبها بسيجارته عدة ثقوب ليبدو أنّه نجا بأعجوبة، وباعها أيضاً.

ثمّ حزن كثيراً لأنّه لم يعد يجد أحداً من الجنود الجرحى يقبل ببيعه قبّعته.

ـ ربّما لأنّهم علموا بتجارتك وهم لا يريدون مشاركتك فيها! قال له فارس الذي كان يتمنّى لو يتوقّف جبرائيل عن هذه التجارة، التي قد تجعله يخسر كلّ الرصيد الذي كسبه من شجاعته في الحرب، والتي، وهذا هو الأهمّ، قد تعكس صورةً سيّئةً عن طباع الجندي السوري. لكنّ جبرائيل لم يكن له مزاج مواطنه الطبيب المثقّف، فكان كلّما سأله أحد من الأميركيين عن ولده الشهيد، يجيبه بأنّه هو الذي دفنه. وقد أجاب أحد الأثرياء الذي سأله عن ابنه، أنّه هو الذي كان بين الجنود الأربعة الذين حملوه إلى الحفرة ودفنوه فيها، فأعطاه مالاً ووعده بأن يعطيه أكثر لو استطاع أن يحصل له على عناوين الجنود الثلاثة الآخرين. بل أكثر من ذلك فقد جاءه في المستشفى في سبرينغفيلد والدة الجندي فرار هويتمان بالذات وأخته، وطلبا منه أن يخبرهما عمّا جرى لولدهما بالتفصيل، فأخبرهما بأنّه أوصاه بنقل السلام الأخير لوالديه، وأعطاهما برهاناً على ذلك العلبة التي كان يضع فيه الدخان والتي سرقها منه، فشهقتا بالبكاء، وقدّمتا له عربون وفاء

ساعة وسلسلة ذهبيّة. بل أكثر من ذلك فقد نشر والده، صاحب أهم جريدة في المنطقة، دعوة للتبرّع له بالمال، واستطاع أن يجمع له ٤٦٠ دولاراً أميركياً.

وقد أقام له المغتربون السوريون استقبالاً حافلاً قيلت فيه الكلمات الحماسيّة نثراً وشعراً.

ثم ساهم في ما بعد في تأسيس جمعيّات على منوال جمعيّة «تركيا الفتاة» ولكن لتحرير كامل البلاد السوريّة، وإقامة دولة حسب النموذج الأميركي.

أمّا فارس فعاد إلى كوبا ليتابع خدمته، وظلّ فيها إلى أن أُعلنت الهدنة بعد أشهر من القتال. وفي هذه الأثناء تعرّف إلى شابّة صينيّة كانت تقيم عند سيّدة لبنانيّة في الخمسين من عمرها، تملك بيتاً متواضعاً قرب المكان الذي تتمركز فيه فرقته.

وقد جاءت هذه السيّدة من قرية في الجنوب اللبناني اليوم، حيث قُتل والداها وهي صغيرة في واحدة من الحروب الطائفيّة التي يعرفها لبنان دوريّاً، وربّتها جدّتها مع أخيها الذي يصغرها بسنة بعدما نزلت بهما إلى بيروت وعملت خادمة. ولمّا بلغت السادسة عشرة هاجرت مع أخيها إلى كوبا حيث سبقهما أقارب من القرية، واستقرّا قرب بلدة ألكاني بعدما استطاعا أن يشتريا قطعة من الأرض كانا يزرعانها ويعتاشان منها. أمّا الأخ فمات عازباً فجأةً، وبقيت الأخت وحيدةً لم تتزوّج هي أيضاً في انتظار عودتها إلى لبنان.

أمّا هذه الشابّة الصينيّة فوجدت نفسَها بعد ترحال طويل من مكان إلى مكان، ومن معاناة إلى معاناة، عند هذه السوريّة، فأنست كلّ منهما إلى الأخرى وآختها. وكانت هذه الصينيّة تتكلّم الإسبانيّة والإنكليزيّة معاً، وكانت دائماً تُصرّ على أنّها عاشت من الخدمة في البيوت فقط، ولم تقترف إثم الدعارة، وكانت السيّدة اللبنانية لا تسألها عن تاريخها، ولا تريد أن تتأكّد من شيء. كانت تكتفي منها بأنّها هنا وأنّها ترتاح إليها كما لو كانت أختاً أو أهلاً من جبل لبنان، لأنّ هذه اللبنانيّة كانت لا تجهل ما يعانيه العمّال المهاجرون، وما يتعرّضون له، وبخاصّة منهم النساء.

وكانت هذه الصبيّة، واسمها «ساوا» جميلةً، ممّا زاد في خوفها من الجنود الإسبان أوّلاً، ثمّ من الجنود الأميركيين، رغم أنّ الصينيّات لم يكنّ مرغوبات كثيراً من الرجال الأميركيين، وكُنّ في غالبيتهنّ يُستجلبن إلى أميركا ليعملن في أوساط العمّال الصينيين، الذين كانت ترفض المومسات البيضاوات خدمتَهم.

ثم إنّ السيّدة اللبنانيّة، وكان اسمها «فلورا»، لم تتأخّر في المبادرة إلى إخفاء «ساوا» ما إن رأت الجنود الإسبان يصلون ويتحصّنون. وكانت ساوا لا تخرج إلّا بعد التأكّد من خلو المكان من كلّ إنس.

وفي ذات يوم وكان الأميركيون احتلّوا البلدة، سمعت كلاماً عربيّاً باللهجة اللبنانيّة، وسمعت صوتاً يقول:

ـ «شامِم ريحة تبّولة!».

فوقف شعر رأسها، وكانت هي بالفعل تقطّع البقدونس وتُعدّ صحن تبّولة! فاقتربت من مصدر الصوت وهي ترتجف. لم تسمع

أحداً يتكلّم العربيّة من زمان. رأت فارس في ثياب الجنديّة، وكان معه جنديّ سوري آخر من قرية من أعالي جبل لبنان، فصاحت بهما بالعربيّة اللبنانيّة:

ـ انتو ولاد عرب؟

واندفعت نحوهما تغمرهما وتدعوهما إلى بيتها.

عرفتهما من لون بشرتهما ولون شعر رأسيهما، وطولهما، وطريقة كلامهما، ونظرتهما وحركات أيديهما. لم تفكّر ولم تتردّد ولم تخطئ.

ثمّ إنّها لم تتأخّر في مناداة ساوا، التي خرجت من مخبئها وسلّمت عليهما باليد وكلّمتهما باللغة الإنكليزيّة.

يعرف فارس قصصاً كثيرة عن الصينيين، ويعرف أنّ منها ما هو صحيح ومنها ما هو دعاية عنصريّة، ويعرف عن الصينيات الكثير أيضاً، وهو لا يظنّ أن صينيّة تقيم بعيداً عن أهلها يجب أن تكون بالضرورة مومساً، أمّا فلورا «بنت العرب» فكان يبدو عليها أنّها لا تختلف في شيء عن والدته زكيّة وعن قريباته. وقد «أَسْبَنَت» اسمَها بعدما كان بالعربيّة «زهرة».

كان فارس مقتنعاً بأنّ ساوا لم تكن مومساً، رغم أنّها لم تكن عذراء عندما عاشرها أوّل مرّة، وقد سمحت له بمعاشرتها دون كثير من التردّد، لكنّه فوجئ حين طلبت منه أن يغمرها بعدما بلغت لذّته، وعندما حاول صديقه اللبناني الآخر أن يعاشرها رفضت بقوّة، وذهبت واختبأت في حضن فلورا وهي ترتجف، وعندما حاول فارس إقناعها ـ على سبيل الامتحان ـ أن تعاشر

صديقه انفجرت بالبكاء، وصارت تشهق حتّى كادت أن تختنق بدمعها، فتعجّب فارس.

وحين اقترب منها مرّة ثانية طلبت منه أن يغمرها فقط، ورجته أن يكتفي بذلك، فأحسّ فارس حينذاك بقرب هائل إليها واكتفى بأن غمرها، وظلّا هكذا طويلاً كعاشقين.

ثمّ إنّ ساوا لم تعد تسمح لفارس بمباشرتها، وعمل فارس بإرادتها عن طيب خاطر، وكانا يبقيان متلاصقين يتحادثان ما سمح وقته بذلك. وأخبرته أنّها ليست مومساً، وأنّها لو كانت مومساً لما أخفت ذلك عليه، وصدّقها بدون سؤال، بل أكّد لها أنّه يقبل بها شريكة حياته وأمّاً لأولاده حتّى ولو كانت مومساً من قبل. شرط ألّا يعرف أحد بذلك.

وصارت تنتظره بصبر يقطع نفَسها كلّما ذهب إلى عمله طبيباً وراء الخطوط الأماميّة، وكانت تضطرب كلّما سمعت أصوات المدافع تطلق من هذه الجهة أو تلك.

وكانت فلورا مسرورةً جدّاً بعلاقتهما، ولكنّها في الوقت نفسه كانت خائفةً من أن تذهب ساوا مع فارس إلى نيويورك، أو إلى أيّ مكان آخر وأن تتركها وحيدة. وصحّ ظنّها. فلمّا توقّفت الحرب وسرّح فارس، طلب من الكاهن الذي كان يرافق الجنود أن يزوجّهما، وعادت معه إلى نيويورك.

لكنّ فارس شجّع فلورا على العودة إلى لبنان والسكن معهما في بيروت، أو في بيت قرب بيتهما، وأقنعها بأن تحذو حذوه وأن تبيع ما عندها، وأن تعود، عوضاً عن البقاء وحيدةً تجترّ آلامها في هذه الغربة، فوافقته قائلةً:

ـ أعطتني كوبا، لكنّ الحنين يقتلني.

وطلبت إليه أن يبقى على صلة بها، وأن يُبلغها بوصوله واستقراره في لبنان حتّى تلحق به على الفور.

ساوا قالت لها وهي تودّعها: أنا الصلّة بينكما فلا تخافي!

أمضى فارس وزوجته ساوا سنة في نيويورك، استطاع أثناءها أن يحصل بلا عناء كبير على الجنسيّة الأميركيّة، وكان أثناءَها ينشط استعداداً للعودة إلى بيروت.

أحسّ فارس بالنجاح وأراد أن يقطف الوطن ثمرة هذا النجاح.

ثمّ باع ما أراد بيعه دون صعوبة، وجمع أغراضه، وركب سفينة بخاريّة هو وزوجته، ومضى نحو الشرق، نحو نجمة المتوسّط، بيروت.

وكان قبل إبحاره كتب إلى والده بموعد وصوله. وكتب كذلك إلى أصدقائه المقرّبين وبخاصّة جرجي زيدان في القاهرة وسعدالدين الجباوي في بيروت، وأجابه الاثنان بأنّهما سيكونان في انتظاره على المرفأ، وهذا يعني أنّ جرجي زيدان سيترك أعماله في القاهرة حيث أصبح من أعلامها، وسيسبقه إلى بيروت.

وكانت خطّة فارس وساوا أن يمكثا أسبوعين في باريس، وأسبوعاً آخر في مرسيليا، وكذلك أسبوعاً في روما ونابولي قبل أن تنتهي بهما الرحلة إلى بيروت.

وكان المحيط الأطلسي هادئاً على العموم طوال العشرين يوماً التي استغرقتها الرحلة إلى لوهافر في فرنسا على الضفّة الأخرى من المحيط. كانا في الدرجة الأولى بالطبع، وكانت سعادة ساوا عظيمةً.

وتحدّثا طويلاً.

وكانت تحبّ أن تستمع إليه وهو يخبرها عن بيروت وعن جبال لبنان التي تحضن بيروت وعن القدس وعن دمشق الخالدة.

وكان يحبّ أن يستمع إليها وهي تخبره عن نفسها وبالقليل الذي تعرفه عن الصين.

ساوا لم تعرف الصين لكنّ والديها كانا يخبرانها عنها. والدتها استطاعت النجاة من الموت في سان فرانسيسكو صيف عام ١٨٧٧ عندما بلغت الاضطرابات المعادية للعمّال الصينيّين أوجَها في الثالث والعشرين من تموز، وراحت عصابات من الشبان الأميركيين تجوب الشوارع وتحرق بيوت الصينيين ومتاجرهم، وتقتل منهم طعناً بالسكاكين أو رمياً بالرصاص، أو تشنقهم على الأعمدة والأشجار.

في تلك الليلة، حماها رجل أميركي وزوجته، وخبّآها عندهما حتّى هدأت الأحوال.

كان فارس وهو يسمع باهتمام شديد هذه الأخبار، يقابل بين العذاب الذي عاناه ويعانيه أهلُها وأهل جنسها من المهاجرين الصينيين، والعذاب الذي عاناه ويعانيه أهل قومه من المهاجرين السوريّين. كان عذاب السوريين على قساوته يسيراً قياساً على ما عاناه الصينيّون.

ـ ليس للشرّ قاع! قال لها وهما على سطح الباخرة في يوم هادئ وجميل.

وأخبرته أنّ والدها جاء إلى كوبا هارباً من البيرو، حيث كان يعمل في إحدى المزارع، واشترك في الاضطرابات التي حدثت هناك عام ١٨٧٠ والتي بدأت عندما هاجمت مجموعة من الصينيين البائسين اليائسين صاحبَ مزرعة مع ثلاثة من مدعوّيه إلى العشاء، وقطّعوهم وعبثوا بجثثهم، وانتقلت الشرارة إلى العمّال الصينيين الآخرين في المدينة وجوارها، وراحوا يقتلون كلّ من يلتقونه ويغتصبون النساء قبل أن يقتلوهن. وكانوا يعلّقون جثث قتلاهم عراة أو بما بقي عليهم من ثياب على أعمدة الشوارع، لكنّ المدينة المجاورة استعدّت لهم، وفاجأتهم قبل بلوغهم إيّاها، وقتلت منهم الكثير حتّى غطّت جثثهم الطريق إليها.

ساوا متأكّدة من أنّ والدها كان بين المتمرّدين وأنّه قَتَل واغتصب، لكنّه لم يكن يأتي على ذكر ذلك بل كان دائماً يدّعي أنّه نجا من الموت لأنّه نجح في الدفاع عن نفسه، وكان يخبرها كثيراً عمّا عاناه من عذاب منذ صعوده إلى الباخرة عند الشاطئ الصيني حتّى وصوله إلى البيرو: مات منّا الربع ورُمِي في البحر عن ظهر الباخرة قبل وصولنا إلى شواطئ البيرو. لم يدفن أحد من هؤلاء في قريته، ولم يكرّمه أحد في قبره هناك بين أهله، ولن يكرّمه أحد حتى آخر الدهور. ثمّ استقبلنا على البرّ عند وصولنا بكرابيج من عضل الثور الميبَّس، وعندما تلقّيتُ أوّل ضربة من رجل كان على ظهر حصان، شددتُ الكرباج فسقط الرجل عن ظهر حصانه، وكانت الكارثة. لم أعاقب وحدي، بل عوقب كلّ من كان على الباخرة، بالجَلد طوال النهار. ثم قصّت أذناب شعر رؤوسنا التي نفخر بها ونتميّز.

كنّا نجرّد من ثيابنا ليتمكّن المستخدِمون من تقدير قوّتنا البدنيّة قبل أن يشترونا.

كنّا نعمل في الأعمال المستحيلة إحدى وعشرين ساعة، من أصل أربع وعشرين ساعة في اليوم.

عملتُ أوّلَ وصولي في تحميل البواخر بسماد الحيوان، كنت دائماً على وشك الاختناق من هذه الرائحة. كانوا يضعون حرّاساً بيننا وبين البحر حتّى لا ننتحر برمي أنفسنا في الماء، من شدّة التعب والشعور بالقهر. وعندما غافلتُ الحرّاس مرّة ورميت بنفسي في البحر متمسّكاً بوعاء مملوء ببراز الحيوان حتّى أغرق، استطاع الحرّاس بلوغي، فعاقبوني بأن وضعوني يومين بلا طعام في خزّان ماء مكبّل اليدين والرجلين، وحول رأسي حلقة من خشب تمنعه من الغرق. ثمّ جاء أحد ملّاك المَزارع واستأجرني من الوكيل الذي جاء بي إلى البيرو، وقد سررت عندما ارتحت من الرائحة، لكنّ الحياة لم تكن أسهل في مكان عملي الجديد. كنت أوّلاً أحلم بالغرق في البحر، فصرت أحلم بأن أشنق نفسي على شجرة.

كانوا لا يطعموننا إلّا ما يضمنون به بقاءنا أحياء لا غير. وكان من يمرض منّا يُرمى كالجرذ بعيداً حتّى لا يثير عاطفة أحد أو اشمئزازه.

ـ ليس للشرّ قرار! قال لها فارس مجدّداً. وغمرها وشدّها إليه. وفي هذه اللحظة، لم تعد ساوا قادرة على كبت السرّ فباحت له بما لا يُباح، لأنّها في هذه اللحظة أرادت أن تتعرّى أمامه بالكامل. قالت له: أنا لست ابنة والدي. وحين التقى والدي بوالدتي كانت حبلى. كانت هاربة من سان فرانسيسكو لأنّ الوكيل الذي جاء بها من

الصين لتعمل في البيوت أراد أن يشغّلها في الدعارة، لأنّ المومسات الأميركيات كنّ يرفضن خدمة الرجال الصينيين، وكان عشرات الآلاف من هؤلاء الصينيين شباباً بدون زوجاتهم، وكانت المومسات الصينيّات قليلات العدد كثيراً نسبةً إلى الطلب.

لكنّ والدة ساوا رفضت هذا العمل فاغتصبها الوكيل حتّى يجبرها على القبول بعرضه. لكنّها أصرّت على الرفض، وكانت حين استطاعت الوصول إلى كوبا مستديرة البطن تماماً. لكنّ والدي قال لها: انسي الموضوع، واعتبري أنّ ما في بطنك منّي.

لم يكن من السهل على فارس أن يتقبّل ذلك، لكنّه اطمأنّ حين تأكّد من أنّ ساوا لم تبح بالسرّ حتّى إلى فلورا، وطلب منها أن تنساه وألّا تبوح به لأحد وبخاصّة في بيروت.

ثمّ أخبرته بأنّها تحلم منذ وفاة والديها بأن تَدفن أثراً منهما ما زالت تحتفظ به في قرية والدها في الصين. وهذا الأثر هو خصلة من شعر رأس كلّ منهما، وقصاصات من أظافرهما.

وقبل وصول الباخرة إلى سواحل فرنسا بأسبوع، قالت ساوا لفارس، أظنّ أنني حبلى! ففرح فارس كثيراً بهذا الخبر، وفتحا على عادة الفرنسيين قنّينة شامبانيا للاحتفال بالحدث، وراحا يحسبان موعد مجيء عادتها الأخير، ويُعيدان الحساب، حتّى تأكّدا من مضي شهر ونصف الشهر على هذا الموعد.

وجال فارس وزوجته الحبلى في شوارع مدينة الهافر الفرنسيّة حيث رست الباخرة التي أقلّتهما من نيويورك. وجالا على أرصفتها المسقوفة بالقناطر وبين أعمدتها، وفتّش فارس عن الموظّف الفرنسي الذي ساعده أثناء إقامته القصيرة في المدينة استعداداً

لعبور المحيط إلى أميركا، لكنّه لم يجده، ووجد أنّ المكان الذي كان يعمل فيه تحوّل إلى مطعم، فحزن وأحسّ فجأةً بمرور الوقت، وبأنّ الزمن خاطف مهما تكن الأيّام صعبةً أو بطيئة. ستّ عشرة سنة مرّت كأنّها في منام.

ثمّ أمضيا وقتاً ممتعاً في باريس. باريس المسارح والمعارض والمكتبات. باريس كليّة الطبّ، والمستشفيات. باريس الحركة العمّالية، وباريس العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة. وباريس المدينة التي تحبّ نفسها وتعتني بنفسها وتجد متعة في التخلص من كلّ ما يمنعها تبدو كلّ يوم أكثر جمالاً ورونقاً وألقاً.

أحبّت ساوا باريس كثيراً، رغم أنّها كانت تلفت النظر بشكلها الصيني الواضح أينما ذهبت، ولكنّها اعتادت على ذلك.

وكان الباريسيّون ينادونها بـ«مدام» أينما ذهبت، وكانوا ينادون زوجها بـ«موسيو» أينما ذهب. أحبّت ساوا هاتين الكلمتين وأحبّت اللغة الفرنسية، وحفظت منها بعض العبارات وعدداً من المفردات، وقرّرتْ أن تتعلّمها حتّى الإتقان في بيروت حيث يجيدها الكثير من اللبنانيين المتعلّمين.

وزارا برج إيفل، وزارا قوس النصر في ساحة النجمة، وتنزّها على نهر السين في باخرة مكشوفة، ومرّا قرب كنيسة نوتردام حيث تجري أحداث رواية «أحدب نوتردام» التي قرأها فارس بالفرنسية في لبنان قبل سفره إلى أميركا، وشاهدها مسرحيّةً باللغة الإنكليزيّة في نيويورك.

أخبر فارس ساوا قصّة أحدب نوتردام وتأثّرت بها كثيراً.

وفي متحف اللوفر رأى فارس تلاميذ مدرسة صغاراً، متحلّقين

حول معلّمتهم التي كانت تشرح لهم عن آثار منقولة من الشرق، فتنهّد وقال:

ـ متى يا بلادي؟

ورأى في المتحف ذاته نساء ورجالاً من كلّ الأعمار يتأمّلون ما فيه.

لم تكن ظروف حياته في نيويورك تسمح له بأن ينهل من الثقافة كما يشتهي، ولن تتوفر له الفرصة لزيارة باريس كلّ يوم، باريس عاصمة الثقافة، لذلك حاول أن يستفيد ما استطاع من إقامته فيها.

وأقام فارس وساوا أثناء زيارتهما باريس في الضفّة اليسرى لنهر السين في الحيّ اللاتيني، قرب مبنى جامعة السوربون، وكانا يتمشّيان نزولاً حتّى يصلا إلى نهر السين ويجلسا في أحد المقاهي المطلّة عليه. والتقى فارس هناك عدداً من اللبنانيين الذين كانوا يدرسون في باريس، أو الذين كانوا في طريقهم إلى الأميركيّتَين أو عائدين منهما. وتناقش طويلاً مع كثير من هؤلاء الذين التقاهم في أمور الوطن وبخاصّة بيروت، وما أُنجِز فيها من مشاريع قبل سفره وبعده، وما يجب أن يُنجز: كان ما يزال وليداً بعمر أشهر عندما انتهى العمل في شقّ طريق بيروت دمشق، وجرى أوّل دولاب عليها منذ عهد الرومان، أي منذ ما يزيد على ألف وثماني مئة عام، واختصرت هذه الطريق الوقت ما بين المدينتَين إلى النصف وأكثر، واتسعت لعربات الخيل التي كانت تنقل الناس والبضائع، وانتشر الزجاج في بيروت واتسعت شبابيك البيوت وأبوابها، وما من شبّاك إلّا صار من زجاج. لم تعد فتحات البيوت ضيّقة كما كانت في السابق، فالأمان يعمّ اليوم في المدينة. وعُبّدت طرقات كثيرة وكثُرت عليها عربات الخيل ليل

نهار، وأضيئت الشوارع الرئيسيّة، وجُرّت المياه إلى البيوت في قساطل معدنيّة، وحُدّث مرفأ المدينة وكثرت الجامعات والمدارس، وأنشئ البريد والبرق لترتبط بيروت بشبكة الاتصالات في العالم أجمع، ومدّت سكّة الحديد بين بيروت ودمشق لتصبح بيروت مرفأ الشام والداخل السوري كله. وبدأت تكثر الصحف والنشرات الدوريّة المتنوّعة، ومصر قريبة من بيروت لمن أراد أن يكتب بحريّة وأن يعمل في السياسة. وانتشرت المطاعم في المدينة والمقاهي والفنادق والمحلاّت التجارية، وتكاثر وكلاء الشركات الأجنبيّة، وتضاعف عدد سكّان بيروت ليبلغ مئتي ألف نسمة. وكانت الدلائل تتكاثر على أنّ بيروت ستصبح عاصمة رسميّة للبنان الذي سينفصل عن سورية وفلسطين وسيصبح دولةً مستقلّةً لها شأن. (لم يكن يتوقّع أحد أن يصيب هذا البلد ما أصابه في ما بعد من ويلات، وأن يعاني ما عاناه أبناؤه من مآسٍ وحروب دوريّة.)

آخر ما قاله فارس لساوا لم يكن يُنبئ بسوء.

قال لها إنّه مشتاق إلى صحن كبّة نيّة مع كثير من زيت الزيتون والبصل والنعناع. وكانت ساوا تفهم ما يقول لأنّه كان دائماً يُحدّثها عن الأكل اللبناني وعمّا يُحبّه منه وما يشتهيه، وكانت تعرف شيئاً من هذا المطبخ بسبب إقامتها مع فلورا، فوعدته بأن تكون أفضل طبّاخة في سورية.

أبدى فارس إذن رغبة قويّة في صحن كبّة نيّة مع كثير من زيت الزيتون والبصل والنعناع، ثمّ سكت نهائيّاً عن الكلام... لأنّه مات.

مات في القطار قُبيل وصولهما إلى مرسيليا.

لم يستطع أن يشكو لها من حِمْل ثقيل حلّ فجأةً على صدره ومنعه من التنفّس.

لم يستطع أن يشكو لها اختلال الأشياء فجأةً ومَيَعانها.

نادت ساوا على المراقبين، وحاولت إسعافه بما استطاعت لكن بدون فائدة، ولمّا تيقّنت من موته لفّته بحرام وجلست قربه تتأمّل الزمن من نافذة مقصورتها وتبكي بصمت وكرامة، حتّى وصل القطار إلى المحطّة في مرسيليا.

وكان عليها أن تتخذ في هذه الساعات القليلة التي كانت تفصلها عن المحطّة قراراً حاسماً: هل تدفنه في مرسيليا وتعود بمفردها إلى نيويورك، أم تطلب معالجة الجثّة حتّى تستطيع الوصول بها إلى مرفأ بيروت لتُدفن هناك في مقابر الأهل؟

وأين تلد ما في بطنها؟

وما كاد القطار يصل إلى مرسيليا حتّى كان قرارها اتُخذ: تتابع إلى بيروت مباشرة دون المرور بروما ونابولي. لم يُخِفْها أن تُقبل على أهل زوجها بجثّته وهم ينتظرون طبيباً شفى الموتى وطبّقت شهرتُه الآفاق، ولم يُخِفْها السفر وحدها إلى جانب جثّة وفي بطنها جنين، ولم يخفها جهلها العربيّة ولا عادات الشرق البعيد. أرادت أن تكون وفيّةً لحلم فارس في العودة.

ساوا لم تكتب لتُعلم الأهل بما جرى لابنهم، ولتعلمهم بوصولها إلى بيروت قبل الموعد لأنّها ستسبق الرسالة.

قرّرت ساوا أن تركب أوّل باخرة متّجهة إلى بيروت، وأن تلغي

طبعاً زيارة روما ونابولي كما خطّطت مع زوجها. وستتدبّر أمرها بما استطاعت حين وصولها إلى هناك. وهي تعرف اسم والده وأسماء إخوته وبعض أقاربه، وتعرف عناوينهم كما هي مسجّلة على الرسائل التي كانت تصله منهم.

كانت تزوره مراراً في النهار، في الزاوية المعتمة التي وضع فيها على ظهر الباخرة، وتصلّي له على طريقتها، لأنّها لم تنشأ على طريقة، ولم تكن على دين معيّن.

وكم آلمها ألّا تستطيع رؤيةَ البحر المتوسّط بعينيه، كما وصفه لها مراراً.

لم تكن مياه البحر المتوسّط زرقاء ورائعةً كما كان يخبرها، بل كانت مخيفةً وغاوية.

نعم غاوية!

لكنْ ما من قدرة في العالم تستطيع أن تغوي ساوا بالانتحار في ماء المتوسّط، وفي بطنها نطفة من فارس.

لم يكن مرفأ بيروت قادراً في تلك الأيّام على استقبال السفن البخاريّة الكبيرة، كتلك التي كانت ساوا مسافرةً عليها، لذلك كانت قوارب صغيرة تقوم بدور التاكسي وتنقل المسافرين والبضائع من الباخرة الراسية بعيداً إلى رصيف الميناء. وكان هذا أمراً جديداً على ساوا، وكلّ شيء كان جديداً. ولم تفهم شيئاً ممّا يجري عندما راح يتنافس عليها وعلى التابوت الذي فيه جثّة

زوجها أصحابُ قوارب التاكسي البحري. وفي زحمة هذه الفوضى أُنزلت هي في قارب وأُنزل التابوت في قارب آخر منافس، وراحت تصرخ بكلّ قوّتها باللغة التي كانت تأتيها، وبالكلمات التي كانت تأتيها، وتكاد أن تقع في الماء حتّى لا تسمح لنفسها بأن يغيب التابوت عن نظرها. وكان الوقت الذي يفصلها عن الشاطئ دقائق فقط أحسّتها دهراً، لكنّ جثّة زوجها وصلت أخيراً في الوقت الذي وصلت فيه هي تماماً.

ثمّ أشارت إلى الحمّالين بأن يضعوا التابوت في مكان منعزل، ووقفت قربه في انتظار أن يغادر المسافرون وأن تخفّ الحركة على الرصيف، حتّى تستطيع أن ترى ما تستطيع عمله.

وصلت الباخرة عند الظهر في تشرين الثاني، وكان الطقس صحواً والحرارة معتدلة جدّاً.

وفي هذه الأثناء مرّ «كمال مناط»، الذي كان يعمل في المرفأ مترجماً، ورأى هذه الأجنبيّة ذات الشكل النادر الغريب، واقفةً حائرةً قرب تابوت، فتقدّم منها وسألها بالفرنسيّة أوّلاً عن أمرها، ثمّ انتقلا سريعاً إلى التخاطب بالإنكليزيّة، فأخبرته بأمرها، وانتبه إلى أنّ اسم زوجها الذي لفظته على طريقتها لم يكن بغريب عليه، بل بالعكس، كان يعرفه، إنه اسم قريب، أليس هو الطبيب الشهير؟ ووعدها بأن يسأل عن أهله وبأن يعود إليها في أسرع وقت ممكن، ونصحها بأن تضع التابوت في زاوية وأن ترتاح في قاعة الانتظار. وساعدها في نقل التابوت إلى زاوية هادئة منعزلة، وتركها في قاعة الانتظار بعدما أوصى بها المسؤول عن المكان.

كان من البديهي أن يقصد كمال مناط أصدقاءه ومعارفه من طلّاب وأساتذة الجامعة الأميركيّة يخبرهم أوّلاً عن وفاة الدكتور

فارس هاشم، الطبيب الشهير المغترب في أميركا، الذي كان طالباً في الجامعة والذي تابع تخصّصه في الولايات المتحدة، ويسألهم عن أهله وأقربائه.

لم يكن البائس يدري على الأرجح إلى ما سيؤدّي سؤالُه.

ثلاثة طلّاب ممّن سمعوا بالخبر بادروا فوراً إلى حياكة المؤامرة وإلى تنفيذ خيوطها بلا إبطاء، إذ كلّفوا واحداً منهم بأن يدلّ كمال على بيت أهل فارس في منطقة الصيفي قرب بيروت (وهذه المنطقة تقع اليوم في قلب بيروت)، أمّا الاثنان الباقيان فاستأجرا فوراً عربة خيل مع سائسها الذي يثقان به وقصدا بها المرفأ.

أمّا الموظّف المناوب الذي أوصاه كمال بالسيّدة الأجنبيّة، فقد لعب دوره تماماً كما هو مطلوب منه، إذ ناداها في الوقت المناسب وراح يسترسل في السؤال عن أمرها، وكان لا يعرف لغةً، ولا يعرف حتّى العربية الفصحى التي كان يقرؤها بصعوبة. كان لا يعرف سوى التخاطب باللهجة المحلّيّة التي نشأ عليها، لكنّه أجبرها بهذه الطريقة على البقاء واقفةً أمامه مدّة طويلة من الوقت، حتّى استطاع الطالبان وضع التابوت في العربة، والمضي به إلى البحر في عتمة الليل الذي كان حلّ بالكامل، وقد أخرجا هناك الجثّة وحفرا للتابوت حفرة طمراه فيها، ثمّ ألبسا الجثّة ثياب «خواجا» جديدة مع قبّعة إفرنجيّة، ووضعا سيجاراً مشتعلاً بين شفتيها، وأجلساها في العربة في الوسط بينهما ليسنداها كلّ من جهة، ومضيا بها إلى الجامعة الأميركيّة من بابها الشرقي الذي يُسمّى اليوم «المديكل غايت».

أمّا ساوا، بعدما استطاعت أن تحرّر نفسَها من استجواب هذا

الموظّف الذي لم يكن له نهاية، أسرعت لتزور فارس ولـ«تخبره» بما جرى لها، لكنّها لم تجده! فعادت فوراً عند الموظّف وجرّته بيده إلى المكان، فادّعى أنّه لا يفهم شيئاً، وظلّ على هذا الادّعاء حتّى بدأت ساوا بالصراخ.

كانت ساوا على علم بسرقة الجثث في بيروت، أخبرها بذلك فارس، وأخبرها بما كان يقوم به مع رفاقه عندما كانوا طلّاباً حتّى تستمرّ الكلّيّة، لكنّها لم تفكّر يوماً بأنّ ذلك سيصيبها.

زوجي! أين زوجي؟ كانت تصرخ باللغة الإنكليزيّة. وكان المكان خالياً، فماذا ينفع هذا الصراخ الذي كان يبتلعه ضجيج الموج؟

إلى أن وصل أخيراً المترجم كمال، وكان استدلّ مع مرافقه الطالب على بيت أهل فارس إبراهيم بعد أن أضاعا وقتاً طويلاً وثميناً ليجداه (وهذا كان بالطبع دور الطالب الدليل.) وقد أمضى كمال فوق ذلك وقتاً طويلاً ليجد طريقة مناسبة لإخبار أهل فارس بالتدريج بوفاة ابنهم، فأخبرهم أوّلاً بأنّه التقى امرأةً على المرفأ صينيّة الملامح، تدّعي أنّها زوجة ابنهم فارس. وفي الطريق إلى المرفأ باح لهم بأنّ معها تابوتاً فيه جثّة ابنهم الذي مات في القطار ما بين باريس ومرسيليا.

وقد اعتمد هذه الطريقة التدريجيّة حتّى لا يصرعهم الخبر.

ـ زوجي! كانت ساوا ما زالت تصرخ حين أطلّ أبو فارس من بعيد وسمع صراخها وفهم كلامها فوراً لأنّه يعرف الإنكليزيّة، لكنّه ظنّ أنّها تبكي فقدان زوجها وحسب، لا اختفاء التابوت الذي فيه الجثّة، فأسرع إليها وناداها فوراً باسمها وخاطبها بالإنكليزيّة قائلاً لها: أنا والد فارس! وضمّها إليه، وغلّت بين

ذراعيه وبكت. وراحت النسوة من عمّات وخالات وجارات من اللواتي حضرنَ، بالعويل والصراخ، عندما رأين منصور يغمر الكنّة الصينيّة الغريبة الملامح.

ثمّ أراد الجميع مشاهدة التابوت، ليبكوا على الميت، لكنّهم لم يجدوا شيئاً، فذهبوا في كلّ مكان واحتاروا، وعندما وصلوا إلى الزاوية التي كان موضوعاً فيها، كانت ساوا استطاعت أن توضّح لمنصور ما قد حصل، فلم يستوعب الخبر أوّلاً، ثمّ أدرك سريعاً كلّ شيء. كان فارس يُطلعه على مسألة التشريح والجثث والجامعة عندما كان طالباً في بيروت.

كان الضابط سعدالدين الجباوي أوّل من اتصل به أبو فارس، لأنّه يعرف مدى الصداقة التي تجمعه بابنه. وكان قد زاره فور وصوله إلى بيروت عائداً من نيويورك، وسلّمه رسالةً من فارس. وكان على علم أيضاً بالمراسلات المستمرّة الجارية بينهما. وقام سعدالدين فوراً على رأس دوريّة ضربت نطاقاً حول مدخل الجامعة الشرقي ـ المديكل غايت ـ ونصبت كميناً للعربة التي تنقل الجثّة.

لكنّ العربة التي كانت فيها الجثّة وصلت قبل أن تصل الدوريّة. وكان الكمين في الخارج منصوباً وكانت الجثّة في الداخل يتوزّع أطرافها الطلّاب بعدما نودي عليهم من المكتبة ومن غرف نومهم وأماكن لهوهم، وراح كلّ منهم يشرِّح ما كان من نصيبه، تحت إشراف أستاذهم. كانت الجثّة تشرّح فور وصولها حتّى يستحيل استرجاعها بالمطلق. وحتى لا يبقى أمل فيها لذويها ولا لأيّ كان.

الحارس عند المدخل الشرقي رأى عربة يقودها سائسها وفيها طالبان بينهما في الوسط رجل يرتدي لباساً إفرنجيّاً ويضع على رأسه قبّعة كالأجانب، وبين شفتيه سيجار مشتعل.

وقال الحارس إنّه لو خطر في باله وتأمّل هذا الأجنبي الجالس في الوسط، لربّما وجده قاتم اللون.

الضابط سعدالدين يعرف كيف تجري الأمور، ويعرف أين تنتهي الجثث التي تختفي ويُبلَّغ عنها، وهو يغمض عينه أحياناً لأنّه من مناصري الجامعة، وقد عمل ما في استطاعته وما زال لمساعدتها، لكنْ لكلّ شيء حدود. فجثّة العظيم تُشيَّع!

كان الخوفُ من سرقة الجثث في بيروت منتشراً قبل سرقة جثّة فارس، لكنّ هذه الحادثة، أي سرقة جثّة طبيب يحقّق المعجزات، ومن على رصيف المرفأ، وفي وضح النهار، ضاعفت مشاعر الخوف عند البيروتيين على موتاهم، وعلى مرضاهم، وعلى أولادهم، وعلى كلّ شخص منعزل في ليل، وصارت النساء تمضي أوقاتاً طويلة في المقابر، وتكثّف زياراتها لقبور الأهل والأبناء والأقرباء المدفونين حديثاً حتى تبلى جثثهم، وصار الرجال يرافقون النساء في كثير من الأحيان، لأنّ شائعات راحت تنتشر مفادها أنّ بعض هؤلاء النسوة يتخذن زيارة القبور ذريعة للقاء الرجال هناك.

وراجت شائعات في المدينة لا تحصى ولا تعدّ عن سرقة الجثث.

وتناقلت الألسن أخباراً عن سرقة الجثث في القاهرة والآستانة لأنّ فيهما مدرستين لتدريس الطبّ.

ولهجت الألسن في تلك الفترة أيضاً بما جرى في مدينة أدنبره في بريطانيا، عام ١٨٢٧ حيث قَتل رجلان، «بورك» و«هير»، ستة

عشر شخصاً، وباعا جثثهم إلى أستاذ يدرّس علم التشريح. واستمرّت هذه المجزرة مدّة عام كامل، ولولا انكشافها بمقتل المرأة الآتية من الريف لتبحث عن إبنها، لكانت استمرّت. وما من طفل يومذاك في بيروت إلّا وسمع بهذين الاسمين، وبطريقتهما في تنفيذ جرائمهما بالتفصيل. سدّ «هير» مَنافس المرأة وضغط «بورك» على صدرها حتّى ماتت وجثّتها مكتملة بدون تشويه.

كان أساتذة التشريح في كلّ مكان من العالم يريدون الجثث بلا نقصان.

أمّا ضابط الشرطة سعدالدين الجباوي فلم يستطع وضع اليد على جثّة صديقه، رغم أنه كان موقناً بأنّها في مشرحة كلّية الطب في الجامعة الأميركيّة، أو ربّما، في كليّة الطبّ في الجامعة اليسوعيّة التي كانت قد أُنشئت قبل عدّة سنوات، لكنّ هذه الجامعة كان لها على ما يبدو وسائلها المختلفة.

ومعرفة مكان الجثّة كان أمراً شديد البساطة بالنسبة إلى سعدالدين. كان عليه فقط أن يستعيد تسلسل الأحداث، وأن يسأل كمال مناط الترجمان على المرفأ عن هويّة الذين أخبرهم. وقد هَمَّ كمال الترجمان بأن يبوح له بأسماء أصدقائه، من غضبه عليهم، لكنّه تراجع.

وكان من السهل على سعدالدين أن يسأله عمّن يعاشر، ومن هم أصدقاؤه، لكنّه اكتفى بعلمه!

واكتفى سعدالدين بعلمه، لأنّه يعرف أنّ جثّةً واحدة لم تخرج من كلّية الطب منذ درجت موضة سرقة الجثث، أي منذ تأسيس الكلّية.

ولم يكن في استطاعته والحالة هذه، إلّا أن يوصل أبو فارس وساوا إلى البيت الذي اشتراه الوالد لابنه ليقيم فيه مع عائلته، وأن يرجوهما بألّا يتردّدا بالاستعانة به حينما يشاءان.

جرجي زيدان الذي وصل من القاهرة ليكون في انتظار صديقه فارس على المرفأ بعد أيّام، صُدم بالخبر، والتقى على الفور صديقه سعدالدين، وكان الاثنان على الرأي ذاته بعد النقاش، لذلك قرر سعدالدين بموافقة جرجي أن يوقف البحث عن الجثّة.

وهنا انتهت رحلة فارس منصور هاشم في هذه الحياة الدنيا.

لكنّ رحلة ساوا لم تنتهِ، لأنّها كانت حبلى، فأين ستلد؟

وكما أنّ ساوا لم تتردّد حين مات زوجها في القطار، وكما أنّها قرّرت إكمال الطريق معه إلى وطنه الذي كان يحبّه ويحلم بالعودة إليه، فإنّها في هذه اللحظة أيضاً لم تتردّد. فبعدما انتهت العائلة من تقبّل التعازي، أي بعد حوالي أسبوع، جاءها «عمّها» منصور وقال لها: قرّري ما شئتِ وأنا أضمن لكِ تنفيذ القرار الذي تتخذينه، فإذا أردت العودة إلى أميركا فسيكون لكِ ذلك متى شئتِ، وإذا أردتِ العودة إلى بلد والديك يكون لكِ ذلك، وكلّ الثروة التي جناها ابني هي لكِ ولوليدكِ، فلم تمهله الانتهاء من كلامه، بل أجابته بأنّها قرّرت أن تبقى هنا، في بيروت، وأن تعيش في بيت زوجها وفي وطنه، مع ابنه أو ابنته التي ستولد بعد حوالي سبعة أشهر.

وولَدَت ساوا ابناً سمّته «فارس» على اسم أبيه.

وأحبّت ساوا الجميلة حياتها في بيروت، وكانت عاملة نشيطة، ونجحت في التجارة وتضاعفت ثروتها.

واعتادت على الناس الذين كانوا يأتون من كلّ مكان ليتفرّجوا عليها. واعتادت على صِبية الأحياء يتراكضون نحوها حين يرونها. وقد عانت أوّلاً من ذلك ثمّ إنّها تأقلمت. وصارت تعرف في أي شارع تمرّ وفي أي ساعة من النهار أو من الليل، ومن هو جدير بالمعاشرة ومن هو غير جدير، وكيف تلتقي بالناس وأين. عرفت خارطة الأشياء والأمزجة.

ورغم ذلك، قيل عنها الكثير، لأنّ بيروت لم تكن تصدّق أنّ امرأة بهذا الجمال، وبهذا الغنى تستطيع مقاومة عروض الرجال المشاهير التي كانت تُقدَّم لها. وسرت شائعة تفيد بأنّ جمال باشا التركي الذي لقّبه اللبنانيّون والسوريّون بالسفّاح، والذي حاصر جبل لبنان أثناء الحرب العالميّة الأولى، وأحدث مجاعةً أودت بربع سكّانه، قد اختلى بها، وأنّها حبلت منه إثر تلك الخلوة. وأنّها هاجرت لذلك إلى الصين لتلد هناك وتترك ابنها إلى أقربائها. وقيل إنّ هذا الولد صار عندما كبر من مساعدي ماو تسي تونغ، وكان صديقَ الطبيب اللبناني الأميركي الدكتور جورج حاتم الذي كان مقرّباً من الزعيم الصيني.

ثمّ وَلَدَ فارس ابنُ ساوا صبيّاً سمّاه منصور على اسم جدّه والد أبيه، وذلك نحو العام ١٩٢٥.

ثمّ ولد منصور في العام ١٩٥١ صبيّاً سمّاه «جوان» على اسم ابن الشاعر الغَزِل عمر بن أبي ربيعة.

وجوان هذا هو الذي قال: سئمتُ العيش في بلد يتألّف من مسلمين سنّة وشيعة ودروزاً، ومن مسيحيين موارنة وروماً وآخرين، وعلى حدوده بلد يسيطر عليه اليهود. ولمّا قيل له: أتستطيع العيش في الغربة وقد تخطّيتَ الخمسين وأنت متجذّر في أرض لبنان، قال: نعم، أستطيع أن أقتلع جذوري وأحملها على ظهري وأزرعها في المكان الذي أحبّ العيش فيه!

هاجر جوان إلى البرازيل وكان فوق الخمسين من عمره. ولم تكن هجرته بالتأكيد بسبب وضعه المادّي.

وأمّا فلورا فعادت إلى لبنان، وأقامت في بيروت قرب ساوا، وتزوّجت، وأنجبت وهي في العقد الخامس ولدين، ابناً وابنةً. أمّا الابن فعاد إلى كوبا وتزوّج هناك وأنجب أولاداً قيل إنّهم لعبوا دوراً في الثورة الكوبيّة التي قادها كاسترو، وقد قُتل أحدهم وهو يتصدّى للإنزال الأميركي في خليج الخنازير عام ١٩٦١(؟)

وكانت فلورا تؤكّد دائماً أنّ علاقة ساوا بجمال باشا السفّاح كانت محضَ شائعة، وأنّ ساوا لمّا رأت الوضع في المنطقة يسوء إلى هذا الحدّ، تدبّرت أمرها وسافرت إلى الصين مع ابنها فارس، ورجتها أن ترافقها إلى هناك، لكنّها استصعبت السفر مع ابنين وقد تقدّمت في العمر.

وتقول فلورا أيضاً إنّ ساوا أدّت واجبها في دفن بقايا أهلها، بعدما استدلّت على ضيعة والدها، وأقامت في بكين حتّى انتهت الحرب في المنطقة، وعادت من ثمّ إلى بيروت لتُقيم فيها إلى الأبد.

وهذا ما يؤكّده جوان أيضاً.

للمؤلف

- **حين حلّ السيف على الصيف،** (شعر)، مع ترجمته إلى الفرنسية. دار الفارابي، بيروت، **Le Sycomore, Paris** ١٩٧٩.
- **لا شيء يفوق الوصف،** (شعر)، منشورات لبنان الجديد، بيروت ١٩٨٠.
- **أنسي يلهو مع ريتا،** كتاب البالغين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣.
- **المستبد،** (رواية)، دار أبعاد، بيروت، ١٩٨٣. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١.
- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم،** (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٦. صدرت مترجمة إلى الفرنسية عن **Actes -Sud**،

بعنوان **Passage au Crépuscule**، وبالإنكليزية عن دار **Press of texac university** ١٩٩٢. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.

- **أهل الظل**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٧. صدرت مع ترجمتها الفرنسية عن **AMAM**، تولوز ١٩٩٧. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **تقنيات البؤس**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٩. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **غفلة التراب**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٩١. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **أي ثلج يهبط بسلام**، (شعر)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٣.
- **عزيزي السيد كواباتا**، (رواية)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٥.

  (صدرت في ثماني لغات أوروبية هي:
  الإسبانية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية الإنكليزية الهولندية، السويدية، والبولونية، في سلسلة «ذاكرة المتوسط»).
  ـ طبعة ثانية، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **ناحية البراءة**، (رواية)، دار المسار، بيروت ١٩٩٧. وصدرت بالإنكليزية عن دار إنترلينك.
- **ليرننغ إنغليش**، (رواية)، دار النهار ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩، والثالثة ٢٠٠٠، وصدرت عن رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، في آذار/ مارس ٢٠٠٥، وصدرت بالفرنسية عن دار أكت ـ سود
- **تصطفل ميريل ستريب** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١، وصدرت

بالفرنسية عن دار أكت ـ سود، والإيطالية عن دار جوفانس، واليونانية عن دار كيدروس.

- **إنسي السيارة** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢.
- **معبد ينجح في بغداد** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥. صدر بالفرنسية عن دار أكت ـ سود ٢٠١٠.
- **عودة الألماني إلى رشده** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، حزيران/ يونيو ٢٠٠٦.

  صدرت بالألمانية عن دار سوركمب ٢٠٠٦.
- **أوكي مع السلامة** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨.



"وسر فارس بعودة والده إليه، وإن كان سروره مشوباً بغصة من استطاب طعم الفلتان المتحرر من كل رقابة أبوية، ولكنه سرّ كثيراً أيضاً لأنه سيحقق أخيراً حلمه بأن يصير طبيباً، ويساهم في جعل الفرح يعمّ هذه المدينة المزدهرة باطراد، بيروت، لؤلؤة الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، وذلك رغم تلك الانتكاسة التي أصيبت بها والتي أدت إلى اختفاء يورما المفضلة.

وستكون أجساد الناس مصدر سعادة لهم، لا مصدر خوف وهمّ.

وسيتعلم أولاده في المدرسة ذاتها التي سيتعلم فيها أولاد صديقه سعد الدين الجباوي، ولن يباعد بينهم اختلاف الدين، بل سيجمعهم وسيفتنون باختلافهم. وسيجمعهم الوطن الواحد".

(من الرواية)





ISBN 9953-21-500-6